عبد العزيز كامل

فى
نهر الحيـــاة

تقديـــــم

الدكتور / محمد سليم العـــوا

المكتب المصرى الحديث
www.almaktabalmasry.com

جميع حقوق الطبع والنسخ والنشر محفوظة

الطبعة الأولى

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى طريقة كانت ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو البث عن طريق الشبكات الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقدماً

المكتب المصرى الحديث
www.almaktabalmasry.com
info@almaktabalmasry.com

القاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت: ٣٩٣٤١٢٧
الإسكندرية: ٧ شارع نوبار المنشية ت: ٤٨٤٦٦٠٢

فى نهر الحياة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

بقلم الدكتور/ محمد سليم العوا

عبد العزيز كامل... اسم عاش معه جيل كامل من الشباب الذين التحقوا بحركة الإخوان المسلمين، والشباب الذين عارضوا حركة الإخوان المسلمين وقاوموا انتشارها، والشباب الذين كانوا بين بين، لا هم مع الإخوان المسلمين ولا هم ضدهم.

وعبد العزيز كامل رجل عاش حياته كلها مؤثراً في محيطه ووطنه وأمته، جامعاً بين التعليم الذي يؤثر تأثيراً مباشراً في الناس، وبين العمل العام الذي يترك أثره في أجيال متوالية تقتدي بالصالحين من المشتغلين به.

وعبد العزيز كامل مدرسة كاملة شديدة الخصوصية، لا يعرف قدرها إلا من اقترب منها ملتحقاً به أو مراقباً صنعها في روادها من الشباب والرجال على مر عمره الذي لم نُمَتَّعْ به طويلاً.

وعبد العزيز كامل لهذا كله، ولغيره، يحتاج إلى مؤلَّفٍ، وربما مؤلفات، تفيه حقه على الذين أفادوا منه أستاذاً وصديقاً وعالماً ورجل دولة.

لذلك أقبلت، بغير تردد، حين طلب مني أبنائي في المكتب المصري الحديث أن أقدم لهذا الجزء الأول من مذكراته على قراءة الأوراق، التي كتبت بخطه الواضح المتتابع، والتي كانت تشعرني أنني أستمع إليه لا أنني أقرأه. والمتمرسون بالقراءة والكتابة يعرفون أن من أعظم دلائل صدق الكاتب أن تشعر عند قراءة كلامه أنك تستمع إلى حديثه؛ وهذا هو ما سوف يستشعره القراء الذين واتاهم حظهم فاستمعوا، ولو مرة، إلى عبد العزيز كامل.

*****

والكتاب الذي بين يدي القارئ هو جزء واحد من أربعة أجزاء كان عبد العزيز كامل، رحمه الله، ينوي أن يوزع كتابه عليها، وقد أخبرتني أرملته، السيدة/ نوال شكري، أنها تعلم أنه أتم الكتاب كله، فقد كان يحدثها عن بعض ما أورده في أجزائه الثلاثة الأخرى، لكن الذي عثرت عليه ابنته، السيدة/ نهى عبد العزيز كامل، هو هذا الجزء وحده، فلعل الأيام تظهرنا على الأجزاء الثلاثة الأخرى لتكتمل بين أيدينا رؤية علم من أعلام العصر لحياته وعطائه ونجاحه وإخفاقه، فمن ذلك كله تؤخذ العبرة وتكون العظة.

*****

يبدأ عبد العزيز كامل كتابه بمقدمة عن المنهج القرآني في عرض الأحداث يتخذ نموذجاً فيها آيات من سورة البقرة ومن سورة التوبة، وهي آيات تتحدث عن المؤمنين، وعن المنافقين، وعن الضعفاء، وغير القادرين، وأصحاب الأعذار، وعن الذين يحبون أن يكونوا مع رسول الله ﷺ في جهاده لكنهم لا يجدون ما ينفقون ولا يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه، وعن الأغنياء الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف (!) فطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون.

وهذه الأصناف من الناس توجد مع فوارق في كل مجتمع، وفي كل عصر. والحكيم حقاً هو الذي يعرف كل صنف بخصائصه، ويعامله بما يستحقه دونما مجاملة ولا إخسار.

وتعطي المقدمة درساً آخر، عن أستاذ التاريخ الذي يدرس لتلامذته المنهج المقرر بعيوبه وأخطائه، فإذا فرغ منه شرح الحقيقة الكاملة عن تاريخ بلاده وتاريخ زعمائها حتى إن طلابه يشعرون «بأن ضمير مصر يتكلم على لسانه». وهو درس لكل مدرس يتعلمه من هذه المذكرات، ويذكر به ما يسميه رجال التربية اليوم «المنهج الخفي» الذي يؤثر به الأستاذ في تلامذته دون أن يكون جزءاً من «المقرر» الذي يختبرون فيه في نهاية العام.

*****

وفي هذا الجزء يطالع القارئ رحلة عبد العزيز كامل من الصوفية إلى السلفية إلى الإخوان المسلمين، وهي رحلة ممتعة بقدر ما هي مثيرة للتفكير، باعثة

على التأمل، دالة على الأثر العميق الذي يتركه «الشيخ» في نفس «المريد» لا بالمعنى الصوفي الدقيق وإنما بالمعنى الواسع الذي يشمل كل مؤثر وكل متأثر به.

في مرحلة الصوفية نرى عبد العزيز كامل يواظب على «الحضرتين» في الصباح والمساء، ويقرأ «الوظيفة» أو يستمع إليها دون أن يفهم كل كلماتها أو معانيها، ويمارس حركات الذاكرين متعجباً من سبب أدائهم إياها... ويقول عن نفسه: «كنت أقْبلُ من هذا وأدع.. وأحسست من أول الأمر أن هذا ليس الأسلوب الذي أستطيع أن أتابع به حياتي الدينية»... «كنت أحس القلق في شعائر الطريق، والذكر الجماعي، وتعدد الطرق، بينما الصلاة واحدة، والصيام واحد، والحج واحد... فلماذا هذا التعدد؟؟» وكان الفتى عبد العزيز كامل يقارن بين بعض المعاني المتكررة في كتب التصوف، وبين العبارات الدالة عليها، ثم يسأل نفسه: «وأين أذهب بقول الله تعالى: وكُلُّهمْ آتيه يوم القيامة فرداً»؟ فقاده ذلك إلى درس القرآن الكريم وأحكام تجويده، والعمل مع القارئ المؤذن في جامع سلطان بمنطقة راغب باشا بالإسكندرية في خدمة المسجد ونظافته ليتاح له أن يجلس إليه ليتعلم التجويد منه....

وعندما جرت محاورة طريفة بينه وبين شيخه الصوفي، رحمه الله، حول ما يتوقف عنده عبد العزيز كامل مما يفعله «أصحاب الطريق» ويعرضه على آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ، قال له الشيخ عبارة بقي عبد العزيز كامل يحفظها على طول الزمن، ويصفها بأنها من أكرم ما حفظ عن شيخه وبأنها من روح الإسلام وجوهره: «يبدو أن قراءاتك ستبعد بك عن طريقنا ولكن تذكَّر دائماً أُخوَّتنا في الله وأننا جميعاً مسلمون نؤمن برب واحد، ونبي واحد، وقرآن واحد، وقبلتنا واحدة.. إذا فرقت بيننا الطرق فإن قوة الإسلام تجمعنا». ما أحكم الشيخ وأرحمه بالمريد، الشارد، الذي يوقن أنه لن يكون معه على الطريق بعد هذا الحوار، وهو مع ذلك يستبقي أخوته ومحبته، حتى كان عبد العزيز كامل يزوره في كل مناسبة إلى أن لقي الشيخ ربه.

وهكذا يجب أن تكون روح المربين مع الذين يتلقون العلم عنهم، وهكذا ينبغي أن تكون سعة صدورهم إذا ضاقت صدور الشباب، أو قصرت أفهامهم، أو لم تحتمل طاقتهم ما يريد المعلمون أن يحملوهم عليه.

*****

وكان من العجيب ـ في نظر عبد العزيز كامل ـ أن يجد أثراً من التصوف عند الإخوان المسلمين بعد أن تعرف عليهم، وهو يُرجع ذلك إلى النشأة الصوفية للأستاذ حسن البنا المرشد المؤسس رحمة الله عليه، وإلى تصوف والده الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا، رحمه الله، الذي كان محدثاً فقيهاً متصوفاً، وهي أوصاف اجتمعت فيمن لا يحصون من العلماء على مر التاريخ. وعبد العزيز كامل الذي لا يخفي إعجابه بالأستاذ حسن البنا ودروسه ونظراته في القرآن الكريم يقول عن نفسه: «وكنت أتوقف عند أي تصرف فردي أو جماعي في الإخوان لا أجد له سنداً من كتاب أو سنة، وأدى هذا إلى حوار استمر سنين تعلو نبرته وتنخفض بيني وبين فضيلة الأستاذ المرشد».

ويحكي عبد العزيز كامل عن أثر مرحلة التصوف في حياته فيقول: «بقيت عندي من فترة التصوف القصيرة حب العبادة وآداب السلوك... ولم أقبل مبدأ الطاعة للشيخ وأن يكون الإنسان بين يديه كالمريض بين يدي طبيبه أو الميت بين يدي غاسله... وانتهيت إلى أن الحَكَمَ بيني وبين الناس ما أقرا من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.. وهذا عقلي سيحاسبني الله عليه، ولن يحاسبني على عقل عبد من عباده.... وظل في قلبي رباط الود للشيخ فقد كان سمح الخلق مجتهداً في طلب العلم».

ومر عبد العزيز كامل بعلاقة مع جماعة أنصار السنة، وهي جماعة سلفية صالحة، لكنه في أول خطبة حضرها لإمام منهم أخذ عليه عنفه، وطول خطبته، وهجومه على طوائف من المسلمين؛ يقول عبد العزيز كامل: «ووجدت نفسي أقبل من كلام الشيخ وأدع.. لمَ هذا العنف وهذا الهجوم الضاري على بعض أهل القبلة.. وتذكرت كلمة الشيخ الصوفي: إذا باعدت بيننا الحياة فإن الإسلام يجمعنا.. هل بمثل هذا الأسلوب نجمع قلوب المسلمين؟ لو صلى هؤلاء في زاوية الشاذلية لحدث صراع، ولو جاء الشاذلية هنا لحدث صراع، والإسلام يجمع.. فكيف الطريق؟».

*****

من أهم ما في هذا الكتاب ما كتبه عبد العزيز كامل عن حادث مقتل المستشار أحمد الخازندار بك، الذي كان رئيساً لمحكمة الجنايات وقتله اثنان من شباب الإخوان هم محمود زينهم وحسن عبد الحافظ صباح يوم ٢٢ مارس ١٩٤٨.

فهو يورد رواية دقيقة لاجتماع عقد في المركز العام للإخوان المسلمين، ويروي نقلاً عن أستاذنا الجليل الأستاذ مختار عبد العليم[1] من أن الأستاذ المرشد، مساء يوم الحادث سها في عدد ركعات العشاء، فصلى ثلاث ركعات ثم أكمل وسجد للسهو. يقول عبد العزيز كامل: «وما أذكر على طول صلاتي مع الأستاذ أنه سها مرة».

.....

ويحكي عبد العزيز كامل القصة - قصة مقتل الخازندار والمسؤولية الإخوانية عنها - التي لا أريد أن أرويها في هذه المقدمة، ليطالعها القارئ بألفاظه نفسها، فهي شهادة صادقة لقي صاحبها ربه ولم يعد له في نشرها أو حجبها أرب، ولكن واجبنا نحو الأجيال القادمة أن نطلعها على ما كان ليتبين لها الطريقان: طريق الحق والصواب، وطريق الضلال والخطأ، فتختار لنفسها الموضع الذي تحب أن تلقى الله عليه.

*****

لقد كان آخر ما سمعه عبد العزيز كامل من حسن البنا أنه يتمنى أن ينجو من المحنة (التي بدأت بمقتل الخازندار - رحمه الله - وانتهت بمقتل حسن البنا نفسه) بمائةِ شابٍ يتفرغُ لتربيتهم تربية إسلامية ينصرون بها دين الله، ليلقى - أي حسن البنا - ربه بهم فيجادلوا عنه يوم القيامة.

يقول عبد العزيز كامل: «ظلت هذه الكلمة ترن في أذني دائماً.. التربية والتكوين، ومن قبل كان هذا مدار صراع طويل ترك آثاره العميقة على تاريخ الإخوان. وحين اتضحت معالمه في نفسه - أي نفس حسن البنا - كان موج الأحداث قد ارتفع.. ارتفع كثيراً، واندفعت السفينة معه إلى البحر العميق».

ومن العجيب أن هذه الكلمة التي سمعها عبد العزيز كامل من حسن البنا، رحمهما الله تعالى، بقيت معه الزمن كله. فقد تهاتفنا في أثناء وجوده في بريطانيا

(١) كان من أعلام المحاماة في الإسكندرية عندما كنا طلاباً، ثم بعد أن تخرجنا في أثناء عملنا في النيابة العامة، وكان من أقطاب الإخوان المسلمين الذين يحترمهم الجميع بمن فيهم خصوم الإخوان، وكنا نأتي مكتبه ونحن طلاب، ثم بعد تخرجنا، فنجلس إليه جلسة الأبناء من الأب الرؤوف ونستمع منه إلى ما ليس مدوناً ولا معروفاً من تاريخ مصر ومن تاريخ الإخوان، رحمه الله رحمة واسعة.

للعلاج، بعد الغزو العراقي للكويت في أغسطس سنة ١٩٩٠، فطلب مني أن أجمع له رسائل النور التي كتبها، وربىَّ عليها أتباعه الذين هم اليوم يعدون بالملايين، العلامة الأستاذ سعيد النورسي. يومها قال لي عبد العزيز كامل «لقد استقر عندي أن منهج التربية هو المنهج الوحيد القادر على إحداث تغيير إسلامي حقيقي. وأريد أن أتأمل أفكار النورسي ومنهجه التربوي، لعلنا نستفيد من هذه التجربة العجيبة التي نجحت في ظروف سياسية واجتماعية من أقسى ما مر به الإسلام». وقد أرسلت له المجموعة الكاملة - المتاحة باللغة العربية - من رسائل النور، وتحدثنا مراراً عن تأملاته في بعض موضوعاتها. وأظنه أمضى بقية عمره مشغولاً بهذه القضية وحدها.

*****

وفي الكتاب فصل ممتع عن رأي حسن البنا في الشورى، وعن فكرة الطاعة المطلقة، وعن مشكلة النظام الخاص وكيف خرج عملياً على طاعة المرشد العام المؤسس حسن البنا، رحمه الله؛ وهو فصل ينبغي أن يوقف عنده، ويتأنى في إدراك مغزاه، والذين يؤرخون لحركة الإخوان المسلمين، والذين يديرون شؤونها، حريٌّ بهم أن يكون لهم في هذا الفصل من الكتاب درسٌ ونظر. فالعصمة - في الإسلام - لله وحده؛ وكل مخلوق يؤخذ من كلامه ويترك إلى رسول الله ﷺ.

وفي الكتاب فصول مؤلمة، باعثة على الحزن والأسى، عن أحداث الاعتقال التي مر بها عبد العزيز كامل في السجن الحربي وفي معتقل القلعة، وفي غيرهما من المعتقلات، وعن صنوف التعذيب الشنيع الذي كان يتعرض له المعتقلون، ونوع الثقافة التي كانت تُملأُ بها أدمغة القائمين على التعذيب داخل المعتقلات والسجون... وهي فصول تظهر لقارئها كيف كان المعتقلون والمسجونون يعاملون معاملة أقل ما توصف بها أنها غير إنسانية، يتمنى المصري المخلص، بل الإنسان العاقل، ألا يعامل مثلها أحد في أي بقعة من الأرض. لكن المؤسف حقاً أنها لا تزال سائدة في معظم المعتقلات السياسية في العالم العربي والإسلامي؛ وأننا علمناها للأمريكيين والأوروبيين فأصبحت ممارسة يومية في مثل جوانتانامو وأبو غريب وسجون أفغانستان وغيرها من أقطار الدنيا. ولعل الذين بدأوا هذا السلوك الشائن

لم يسمعوا قول رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، لا ينقص من أجورهم شيء؛ ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة لا ينقص من أوزارهم شيء».

*****

لقد استمتعت بقراءة هذا الكتاب متعة حقيقية.

وكما ذكرت آخر ما سمعه عبد العزيز كامل من حسن البنا أحب أن أذكر آخر ما سمعته من عبد العزيز كامل قبل وفاته بليلتين اثنتين: دخلت عليه في مستشفى القاهرة التخصصي، وقد وضعوا على أنفه وفمه قناع الأكسجين، فهشَّ لي كعادته - رحمه الله - وسألني، وعنده جمع من أصدقائه فيهم شاب لا أعرفه: «هل عندك ديوان أعظم شاعر عربي؟ فقلت نعم، فقال من؟ فقلت المتنبي طبعاً، فقال أي طبعة؟ فقلت طبعة عزام طبعاً (!) فنظر إلى الشاب الذي لم أكن أعرفه وقال له: أنت في طريقك لتكون أستاذ قانون وهذا (وأشار إليَّ) أستاذ عجوز، ومن لم يعرف شعراء العربية ومراتبهم ويِّطلع على دوواينهم يصعب عليه في النهاية أن يكون مثقفاً حسن الثقافة. ثم طلب مني أن أعيره ديوان المتنبي». وأرسلت إليه في صباح اليوم التالي نسختي القديمة من الديوان بشرح الدكتور عزام، وتوفي رحمه الله وهي إلى جوار سريره في المستشفى.

*****

وكانت الصلاة عليه في مسجد الخلفاء الراشدين بمصر الجديدة، عقب صلاة الظهر، وكنت في الصف الأول، ونظرت حواليَّ فرأيت جميع أعلام الدعوة الإسلامية، وعدداً كبيراً من قيادات الإخوان المسلمين، ولِما بينه وبين أبي من قرابة[1] اعتبرت نفسي وليَّه وخاطبت الأخ الجليل الحاج عبده مصطفى، نائب رئيس الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية، وقلت له «تفضل صلِّ يا حاج عبده» فصلى عليه وصلينا وراءه.

(١) هي لُحْمةُ رضاعةٍ، أرضعته عمتي فاطمة، أو أرضعته جدتي، رحمهما الله، الشك مني.

رحم الله عبد العزيز كامل أوسع رحمة، وغفر له بما نيل منه في حياته، فقد كان مجتهداً في أول أمره وآخره، له إن أصاب أجران وله إن أخطأ أجر واحد.

والحمد لله رب العالمين.

القاهرة في: ٣ من صفر الخير ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦/٣/٣م

محمد سليم العوَّا

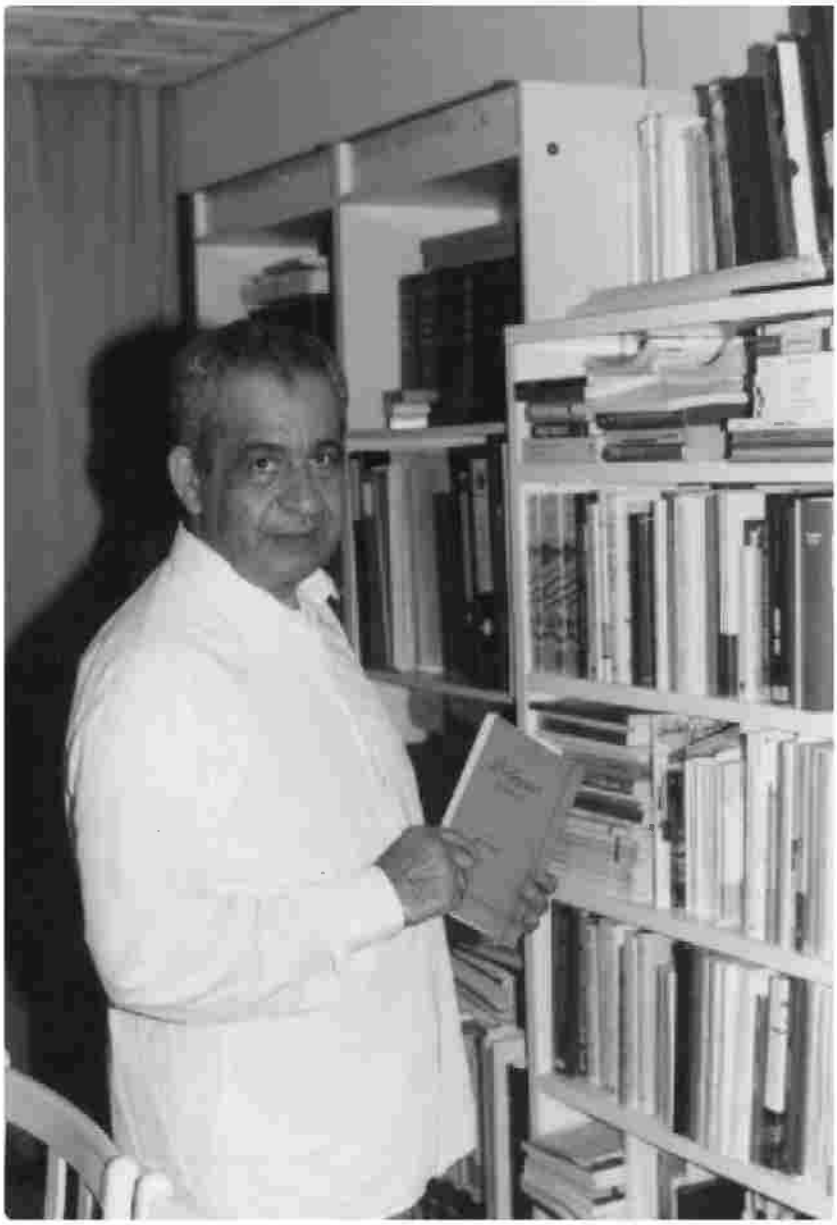

العلماء ورثة الأنبياء ..ورثوا العلم

فمن أخذ به.. أخذ بحظ وافر

بسم الله الرحمن الرحيم

نعمة من الله وشرف لي أن أشارك فى كتابة جزء من مقدمة مذكرات والدي رحمة الله عليه بعد مرور سنوات طويلة، خمسة عشر عامًا بالتحديد. كان رحمة الله عليه قد عهد إلىّ بهذه الأمانة العظيمة ألا وهى أمانة كتبه ومؤلفاته التى كان بصدد تجميعها ونشرها قبل وفاته، وأحمد الله أن أعانني على ذلك بفضله وبجهود كل محبي والدي الحبيب. أحببت أن أرد قطرة من بحر عطائه.. عطاء والد إنسان وعالم سخي.

أول صنيعه الكريم أن اختار اسم أختي واسمى من القرآن الكريم من سورة طه، اختار هدى ونهى ونشأنا نعلم ذلك، وعندما كان يسأل لم لم يسع أن يُرزق بولد يكون أخًا لنا كان ينظر يتعجب ويقول عندي جوهرتين.

نشأنا فى بيت يملؤه الحب والأمان، حببنا فى كتاب الله فتفرغ لنا أنا وأختي كل يوم يقرأ معنا ويفسر لنا ونسأله، مكثنا هكذا ثلاثة سنوات برغم كل مشاغله.

لم يكن يأتينا زائر إلا وجد متسعًا فى صدر الوالد مهما كان عمر هذا الزائر. أحبه الصغير قبل الكبير، وكانت والدتي دائما تؤكد وتكرر علينا برفق وبحنانها المعهود أن الوالد عنده رسالة عظيمة كعالم إسلامي وكلنا نعينه على ذلك فنخفض الأصوات ونهيئ الجو الملائم لتمام الإنتاج العلمي. لا أذكر وقتًا رغمنا فيه على فعل شىء أو عدمه، كل شىء بالإقناع ليضعنا على طريق محاسبة النفس.

رحل والدي بعد رحلة مرض عصيبة، ما رأيت وجهه إلا مبتسمًا ابتسامة الجهد والرضا أفتقده بشده، إنه فى قلبي إحساسًا وفى عقلي فكرًا ومبادئًا. أفتقد

إجتماعه على موائد الطعام فى منزلنا كأنه حوار ثقافي مفتوح فى كافة الأمور الخاصة والعامة.

أرى فى أبني عبد العزيز شبهًا فى الملامح لا تخطؤه عيني وأدعو له أن يجعل منه ومن أولادنا جميعا خير خلف لخير سلف.

قبل تحديد موعد النشر رأيت رؤيا للوالد وهو يوقع على كتبه وعلى وجهه ابتسامة رضا فلكل من يقرأ هذه المذكرات إهداء خاص منه ..... فلندعوا له جميعًا بالرحمة والمغفرة.

نهى عبد العزيز كامل

القاهرة ٢٠٠٦/٧/١

مع كتبه وعلمه وكريمته نهى

في نهر الحياة

- الجزء الأول : ١٩١٩ - ١٩٥٢ الحلمية: الإخوان
- الجزء الثاني : ١٩٥٢ - ١٩٦٨ العباسية: الجامعة: والمعتقل
- الجزء الثالث : ١٩٦٨ - ١٩٧٥ ميدان الأزهار: الأوقاف
- الجزء الرابع : ١٩٧٥ السالمية

فى الإسكندرية:

١- **الشيخ محمد عثمان،** مسجد سلطان، مكانة الرجل، الأذان، الأطفال لا يتحركون ولا يصيحون بالإفطار إذا سمعوا المدفع ولكن إذا سمعوا صوت الشيخ محمد. قامته المتوسطة، بدنه الممتلئ، لحيته البيضاء، جبهته العريضة أثر السجود، عمامته المطروحة إلى الوراء، مواظبته على الفرائض الخمس ومسجد السلطان.. جلوسه إلى صاج (المعمولة) بعد الصلاة مقابلاً المسجد.. هذا رزقه.

- التعاون معه عندما مرض
- كان مقدمًا لحضرة الشاذلية فى منزل أسرة دغش.
- مشكلاته مع المريدين...

٢- **الشيخ محمد على أمين** ومكانته العلمية، المدرسة العباسية، مكتبته الخاصة، تحوله من شيخ طريقه إلى فراش في المدرسة يكسب رزقه من عرق جبينه. احترام النظار والمدرسين له، لم يكونوا يتقدمون عليه في الصلاة، كيف تعرفت عليه، وكيف ظلت صداقتنا قائمة، عن طريقه تعرفت على "أنصار السنة" ودرست العقائد السلفية، وظللت حياتي كلها أعتنقها... وبقيت صديقه بالقاهرة.

٣- الشيخ محمد عباد: مقرئ مسجد سلطان، حسن تلاوته للقرآن، استقامته الأخلاقية، عبادته، إيمانه، صبره مع فقره وعزة نفسه..
أكبر من تأثرت به فى تلاوة القرآن.. مع دراستي الجزئية مع الشيخ مصطفي.

٤- علماء الإسكندرية

- في مسجد زيان : الشيخ محمد فهمي
- في المسجد الأميري: الشيخ حميدة
- في مسجد سلطان : الشيخ الغرباوي، سيد الحكيم. الشيخ حمزة.

السُور والباب

أخي القارئ...

قد تكون هذه الأحاديث التى أقدمها إليك أكثر وضوحًا إذا علمت أن معظمها تجارب ذاتية.. لقد كان من قدر الله أن أُوجد في مواقع مختلفة فى مجتمعنا..

فى أعماقه عرفت المعتقل والسجن الانفرادي مددًا تطول أو تقصر، وينتهي التحقيق بصحيفة أشهد الله أنها كانت له ... ومن غريب ما صنع الله أنني فى هذه التجارب جميعًا.. لم يصدر علي أي حكم قضائي.. عرفت معتقلات الهايكستب (شمال شرق القاهرة) والطور فى سيناء العزيزة (قرب الطريق الجنوبي لخليج السويس) وعيون موسى (قرب طرفه الشمالي) وكان هذا عام ١٩٤٩...

وعرفت معتقل القلعة على جبل المقطم شرقي القاهرة، والسجن الحربي فى العباسية بالقاهرة، وهو أشهر من أن يعرف (١٩٥٤-١٩٥٦)، وعرفت الاعتقال فى إدارات متخصصة على مستوى رفيع، وفى أقسام الشرطة فى القاهرة (قسم عابدين مع سارق خزائن.. وكان غاية فى الأدب وعميق الحزن لسجني، ومع تجار أسلحة وطلبة علم وأبرياء لا يعرفون لماذا جيء بهم إلى هناك، والمنوفية...

وعرفت حياة التدريس من أول مراحلها: مدرسًا بالمدارس الابتدائية، وتدرجت بي الحياة، وصادفتني عقبات حرمتني بعض حقي، ولكن أراد الله أن يصل ما انقطع، فتابعت دراستي حتى الدكتوراه، ثم أصبحت أستاذًا بجامعة القاهرة..

وعرفت حياة الوزارة نائبًا ثم وزيرًا، حتي أصبحت نائبًا لرئيس الوزراء للشئون الدينية؛ ووزيرًا للأوقاف وشئون الأزهر بجمهورية مصر العربية.

مرة أنتقل من مكان الى آخر وفى يدي قيد حديدي فى صحبة جندي أو ضابط، ومرة يفرشون تحت أقدامي بساطًا أحمر، وأقف على منصة الشرف أستعرض الحرس، مرة تعبر بي سيارة صامتة شوارع القاهرة، وعلى عيني عصابة سوداء ويد تدفع رأسي إلى أسفل كي لا يرانا أحد.. والوقت ليل.. الليل والعصابة.. ظلم وظلمة..

وعرفت وفاء الأصدقاء وغدر الدخلاء..

وكل هذا ينطوي، كما انطوى كثير، وتبقى لكل إنسان صحيفته التي يلقى بها ربه، يكتبها قلم علوي.. هو كتاب نرجو أن نأخذه بيميننا..

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥ ﴾

(الشورى ١٥)

عن أَبي ذَرٍّ رضى الله عنه أن النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قام حَتَّى إِذَا أَصْبَحَ بِآيَةٍ وَالآيَةُ (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (أخرجه النسائي)

عن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَّاد قال: سَمِعْتُ نَشِيجَ عُمَرَ رضى الله عنه وَأَنَا فِي آخِرِ الصُّفُوفِ يَقْرَأُ ، إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ (أخرجه البخاري).

والنشيج صوت يتردد بين الحلق والصدر.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ـ عن المنهج القرآني في سورة البقرة

عاشت فكرة هذا الكتاب فى ذهني سنوات طويلة، وأمسكت بالقلم أكثر من مرة، وكتبت منه صفحات، وفصولا، ومرت أحداث وتوقعت أحداثًا دعتنى إلى تمزيق ما كتبت وتأجيل الكتابة إلى حين.

ذلك لأن حياة الفرد التى يشتد تفاعلها مع حياة الجماعة، ولا يزال غير قليل ممن شهدوا أحداثها أحياء، ولكل منهم نظرته إلى هذه السنوات ومواقفه ممن شاركوا فى صناعتها، فمثل هذه الحياة حين تُكتب، تصبح مدعاة إلى كثير من الجدل والحوار، كما كانت عند معاناتها.

في عالمنا أقولها آسفًا: بُعدنا كثيرًا فى الكتابة عن المنهج القرآني فى عرض الأحداث، وهو منهج يذكر نقاط القوة والضعف، ويعرض الأحداث من زوايا متعددة، وفى مراحل متعاقبة، تستطيع معها أن تحكم على الأمور حكمًا موضوعيًا. وأنت إذا ما آمنت بهذا المنهج القرآني كان عليك فى دراستك لفترة أو لفترات أن تذكر ما له ولها وما عليه وعليها، ولنأخذ لذلك مثالاً من القرآن الكريم:

عد إلى سورة البقرة، واستعرض ما قال ربنا عن بني إسرائيل وفيها:

١- ستجد جوانب قوة وتفضيل فى مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (البقرة: ٤٧).

٢- وجوانب تحذير فى قوله: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (البقرة:٤٤).

٣- وحثًا على طريق الخير ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (البقرة: ٤٥، ٤٦).

٤- وتسجيلاً لانحرافاتهم فى مثل قوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (البقرة:٧٥).

٥- ويقينًا لما ذهبوا إليه من فاسد القول والاعتقاد فى مثل قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (البقرة: ٨٠).

٦- وتصحح لهم وللناس جميعًا قواعد الحساب والجزاء ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (البقرة: ٨١ ،٨٢).

٢- وفى سورة التوبة

وفي سورة التوبة نموذج آخر تستطيع أن ترجع إليه، وهى آخر سورة نزلت من القرآن الكريم (كما أخرج البخاري عن البراء بن عازب) يروي الإمام أحمد عن أنس بن مالك -رضى الله-عنه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعثه ببراءة مع أبي بكر (أي إلى موسم الحج) فلما بلغ ذا الحليفة قال: لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي، فبعث بها مع على بن أبي طالب-رضى الله عنه.

هذه السورة التي أنزلها الله على رسوله -صلى الله عليه وسلم- وحملها ابن عمه بأمر من الصحابى أبا بكر صاحبه فى الغار ليبلغها إلى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، "لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله فهو إلى مدته... نجد فيها عرضًا للتيارات الفكرية فى المدينة والصراعات فيها. تحس به نبض الحياة وحرارة الكفاح من أجل إقرار الإسلام، وأساليب الهجوم عليه ظاهرة وخفية، مباشرة وغير مباشرة..

إنها تذكر المشركين وعهودهم، وواجب المسلمين نحو هذه العهود قبل أن تتم مدتها، وبعد أن تتم، وتعطى مبررات ذلك، وتضع ميزان التعامل معهم ﴿ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة: ٧) ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (التوبة: ١٢).

ثم يدعو إلى عمارة مساجد الله، ويجعل الإيمان بالله والجهاد فى سبيله فوق ذلك الإعمار. ويدعو إلى أن يكون الإيمان هو الفيصل فى العلاقة بين المرء وقومه.. وبعد أن ندرس أوضاع المشركين ننتقل إلى أوضاع اليهود والنصارى وما يذهبون إليه من قول وما يدعو إليه الإسلام من نور. وانحراف كثير من الأحبار والرهبان ويعمم القول على جميع من يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ويتوعدهم بالعذاب الأليم.

ويدعو المؤمنين بعد هذا إلى الجهاد فى سبيل الله.. ومع الدعوة قوة وحث وترهيب من أي تباطؤ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ (التوبة: ٣٨، ٣٩).

وعند هذه الآيات أود أن أقف..

فلقد رأينا قوة الخطاب إلى المشركين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى وعندما وجه ربنا ـ سبحانه ـ الخطاب إلى المجتمع المؤمن كان الخطاب إليهم بهذه القوة أيضًا.

يدعوهم ربنا إلى قتال عدوهم، فيتثاقلون حين طابت الثمار والظلال فى شدة الحر وحمارة القيظ، ويذكرهم بنصر الله لرسوله وهو فى الغار مع صاحبه الأمين.

وتتوالى الآيات مع هذا مبينة مواقف فئات فى المعسكر المؤمن كانت محسوبة عليه، مؤثرة فيه، عاملة ضده وهم المنافقون:

- ﴿ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ ﴾ (التوبة: ٤٨) وعندما نصره الله في مواطن سابقة دخلوا الإسلام ظاهرًا.. وكلما ارتفع شأن الإسلام زادت كراهيتهم له.

- ويحاولون الاعتذار بأنهم يخشون على أنفسهم من نساء الروم ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓ ﴾ (التوبة: ٤٩) ويرد الله عليهم ﴿ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْ ﴾ وذلك بتخلفهم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يفرحون بما يصيب المسلمين من سوء، ويسوؤهم أن تصيب المسلمين حسنة.

- ويشككون في الجوانب الاقتصادية، ويعيبون على الرسول -صلى الله عليه وسلم- قسمته في الصدقات، وهم لا يحبون إلا حظوظ أنفسهم، ولا يغضبون إلا لها، بينما الصدقات لها مصارفها التي حددها الشارع الحكيم جل وعلا.

- ويؤذون النبي قائلين ﴿ هُوَ أُذُنٞ ﴾ (التوبة: ٦١) أي أنه يصدق ما يسمع عنا وما يقال فينا، كأنما يطعنون النبي -صلى الله عليه وسلم- في مصادر معرفته وتقويمه لها، كما طعنوه قبل هذا في عدله الاقتصادي.

- ثم يشككون في أقدار المسلمين ومكانتهم، فإذا واجههم الرسول بذلك كذبوا وأقسموا ﴿ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (التوبة: ٦٢).

- وأحيانًا يحاولون الهرب من الحق إذا واجههم الرسول بما يقولون من سوء معتذرين بقولهم: ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُ ﴾ (التوبة: ٦٥).

أساليب متنوعة لجأوا إليها لتشكيك المسلمين في أنفسهم وفي رسولهم، قائدًا ومسئولاً عن أموالهم وحكمًا بينهم ومستمعًا إليهم، فضرباتهم كانت رأسية بين القيادة والقاعدة، وأفقية فيما بين القاعدة بعضها بالبعض، وموجهة إلى القائد مباشرة توجيهًا يصل إلى حد التآمر على حياته، كما فعلوا في طريق العودة من غزوة تبوك.

ويضرب الله الأمثال بعد هذا لكل من المؤمنين والكافرين والمنافقين، ومن كانوا من قبل أشد قوة وأقدر على الشر، وكيف أيد الله المؤمنين من قبل ووعدهم بالنصر على عدوهم، يظلهم برحمته فى الدنيا، ولهم دار الخلد والمقامة يوم يلقونه.

ويدعو الله رسوله والمؤمنين إلى قتال عدوهم من الكفار والمنافقين، ويدعو هؤلاء فى ذات الوقت إلى التوبة والعودة إلى الله..

ويعود السياق القرآني في السورة إلى بيان جوانب من مظاهر النفاق فى المدينة:

- هؤلاء الذين عاهدوا الله على فعل الخير إذا آتاهم من فضله ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (التوبة: ٧٦).

-و﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (التوبة: ٧٩).

-ففى المؤمنين من لا يقدر إلا على القليل، وإذا بهذا القليل يصبح عند المنافقين مادة سخرية ولمز، بينما هو عند الله عظيم.

-هؤلاء المنافقون ليسوا أهلاً لاستغفار الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا لدعائه.... وهو رحمة الله المهداة الذى وصفه ربه بقوله: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

- ويكره المنافقون أن يقاتلوا فى الحر، مفضلين ظلال النخيل على ظلال السيوف، ويظنون أنهم كسبوا بالقعود وهم الخاسرون فنار جهنم ﴿ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ (التوبة: ٨١). وهؤلاء يسجل القرآن حرمانهم من شرف الجهاد فى سبيل الله ما داموا على النفاق، وينهى الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن الصلاة على من مات منهم أو القيام على قبره. وقبلها نهاه عن أن يعجب بأموالهم وأولادهم.. ذلك لإيثارهم القعود على الجهاد مع قدرتهم عليه.

أما الضعفاء وغير القادرين وأصحاب الأعذار، أما الراغبون فى القتال وليست عندهم عدته، ويطلبون من الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن يحملهم ولا يجد فهؤلاء لا سبيل عليهم ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة: ٩٣).

ويبين ربنا بعد هذا صنوفًا من الأعراب: صنف أشد كفرًا ونفاقًا، وصنف مؤمن منفق فى سبيل الله، ولكل جزاؤه.

ويدعو إلى ترابط المجتمع اقتصاديًا، ترابطًا قائمًا على المحبة والإيمان والتزكية ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ (التوبة: ١٠٣).

ولكن مع كل هذه الأبواب المفتوحة إلى الخير، نجد قوى من الشر تعمل داخل المجتمع متسترة بستار الدين، تختفي بشرها فى بيت من بيوت الله، وتتصل بأعداء الله. ويوضح الله أمرهم فى كتابه فيقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ (التوبة: ١٠٧).

وينهى الله رسوله -صلى الله عليه وسلم- عن الصلاة فيه ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (التوبة: ١٠٨).

ولقد بعث الرسول عند مرجعه من تبوك، وقبل أن يدخل المدينة إلى مسجد الضرار من هدمه.

ويصف الله بعد هذا المؤمنين الذين شروا أنفسهم ابتغاء مرضات الله، وقاتلوا فى سبيله، وصفهم بعشر صفات، تسع منها عمل، وآخرها بشارة من الله: (١) التائبون (٢) العابدون (٣) الحامدون (٤) السائحون (٥) الراكعون (٦) الساجدون

(٧) الآمرون بالمعروف (٨) والناهون عن المنكر(٩) والحافظون لحدود الله (١٠) وبشر المؤمنين.

وتمضى المعركة، ويعود الرسول -صلى الله عليه وسلم-، ويتوب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة، وعلى الثلاثة الذين خلفوا.. هؤلاء الذين تابوا وحسنت توبتهم وتقبلها الله منهم وكانوا مع الصادقين.

ويدعوهم الله إلى الجهاد والإنفاق؛ فما من صغيرة أو كبيرة ينفقونها، وما من جهد يبذلونه – ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ (التوبة: ١٢١).

ويوجههم مع حمل مسئوليات الجهاد والدفاع عن قاعدة الإسلام وأرضه إلى الاعتناء بالعلم والتخصص فيه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (التوبة: ١٢٢).

ولا يصرفهم ذلك عن القتال.. والقتال القوى -إذا لزم الأمر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (التوبة: ١٢٣). والمؤمنون كما وصفهم ربهم ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾.

ثم يذكر بعد هذا موقف المنافقين عند نزول القرآن وسؤال بعضهم بعض: "أيكم زادته هذه إيمانًا"، وينبه ربنا ـ جل وعلا ـ أن الآية عند نزولها تزيد المؤمن إيمانًا، فهو على نور من ربه، أما الذين فى قلوبهم مرض فما يزدادون من الله إلا بعدًا؛ لما اتخذوه من موقف عداوة وعناد ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (التوبة: ١٢٤، ١٢٥).

ويختم الله تعالى سورة التوبة بوصف كريم للنبي -صلى الله عليه وسلم- فهو رسول من أنفسهم، يتحدث بلسانهم، ويحب لهم الخير، ولا يود أن يشق عليهم بشيء وهو بهم رءوف رحيم.. فإذا تولوا بعد هذا كله فليتوجه إلى الله ربه هو حسبه متوكلاً عليه ولتسمع إلى قول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (التوبة: ١٢٨، ١٢٩).

وفى السورة ـ كما رأينا ـ صور من الصراع، تصور العلاقة مع الكفار وأهل الكتاب والمنافقين والمؤمنين، وأساليب طوائف وفئات وأفراد من هؤلاء فى حرب الإسلام أو الدفاع عنه.

وكانت قاعدة الإسلام فى المدينة ـ أمامك ـ تنبض بالحياة، والتفاعل فيها قائم بين قوى الخير والشر، وخطوط التعاون والتآمر فيها نشطة، وعلى المؤمنين مسئوليات في مقابلة ذلك كله.

إذن: تصوير المجتمع الإسلامي فى المدينة كأنه خلا من المشكلات أو المنافقين، أو أن المؤمنين فيه كانوا يعيشون فى مدينة خلت من المشكلات والشرور، أو أن سيطرة الإسلام على المدينة كانت كاملة وصلت إلى مكامن النفوس وطوايا القلوب -كل ذلك تفسيرات وتصورات لا نجد لها الأساس السليم من كتاب الله تعالى.

إن قوة المؤمنين تكمن فى مدى قدرة هذا الإيمان على التعبير عن ذاته وسط هذه الأمواج المتدفقة من الكفر والشرك والنفاق.. ولا تثريب عليهم أن يكون فى المدينة نفاق وفى بعض النفوس ضعف وانحراف.

وإذا ما كانت سورة التوبة من أواخر ما نزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من القرآن، وكانت صورة كاملة عن مجتمع المدينة قبيل رحيل المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الرفيق الأعلى، فأنها تعطينا تصورًا للمجتمع بعد كفاح طويل كفاح يرتفع به درجات، ولكنه لا يخلي من المشكلات، وإنما يعطى الدرس فى مزيد من العمل على طريق الحق..

٣ـ أما فى تاريخنا المعاصر

ولكن أغلب ما نكتبه فى تاريخنا المعاصر أو الحديث، حتى ذلك الذي نقدمه إلى أبنائنا فى المدارس -نجده صناعة تتخذ زاوية أو موقفًا سابقًا من الأحداث، وتصوغ التاريخ على ضوئه.

فعندما كنا طلابًا فى مدارسنا الابتدائية والثانوية وفى حياتنا الجامعية، كنا نعيش فى ظل النظام الملكي فى مصر، وكانت كتب التاريخ تمتلئ تمجيدًا لما قامت به الأسرة المالكة المصرية من وقت أن ولى محمد على باشا حكم مصر عام ١٨٠٥، وكانت تهوينًا من شأن أحمد عرابي باشا وزملائه، وما قاموا به من جهاد ضد سيطرة القصر والاستعمار البريطاني، وكنا كطلاب فى المدارس الثانوية نحس تعاطفًا مع الحركة العرابية ورجالها، ومع مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول.

ولا زلت أذكر مدرس التاريخ الحديث فى المدرسة الثانوية، عندما شرح لنا تاريخ الحركة العرابية كما جاءت فى الكتاب المقرر، وكان واجمًا كأنه ينفذ أوامر لا يؤمن بها. وأنهى عرض الكتاب المقرر فى سرعة، ونحن نحس أنه يريد أن يقول لنا غير ما قال.

كان ـ رحمه الله ـ مدرسًا صالحًا محبوبًا مؤمنًا، يؤمنا فى صلاة الظهر فى مسجد المدرسة، ويعيننا على اختيار الكتب التي نقرؤها، باعتباره أيضًا أمينًا لمكتبة المدرسة. ولكن ماذا يقول وهو يدرس لنا التعاون بين القصر والقوات البريطانية ضد الجيش والشعب المصري ؟!

لقد قال ـ رحمه الله ـ هذا ما عليكم فى المقرر، وإذا ما جاءكم سؤال فيه فأجيبوا كما جاء فى الكتاب، ولكن الحقيقة يا أبنائي غير ذلك، لقد كان عرابي مخلصًا لوطنه، مدافعًا عن أرضه، وقف المصريون، إلى جواره، ولكن البعض خانه، ووثق هو بكلام من ينبغي أن يؤخذ كلامهم بحذر وصوروا له قناة السويس على أنها ذات حياد دولي ولا يمكن أنها تستخدم معه فى الحرب. وعندما هوجم الجيش المصري بقي معه مجاهدون أبطال بقيادة أحمد عبيد فضلوا الموت على الانسحاب.

ولازلت ـ بعد مضى هذه السنوات الطويلة ـ أذكر صوته العميق، وقوله "إنى أقول لكم هذا كوالد، وغدًا تكبرون وتعرفون أكثر".

وعندما دق الجرس، وجمع أستاذنا المرحوم محمد عبد العزيز العقبي أوراقه ليخرج، كنا نحس أن ضمير مصر يتكلم على لسانه، وأننا سنظل نعيش هذا التمزق بين ما نؤمن به وما يملى علينا حتى يخرج الاستعمار البريطاني من أرضنا.

... وتمر السنين، ونقرأ ونجد الفارق الواسع بين الغذاء العقلي الذى تقدمه الكتب المدرسية وبين ما تستطيع أن تصل إليه فى المكتبات العامة، أو حتى فى مكتبات المدارس وتبرهن الأيام لنا أن الكثير من كتب التاريخ "صناعة" وأن بعضها "أردية" يُفصلها أفراد بتكليف من أفراد، لتشكل عقل جيل.

وعندما قامت ثورة ١٩٥٢ تراجعت هذه الكتب، لتخلى المكان لمجموعة أخرى لم تستمر إلا سنوات قليلة عامين أو أقل، جاء فيها دور اللواء محمد نجيب فى قيادة الثورة وتوقيعات له بهذه الصفة.

واختفى محمد نجيب من المسرح السياسي، واختفى اسمه من كتب الدراسة. وكان إذا جاء ذكره، جيء به ليدان... وأنه - كما يقولون - لم يزد على أن يكون عاملاً مساعدًا فى قيام الثورة، جاء لهدف معين وفترة معينة، وأراد أن يتجاوزها فجوزى، ولبث معتقلاً فى ضاحية المرج سنين عددا، بعد أن كان ملء السمع والبصر.

وتمر فترة من حياة مصر، ويلحق الرئيس عبد الناصر بجوار ربه، وترتفع موجة جديدة من التأليف تحاول أن تعيد تقييم الأفراد والحجوم والأدوار.

وأسائل نفسي:

كم مرة أعد كتابة التاريخ خلال ربع قرن؟

فترة شهدت مغرب النظام الملكي ومجيء النظام الجمهوري عام ١٩٥٢، ثم النظم الاشتراكية عام ١٩٦١، وهزيمتنا فى عام ١٩٦٧، ورحيل الرئيس جمال عبد الناصر ١٩٧٠، وثورة التصحيح فى عام ١٩٧١ من أجل إنشاء دولة المؤسسات وسيادة

القانون وتحرير المواطن من مراكز القوى، كما نادى الرئيس أنور السادات، ثم حرب رمضان ـ أكتوبر ١٩٧٣ ـ وما وراءها من معقبات....

حقًا إن الفترة عريضة، ولكنى أركز على أمر أساسي هو: تغير "النظرة الرسمية" لنفس هذه الفترة، وانعكاس ذلك على ما يقدم من تصور تاريخي إلى الرأي العام، وإلى أبنائنا فى مدارسهم، ليكون مادة تكوينهم الفكري وما يمرون به من تناقضات فى العرض تُرفع وتُخفض وتمحو وتثبت.

٤ـ فى تاريخنا القديم

وكنت أعود إلى شاهد من تاريخنا القديم، وما جاء عن ملوك كان من أمرهم أن يهدموا ما شادا الذين من قبلهم، وأن يمحوا أسماءهم من الآثار لينسبوا إلى أنفسهم أعمال الذين كانوا من قبلهم..

كان الفنانون والنحاتون ومن يشاركون فى هذا كله يعلمون أن الملك يكذب، وكانوا هم أدوات هذا الكذب.. وكان هو يعلم أيضًا أن هذه الأيدي التي أسندت إليه أعمالاً لم يقم بها، ستحرمه أعمالاً قام بها.

وما أتحدث عن نسبة الحذف والإضافة إلى حقائق التاريخ، فالحذف والإضافة ظاهرتان مصاحبتان للتاريخ، وقلم التاريخ كثيرًا ما يكون فى يد المنتصر يكتب لنفسه، أو يكتب له من يعملون معه رغبًا ورهبًا.

وكنت أحيانًا أذهب إلى زيارة منطقة الأهرام فى الجيزة، أو أفرغ لقراءات فى تاريخنا القديم، وأذكر الهرم الأكبر بكل جبروته واستقراره على الأرض، وكأنه من أوتادها، وهذه الجهود الهندسية المذهلة في تسوية أرضه وتقطيع حجارته ونقلها، ووضع كل حجر فى مكانه، ليُترك مع البناء الفراغات التي أرادها مصمم الهرم، والممر الطويل المؤدى إلى حجرة الدفن، وما فوقها من حجرات. وفى زياراتي لهذه الحجرة الصماء، وتابوت الملك الموجود فيها، وقد أصبح خاليًا من صاحبه، كنت أتصور وزن الحجارة من حولي، من الجهات الست، وكيف امتدت الأيدي في عصر من العصور، متخطية حواجز القداسة حول الملك، مخترقةً الحصن الحجري العملاق لتستولي على جثمانه وكنوزه.

ألم يكن القوم يقدسون هذا الملك حيًا؟.. ألم ينظموا المواكب الفخمة تمجيدًا له؟! وهذه مراكب الشمس قد أعدوها له، وهذه قبور أتباعه من حوله.. لقد تراجع أصحاب المواكب ليتقدم اللصوص، واختفى من كانوا يهتفون بحياته وجه النهار، لتمتد أيد يُخفيها الظلام، ويلفها الصمت، وحديثها الهمس، لتسرق كنوز الملك.. الملك المقدس المسروق، الحاكم المسيطر حيًا والمنهوب ميتًا !!

وليس هناك فرق كبير بين أن يسرقوا جثمان ميت وكنوزه، وبين أن يسرقوا أجزاءً من تاريخه. وإذا كان فى بعض المدح تمجيد بالباطل، فإن فى العدوان على التاريخ سرقة بالباطل أيضًا.

وعلى طول التاريخ عاش الذين يمجدون الحاكم، والذين يسرقونه، والذين يحرقون البخور فى مواكبه، والذين يقذفون ذكراه بالحجارة.. وأقبح الأيدي من تقوم بالعملين معًا، تحاول أن تركب موجة الحياة والموت، تكتسب من رنة الفرح ودمعة الرثاء.. وتنظر إلى القبر لا نظرة الاعتبار، ولكن لمعرفة نقاط الضعف فيه لتعود إلى سرقته.. هؤلاء هم لصوص التاريخ، يسرقون مجدًا من سابق ذهب إلى ربه، ليضيفوه إلى حي يرجون رفده، .. ثم يعودون لما قالوا.

بعض الحكام والمحكومين شاركوا فى سرقة القبور، ولك أن تقول فى سرقة التاريخ. وأصبحت كلمات "إعادة النظر" في كتب التاريخ، وأعمال الرجال، لا تعدو أن تكون كلمة مهذبة للطمس والتشويه، وتمر فترة ليأتي أقوام آخرون يعيدون النظر، وتتكرر القصة لصالح آخرين.

هذا جانب من القضية، تتغير به أحوال الرجال وحجومهم على المسرح، وتخضع بين المدح والذم لموازين السيطرة العابرة، لا موازين الدراسة الموضوعية، بقدر ما تسمح به دراسة التاريخ من موضوعية..

٥ ـ وفى تاريخنـا الشعبـي

ولكن..

هل هذا التغيير فى الحجم والتقويم يصيب الحكام والكبار جميعًا؟

هناك فئات ظلت لها قيمتها الكريمة مع تاريخنا وحياتنا، سرعان ما يعود إليها مكانها، إذا ما حاولت بعض العهود أن تغير عليها.

ومن هؤلاء شخصيات البيت النبوي الشريف فى مصر، أو الزعماء الشعبيون الذي نبتوا فى أرضه، ولم تفرضهم عليه سلطة إلا إحساس الأمة بمكانتهم، وتكريمها لذكراهم،.. وبعض الزعماء الذين عبروا فى صدق وأصالة عن آلام الشعب وآماله، وتحملوا الكثير، وبذلوا من أجله الكثير، ورحلوا عن دنيانا بعد أن تركوا فيها الأثر الطيب الصادق، الذي وعاه ضمير الشعب، واحتفظ به عبر القرون.

وأنت تجد هذا الاحتفاظ في كثير من مظاهر حياتهم، كإطلاق الاسم على المؤسسات والأحياء السكنية، وعلى الأبناء..

بل أنت تستطيع أن تفتح دليل الهاتف فى قطر من الأقطار، أو فى الدول العربية والإسلامية، وترى حجم تواتر اسم من الأسماء، ليدلك على مدى حب الناس له.. هذا دليل واحد من عشرات الأدلة.

وهناك أسماء تلمع فى فترة من فترات الحياة، ثم يخفت ضوءها بعد هذا، وتجرى كمئات غيرها فى نهر الحياة إلى المصب، ثم البحر العميق.

ولنأخذ نموذجًا من القاهرة السيدة زينب -رضى الله عنها:

هناك حي رئيسي من أحياء القاهرة يحمل اسمها، ومسجد يعمره العابدون، ويرعاه المؤمنون تعميرًا وصيانة عبر القرون. اسم شائع فى بناتنا. تقاليد قد تقبل منها وقد تدع، ولكنها ـ عمليًا ـ تمثل ما كانت عليه ـ رضى الله عنها ـ فى حياتها من كرم، وحرص على توزيع طعام على من يعيشون فى جوارها، ويقصدون دارها.. لقد أطلق الناس عليها أم العواجز، كأنها حبيبة المحتاجين والفقراء..

وأعود فأقول: إنني لا أكتب تقويمًا لهذه الأعمال من الناحية الدينية المجردة، ولكني أراها فى التطور الاجتماعي ظواهر تدل على حب متوارث، لا مجال لسلطة عابرة فيه..

لقد جاءت ـ رضى الله عنها ـ إلى مصر فى العهد الأموي، وتعاقب على مصر حكام من السنة والشيعة، فى العهد الفاطمي، وجاء الأيوبيون من بعدهم، ولكن مكانة أهل البيت النبوي ـ مع اتباع مصر مذاهب أهل السنة ـ ظلت أسيرة في القلوب، حبيبة إليها متعالية فوق هذه الصراعات. وكأن أهل القاهرة ومن ورائهم أهل مصر كونوا لأنفسهم هذا النموذج الإسلامي الودود، الذي يجمع بين حب أهل السنة والجماعة وأهل البيت النبوي، حب الخلفاء الراشدين جميعًا، وجميع أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأهل بيته الكرام، بل حب كل من أسدى إليهم خيرًا، وبادلوه الود، واحتفظوا بهذا الود فى صدق عبر القرون.

- ١ -

في أكتوبر ١٩٣٦

بدأت أكتشف عالمًا جديدًا: القاهرة، أم الدنيا.

لم أكن حتى نهاية دراستي الثانوية بارحت الإسكندرية إلا فى زيارات قصيرة وقريبة إلى الريف المجاور، أطول رحلة كانت إلى طنطا مع والدتي لزيارة خالتي.

وأحلام الشباب تملأ مخيلتي وأنا الآن فى طريقي إلى الجامعة، هذا العالم الجديد، كلية الآداب، طه حسين، أحمد أمين، مصطفى عبد الرازق، محمد عوض. سأعيش قريبًا من هؤلاء الشوامخ، بل أستطيع أن أحضر دروسهم، وأتحدث إليهم.

وقطع الترام الطريق الطويل إلى الجامعة وسط المزارع، بعد أن عبر حي بولاق والزمالك. المدينة فى غِناها وفقرها، الريف قاعدة المجتمع وقمته.. كل ذلك تشاهده فى الطريق من باب الحديد إلى الجامعة، كأنها مصر كلها معروضة أمامك: عربات تجرها الخيل والبغال والحمير فى بولاق، سيارات فارهة فى الزمالك، فلاحات يحملن نتاج الحقل فوق رءوسهن، عربات بأيد يجرها مواطنون... صور تتلاحق فى شريط ينتهي بك إلى منظر ترى فيه قبة الجامعة بكل شموخها وجلالها وسط حدائق الأورمان.

وتتقدم نحو القبة العالية فى خشوع، وتعبر الباب الكبير، نحن الآن فى حرم الجامعة، حيث لا تستطيع سلطة أن تدخل إلا كلمة العلم والحق. هنا دولة العلم والرأي الحر، هذه كلية الآداب على يمين الداخل.

ونقرأ على مدخلها: هذه من آثار الأميرة فاطمة إسماعيل.

ونتساءل: من هي الأميرة فاطمة إسماعيل التى كتبوا اسمها بماء من الذهب على الكلية؟ ولكن من يسأل من؟

ونرى وجوهًا تنظر إلينا بابتسامة ودود، إنهم الطلبة القدامى. ونعلم أنها أميرة من البيت الحاكم، أحبت العلم، وأوقفت عليه جانبًا كبيرًا من أموالها، وأن قدرًا من نفقات الجامعة يأتي من هذا الوقف.

ونسير فى ممرات الكلية، نصعد إلى الدور العلوي، وتطالعنا لافتة نحاسية كتب عليها كلمة: "العميد" وراء هذا الباب تستطيع أن تلقى طه حسين.. ونتابع السير: هذا قسم اللغة العربية، مكاتب أحمد أمين، أحمد الشايب، أمين الخولي...

ونتابع الأقسام، فترد الأسماء الكريمة إلى أذهاننا: نحن الآن على قمة العلم، وإن كنا فى أول الطريق، مع مشايخ مصر والعروبة نتلقى عنهم.

وننظر إلى المدرجات، ليس هناك تخصيص للأماكن كما كنا فى المدرسة الثانوية، ليس لنا أدراج وأقفال. مدرجات واسعة رحيبة، نجلس حيث ينتهي بنا المجلس، ونكتب ما نستطيع أن نكتب وهذه المكتبة أمامنا مفتوحة الأبواب طوال النهار. خزائن العلم تبسط أيديها لمن شاء، وكل كتاب أمامك عصارة حياة عقل كبير، لابد لكي تستقي منه أن تمد إليه يدًا كأنها المصافحة أو التحية.

كانت عندنا محاضرات بعد الظهر، وفي بعض الأيام يستمر العمل إلى ما بعد الغروب.

وبحثت عن المُصلّى وهناك التقيت مع قدر جديد.

دخلت لصلاة المغرب، فوجدت طالبين يبدو عليهما أنهما فى سنوات متقدمة من الدراسة، فألقيت عليهما السلام، وجمعتنا الصلاة، وصلى أحدهما إمامًا. وبعد ختم الصلاة وأداء ركعتي سنة المغرب، دار بيننا حوار، لم أكن أدري أنه سيعمق ويمتد فى حياتنا هذا الامتداد.

أما أولهما وأكبرهما سنًا فهو السيد محمد عبد الحميد أحمد، والثاني هو المرحوم الدكتور عبد المحسن الحسيني.

عرفت منهما أنهما طالبان فى الكلية بقسم اللغة العربية بالسنة الرابعة، كان محمد عبد الحميد سمح الوجه، هادئًا شفافًا، خفيض الصوت، بينما يغلب على عبد المحسن نظرة جادة، كأنه جندي فى طابور سير..

ويبدو أثر الوراثة فى ذلك، فقد كان والد عبد الحميد من رجال الدين، ووالد عبد المحسن من رجال البوليس.

كان محمد عبد الحميد قصير القامة، عريض الكتفين، منحني الظهر قليلاً، قصير الرقبة، كأن رأسه موضوع بين كتفيه. إذا جلس تجمع فى جلسته، يساعده على ذلك نحافة جسمه، وقلة لحمه وشحمه، كأنه متصوف جاء لزيارة مدينة فهو ينظر إليها دائمًا كأنه غريب عنها وحين يتكلم يخرج كلامه على استحياء، كأنما يستأذنك قبل أن يصل إليك، وأنت تفتح له عينيك وأذنيك، فإذا هو يستقر فى غير تكلف فى فؤادك، بينما كان حديث عبد المحسن نوعًا من "البلاغ"، يحاول به أن يضعك أمام مسئولياتك كمسلم.

وإذا كان محمد عبد الحميد "مودّة"، فقد كان عبد المحسن "مسئولية".. وبرهنت أحداث الحياة فيما بعد أن المودة كانت أبقى..

كانت صلتي بهما أول صلة مع طلبة الكلية سوى من أعرف من زملائي فى الإسكندرية، أولئك الذين هاجروا معي فى طلب العلم.

ولأقف قليلاً عند مصلى كلية الآداب، حيث كان اللقاء.

فعلى يمين الداخل إلى الكلية كانت حجرة للأساتذة الأجانب، يضعون فيها أدوبهم الجامعية، ولكل منهم دولاب صغير، وفى كل ركن من الحجرة مرآة وورق صغير، ومن باب أحد هذه الدواليب اتخذ محمد عبد الحميد لوحة إعلانات، كتب عليها تلخيصًا لدعوة الإخوان المسلمين، واختار الباب المجاور للمرآة.

وقرأت: الإخوان المسلمون، دعوة الحق والحرية والقوة.. الله غايتنا.. الرسول زعيمنا.. القرآن دستورنا.. الجهاد سبيلنا.. الموت فى سبيل الله أسمى أمانينا. ودعوة إلى الحضور إلى المركز العام للإخوان المسلمين، وكان وقتئذ فى ١٣ شارع الناصرية بالسيدة زينب.

دار الحديث حول الإخوان المسلمين فى إطار هذه المبادئ الخمسة، مع تأكيد كل منها بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة..

واستمر حديثنا بعد الخروج من المُصلى، وفى الطريق من الجامعة حتى ميدان الإسماعيلية (التحرير حاليًا)، واستأذنت وتابعت الطريق إلى باب الحديد، ثم إلى المطرية، حيث كنت أقيم وقتها مع أخوالي لحين الاستقلال بسكني فى الدقي.

وتكرر اللقاء فى المصلى، ودعاني محمد عبد الحميد إلى دار الإخوان المسلمين لألقى المرشد العام الأستاذ حسن البنا -رحمه الله.

كانت أول مرة أذهب إلى شارع الناصرية، معظم تحركاتنا كانت على الأقدام، نتحدث فى الطريق، ونتعرف على القاهرة، ونوفر أجر المواصلات.

ودخلنا بيتًا عتيقاً فى وسطه فناء سماوي، تليه أبواب يزينها زجاج ملون.. والحوائط مليئة بآيات كريمة وأقوال مأثورة، وعلى اليسار حجرة واسعة اتخذوها مصلى وقاعة اجتماعات.

كان موعد صلاة المغرب قد اقترب.. وجاء الأستاذ البنا.. رأيته أول مرة فأحسست أني أعرفه من قبل. ودخل القاعة مسرعًا فى مشيته بقامته القصيرة، وجسمه النحيل، ولحيته السوداء، وطربوشه المطروح قليلاً إلى الوراء، وعيونه السوداء الشديدة السواد، فى ضيق وعمق، وإرهاق وصفاء. وقدمني إليه محمد عبدالحميد: الاسم، الكلية.. من الإسكندرية. وحياني، ولصوته قرار بدون جرس ولا رنين.. بساطة واضحة فى ملبسه وحركته، وأحسست صغر حجم يده وقتها..

كان وقتئذ مدرسًا فى مدرسة عباس الابتدائية فى السبتية، يرتدي الملابس الإفرنجية في عمله، وفوقها في المناسبات الإسلامية عباءة، وعمامة مع الطربوش الذى يستخدمه فى المدرسة، وقد يلبس الجلباب والعباءة فى رحلاته، كما عرفته وصحبته.

وصلى بنا المغرب، وأخذ السيد محمد عبد الحميد يحدثه... ورأيت فى هذه الليلة لأول مرة الزميل الدكتور محمد أحمد سليمان -رحمه الله- كان وقتئذ طالبًا فى كلية الطب، يحفظ القرآن كله، وقد تدرج بعد هذا في كلية الطب

حتى أصبح أستاذًا للطب الشرعي، وأمينًا للمجلس الأعلى للجامعات.. ورأيت وجوهًا أخرى تجمعت فى القاعة لتستمع إلى درس الثلاثاء من الأستاذ.

كان موضوع الدرس يومها شرح الآيات الكريمة من خواتيم سورة الحج: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾

(الحج: ٧٧ -٧٨).

وركز في هذا الحديث على الإيمان والعبادة وفعل الخير، ثم انتقل إلى الجهاد فى سبيل الله، وأن الله هو الذي اختار هذه الأمة الإسلامية لهذه الرسالة.. وسمعت لأول مرة تعبير "أن المسلم هو أستاذ الإنسانية، وأن هذه الأمة أستاذة العالم، وأن بابها مفتوح لمن يؤمن بالله ويعبده، ويجاهد فى سبيله، وأن معية الله مع الذين يتبعون سبيله.."

إنه انتقال بالدعوة إلى الصعيد العالمي على امتداد العصور والأقطار.. ولا تجد شابًا اتصل بالإخوان إلا وكانت هذه الآيات - خواتيم سورة الحج - من أول ما يحفظ.. وإذا كان القرآن دستور الحياة الشامل، فإن هذه الآيات تمثل الطريق إلى تحقيق هذا الدستور.

كثيرة هي المرات التي سمعت فيها هذه الآيات من الأستاذ المرشد، وكثيرة هذه المعاني التي كان قادرًا على تفريعها منها، بكل ما تحمل من إحساس بمسئولية نحو الإسلام والإنسانية ككل..

كان هذا جديدًا عليّ.. كنت قبل هذا أدرس القرآن والسنة، دراسة يغلب عليها الطابع العقائدي والسلوكي والجدلي..

كان أكثر اتصالي بأنصار السنة، ودراسة عقائد السلف، وجاءت هذه... مرحلة تبعتها قراءات ودراسات وممارسات في التصوف..

هل أنا مقبل الآن على مرحلة ثالثة من الوعي الإسلامي؟ بابًا جديدًا عليّ أن أدرسه، وأخذت أستعيد المراحل السابقة التي مررت بها خلال دراستي الثانوية، لأحدد موقفي من هذه المرحلة الجديدة.

- ٢ -

عودة إلى ١٩٣٢/١٩٣٦

كانت خطاي على طريق الإسلام قد انتظمت بعد دخولي المدرسة الثانوية عام ١٩٣١، وعاهدت الله فى بيته أن أنتظم فى صلاتي بكل جهدى، وكان هذا بعد وفاة جدتي -رحمها الله- حيث عرفت عبرة الموت وشدته، ومعنى الفرقة. قبل ذلك شاهدت الموت عدة مرات فى أسرتنا، ولكن جدتي كانت عندي الحياة.. كنا معها وبها أحياء، نعيش فى ظلها ورعايتها، ولم يكن بنيان الأسرة يهتز بمن سبقها إلى الله منا، نعم، لقد فقدت هى ولدها شابًا، ورأيت الحزن الشديد عند خالاتي، والتحمل الكبير عند جدتي: كأنها جبل راسخ، وهن شجيرات تعصف بها رياح الحزن. كان وجودها أكبر من حزنها، وإيمانها أكبر من وجودها. وزادها من الإيمان تعبّر عنه مجالس القرآن، والصدقات، والبر، والدعاء، وطول السجود، بينما كانت الدموع والصرخات هي وسيلة التعبير عند باقي أفراد الأسرة.

وعندما سبقتني إلى الله، أحسست بأني محتاج إلى زاد من المعين الذي كانت تستقي منه، واقتراب أشد من القرآن الكريم. وزاد ترددى على المسجد الذى كانت تتردد عليه.. مسجد سلطان فى حي راغب باشا بالإسكندرية. وفى أيام الجمعة كنت أذهب إلى قبرها ـ وهو غير بعيد عنا ـ لأدعو لها، ولا أملك إلا دمعة تسيل.. ويشتد ذكرها فى الأعياد، حيث كانت البر والرحمة المجسمة. وفى مثل هذا الجو كان التصوف قريبًا من نفسي.

وغير بعيد عنا كانت زاوية الشيخ يوسف الشاذلي.. وشجعتني أمي على العبادة والتردد على بيوت الله، وفى نفس الوقت كنت أعتني بالرياضة البدنية التى لا تكلفني الكثير: المشي، التجديف فى قوارب ترعة المحمودية، السباحة (كان

الاشتراك فى حمام السباحة التابع لوزارة المعارف أيامها يكلفنا قروشًا معدودة طوال العام).

ولم أطل التفكير أول الأمر فى شعائر الطريق،هناك حضرتان: الأولى بعد الفجر والثانية بعد الغروب، وذهبت إلى الأولى، واستمعت إلى قول الشيخ: من واظب على الحضرتين كانت له سعادة الدارين.

وجلست بين الجالسين، وبدءوا يقرءون الوظيفة: صلاة ابن بشيش، ومرت على جمل لم أستطع أن أفهمها من قوله. وانتقلنا من أوحال التوحيد ـ كما قال ـ إلى سماء التغريد.. وهل للتوحيد أوحال؟ ثم هذا التنغيم الموسيقي فى قراءة الوظيفة!! وبعد هذا بدءوا فى تكرار كلمة التوحيد لا اله إلا الله، بطيئة أولاً، ثم سريعة بعد ذلك.. وهذا كله تبعًا لحركة الشيخ.. لماذا؟! ثم إذا به يشير، فيقف القوم يكررون لفظ الجلالة مع اهتزاز إلى الإمام ورفع الرأس بعد هذا، وأشار "المقدم" فأسرع القوم فى تكرار لفظ الجلالة.. ثم انتقلوا إلى ما يسمونه الاسم المضمر، يقولون أول لفظ الجلالة ويكتمون الباقي فى صدورهم، ويرفعون الصوت بالهاء الأخيرة، لماذا؟ ثم انتقلوا إلى ما يسمونه "اسم الصدر"، فيكتفون بنطق الحرفين الأولين والحرف الأخير من لفظ الجلالة، مع الإسراع برفع الصوت، كل هذا ومنشد ـ حسن الصورة ـ غالبًا يترنم بأبيات من الشعر، لازلت أحفظ منها قوله:

سبيت الورى طرًا وأنت محجب ... فكيف لمن يهواك لو زالت الحجب
وأصبحت معشوق القلوب بأسرها ... ولا ذرة فى الكون إلا لها قلب

ومعه مجموعة تعينه فى الإنشاد.

فإذا فرغوا من ذلك جلسوا يستمعون إلى آيات من القرآن، يعقبها إنشاد ديني قصير من المقدم، وتنتهي الحضرة بالصلاة والسلام على رسول الله، والدعاء لمن سبق إلى الله من مشايخ الطريق..

كنت أقبل من هذا وأدعُ.. وأحسست من أول الأمر أن هذا ليس الأسلوب الذي أستطيع أن أتابع به حياتي الدينية.

القرآن كتاب عربي مبين، وأحاديث النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ واضحة، فما الاسم المضمر؟ وما اسم الصدر؟ وما هذا التحكم من الشيخ أو المقدم فى

الحركات والسكنات؟ ولماذا الصوت المرتفع فى الدعاء؟ وهذا الاهتزاز؟ وهذه الجمل القريبة من الألغاز فى الوظيفة؟

وحصلتُ على نسخة من هذه الوظيفة وحفظتها، وحاولت أن أفهم معانيها. عرف الشيخ جانبًا من أمري، وكان على معرفة بأسرتنا بحكم الجوار فى الحي، فقربني إليه، وبدأ يزودني بالكتب لمزيد من الاطلاع والدراسة.

ومع القراءة كان هناك مزيدًا من العبادة وقيام الليل فى عطلة الصيف، بينما العام الدراسي عكوف على المذاكرة وجانب من القراءة الحرة اعتمادًا على مكتبة المدرسة ومكتبة بلدية الإسكندرية.

انعكس هذا الصفاء على ما أراه منامًا، وأذكر أني رأيت فى المنام شيخًا صالحًا، سألته عن أفضل الطرق لحفظ القرآن الكريم، فقال لى: تعرف معنى ما تقرأ، وتحفظ كل معنى على حدة، وتنتقل منه إلى الذي يليه.. وكنت مواظبًا على حضور صلاة الجماعة فى المسجد فى عطلة الصيف، وعلى قيام الليل، ولكني كنت أحس القلق فى شعائر الطريق الصوفي، والذكر الجماعي الذي يؤدونه، وتعدد الطرق، بينما الصلاة، واحدة والصيام واحد، والحج واحد، وأحكام الزكاة واحدة.. فلماذا هذا التعدد؟

ووقفت عند بعض المعاني فى كتب الطريقة، مثل أن يكون المريد بين يدي الشيخ كالمريض بين يدي الطبيب، وكالميت بين يدي الغاسل.. فقلت: وأين أذهب بقول الله تعالى: " **وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا**".

وعدت إلى القرآن الكريم، أدرس أحكام تجويده على يدي الشيخ مصطفى (الذي كان يتردد على بيتنا يقرأ القرآن)، وكنت أجلس الى الشيخ محمد عبادة مقرئ مسجد سلطان مع بعض زملائي الطلاب، نتعلم منه أيضًا أحكام التجويد، ونعينه فى خدمة المسجد، ومراقبة دورات المياه، وغلق الأبواب وفتحها، وإضاءة الأنوار وإطفائها، ومساعدته في الأذان والإقامة.

كانت قلوبنا معلقة بالمسجد، صلاة و قرآنًا وخدمة، ولكنا كنا نتحسس الطريق إلى الله، وفى النفس صراع، بين ما أقرأ، وما أمارس من أوراد وحضرات في مسجد السادة اليوسفية الشاذلية.

وفى يوم جلست إلى الشيخ، وكان يقرأ فى كتاب "تيسير الوصول إلى جامع الأصول" لابن الربيع الشيباني، وهو كتاب أحاديث، موضوعاته مرتبه على حروف المعجم، وبعد قراءة فصول الإسلام والإيمان، انتقلت مسرعًا إلى الذكر والدعاء.. وإذا بي أجد نفسي فى مواجهة عدد من الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، تدعو إلى ذكر الله تضرعًا وخفية، ودون الجهر من القول بالغدو والآصال، ودعوة إلى خفض الصوت فى الدعاء، كحديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم: "أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا بصيرًا، إن الله لأقرب إلى أحدكم من عنق ناقته". وأمضيت مع الكتاب وقتًا كان نقطة تحول في حياتي..

عدت به إلى الشيخ فكان من قوله:

"إن هذا الذكر وجدنا عليه مشايخنا، وهم أدرى بالطريق منا"!

والحجة قديمة: " إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ".

فقلت له: هذه أحاديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأتها فى كتاب من مكتبتك، وليس فيها أي شيء يدعو إلى الاطمئنان إلى ما نحن فيه.. فلماذا لا ندعو بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة؟

وطال بيننا القول، فكان من قوله مما لازلت أحفظه

"يبدو أن قراءاتك ستبعد بك عن طريقنا، ولكن تذكر دائمًا أخوتنا فى الله، وأننا جميعًا مسلمون، نؤمن برب واحد ونبي واحد وقرآن واحد، وقبلتنا واحدة، إذا فرقت بيننا الطرق فإن أخوة الإسلام تجمعنا، وكان هذا من أكرم ما حفظت عنه، وهو من روح الإسلام وجوهره.

وتراخى حضوري إلى المسجد والشيخ، إلا فى مناسبات أزوره فيها كأخ فى الإسلام، وظللت على هذا حتى توفاه الله تعالى بعد أن تقدم به السن.

ولم أكن أتصور بعد أن تركت هذا ورائي أن أجد آثارًا منه عند الإخوان المسلمين، لقد كانت لهم وظيفة، هى ورد المأثورات، نقرؤها فى الصباح والمساء عقب صلاتي الفجر والمغرب، وملحق بها أدعية للمناسبات.

واستوقف نظري أن أدعية المأثورات لا تعدو أن تكون تجميعًا من القرآن والسنة الصحيحة، وأن كل نص قرآني أو نبوي متبوع بما جاء فيه من الأحاديث الشريفة، مما يجعل قوله فى هذا التوقيت اتباعًا للهدي النبوي.

ومن هنا اختلف الأمر فى الطرق الصوفية عنه في الإخوان، بينما اللقاء والجلوس وقراءة المأثورات معًا، لم أجد له شيئًا من كتاب أو سنة مأثورة عن أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم.

وحاولت أن أدرس جوانب شخصية الأستاذ المرشد، ولماذا لم يختر لنفسه اسم الرئيس أو ما شابه ذلك؟ الاسم نفسه كان يحمل سمة صوفية، ومع جلوسي معه واستماعي إلى أخباره من أقرب الناس إليه، عرفت أنه كان من أتباع الطريقة الحصافية فى محافظة البحيرة (مديرية البحيرة وقتئذ)، وأنه كان يتردد على مجالس الذكر فيها، وأن والده فضيلة الأستاذ أحمد عبد الرحمن البنا شرح أورادًا صوفية فى بعض مؤلفاته، مع أن أعظم عمل قام به هو كتاب "الفتح الرباني" – الذى أعاد فيه ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني على موضوعات الفقه – فكان الوالد يجمع بين قسمات صوفية، وأخرى سلفية تُعنى بالحديث الشريف أساسًا فى حياته.

كذلك كان في الابن الأستاذ حسن البنا هذه اللمسة التصوفية، فيه منها العبادة، والدأب والسلوك وشدة المراقبة، وحب اللقاء مع المريدين، وإن لم يطلق عليهم هذا الاسم، ثم حبه أن يطيعوه - فيما لا معصية لله فيه - ولحديث الشورى عودة متأنية بعد قليل.

وكنت أتوقف عند أي تصرف فردي أو جماعي من الإخوان لا أجد له سندًا من كتاب أو سنة، وأدى هذا إلى حوار استمر سنين، تعلو نبرته وتنخفض، بيني وبين فضيلة الأستاذ المرشد.

- ٣ -

التحول إلى دراسة السنة النبوية

وجاء التحول إلى دراسة السنة النبوية تدريجيًا، تمثل فى انصراف عن الشعائر الصوفية وإقبالي على فكر جديد وأصيل..

بقي عندي من فترة التصوف القصيرة حب العبادة وآداب السلوك، وانصرفت عما لا أفهم من الأوراد، وعن حلقات الذكر الجماعية، ولم أقبل مبدأ طاعة الشيخ بأن يكون الإنسان بين يديه كالمريض بين يدي طبيبه، أو الميت بيد يدي غاسله.

وانتهيت إلى أن الحكم بيني وبين الناس ما أقرأ من كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا عقلي سيحاسبني الله عليه، ولن يحاسبني على عقل عبد من عباده.. العقل والإيمان معًا..

ولكن ظل فى قلبي رباط الود للشيخ نابعًا من تقدير ذاتي له، فلقد كان سمح الخلق مجتهدًا فى طلب العلم، وإن كانت حياة هذه الطرق لا تخلو من منافسات بين المشايخ، أو حتى بين أفراد الأسرة الواحدة.

وفى المدرسة العباسية الثانوية زاد ترددي على المكتبة، كان أمينها مدرسًا للتاريخ، وكان يصلي بنا الظهر فى المسجد، وكنت أسأل نفسي: أليس مدرسو اللغة العربية أولى منه بالتردد بانتظام على المسجد!! إن مدرسنا هذا غير مكلف بالحضور، ولكنه حريص دائمًا على وضوئه، وعلى أداء الصلاة لوقتها، وأداء النوافل قبلها وبعدها. وتوثقت بيننا ألفة.. كان يراني فى المسجد، ويراني فى المكتبة، وفى الفصل.

استوقف نظري أن عاملاً فى المدرسة كان يحضر إلى المصلي، أسمر الوجه قصير اللحية، له عمامة بيضاء صغيرة فوق طاقية تبدو تحتها جبهته العريضة، وفيها أثر السجود. أبرز ما في وجهه عيناه، ففيها حور وهدوء. وعندما يدخل المسجد كنت أجد المدرس يقدمه للإمامة، فيصلي بنا فى خشوع وهدوء وإتقان، وعرفنا اسمه: الشيخ محمد على أمين، ويندر أن نجد طالبًا من جيلنا مر على المدرسة العباسية الثانوية بالإسكندرية دون أن يعرف هذا الشيخ الجليل.

كنت أنظر إليه بعمامته البيضاء وأسلوبه فى تكويرها، فتبدو من أمام كعقد صغير في مسبحة، وتحت زاويته العليا هذه الزبيبة، تنبئ عن طول سجود، سمرة فوق سمرة نراها نورًا على نور.

جاءنا ناظر جديد، وجمع الفراشين فى صف ليفتش على نظافتهم، وكان ناظرًا عسكري الطابع، فى مشيته وحديثه ومعاملته، لم أشاهده مبتسمًا قط، ولعله يبتسم حين يفرغ إلى أصحابه وأهله..ومر أمام الفراشين:

أنت تنظف ملابسك، أنت تحلق ذقنك.. أنت.. أنت

حتى أدرك الشيخ محمد على أمين، فإذا به يطيل الوقوف أمامه قليلاً، ثم يقول: "أنت تسيب ذقنك"، وكانت اللحية الوحيدة التى سمح الناظر لأحد العاملين فى المدرسة بإرسالها..

وكان الناظر هو المرحوم عبد الحميد (بك) العجاتي، من أقدر النظار على الرؤية الحاذقة، وأدركنا شيئًا من كرامة العلم والدين، يستطيع بهما الخُلق أن يفرض نفسه على الجو على من حوله، فرضًا ليس فيه قهر، وإنما التقبل الراضي والاحترام.

وفى يوم كنت أصلي العصر بعد أن فرغت من دروسي، لم يكن فى المسجد إلا الشيخ محمد، وبعد أن فرغ من صلاته وتسبيحه، التفت إلى سائلاً عن اسمي وسنتي الدراسية فى بشاشة وود.. ثم سألني:

ماذا تقول فى ركوعك؟

قلت: سبحان ربي العظيم.. وقلتها مسرعًا..

قال: أتتحدث مع ربك بهذه السرعة أم باطمئنان ؟ وما معنى سبحان؟

ألا تعطي نفسك وأنت تقولها فرصة لاستحضار معانيها؟

كان هذا فاتحة صداقة بيننا استمرت بعد هذا سنين..

وقال لى بعد هذا: أي المساجد تتردد عليها؟ وأي الشيوخ تستمع إليهم؟

وعرف بهذا جانبًا من علاقتي بالطريقة الشاذلية، وكنا فى أواخر العام الدراسي، فقال لي: أن تتفرغ للمذاكرة، وهناك مسجد فى محرم بك يخطب فيه شيخ أحب أن تسمعه، وهذه صلاة جمعة تؤديها فى أي مسجد، ولن تأخذ من وقتك أكثر مما تعودت عليه.

وذهبت إلى هذه الزاوية الصغيرة..

كانت ملحقة بمخبز، ومبنية فى أرض فضاء، بناء ساذجًا محدود المساحة: منبر من ثلاث درجات، سقف قريب، أحسست فيه بالحر مع اقتراب الصيف وسوء التهوية، وحصير غليظ، أذان شرعي من نوبي عريض الكتفين عريض الصوت، ثم وقف شيخ يخطب الجمعة، لم تكن خطبة تقليدية، تدفق الرجل فى خطابته معتمدًا أساسًا على التمسك بالكتاب والسنة، هاجم البدع ومحدثات الأمور هجومًا عنيفًا، رفع صوته كأننا فى معركة، تصبب العرق من جبهته وهو يدافع عن وجوب الاعتصام بالقرآن الكريم والسنة المطهرة.. رأيت نفسي ورأيته والحاضرين يدير معركة فكرية، تشتد حرارتها كلما زاد تدفقه فى الخطابة.. وأطال وأطال، ويبدو أن الحاضرين متعودون على ذلك، وبعد الصلاة ألقى درسًا تابع فيه شرح ما جاء فى الخطبة.

ودارت عيني بين الجالسين، شباب وكهول، مستويات يبدو عليها التباين الاجتماعي والثقافي، مواطنون من السودان والنوبة، وصعيد مصر والإسكندرية، وجوه تتدرج ألوانها بين طرفين من سواد الشعر وبياضه.

ووجدت نفسي أقبل من كلام الشيخ وأدع، لم هذا العنف، وهذا الهجوم الضاري على بعض أهل القبلة، وتذكرت كلمة الشيخ الصوفي: "إذا باعدت بيننا الحياة فإن الإسلام يجمعنا.." وهل بمثل هذا الأسلوب تجتمع قلوب المسلمين، ولو صلى هؤلاء فى زاوية الشاذلية لحدث صراع، ولو جاء الشاذلية هنا لحدث صراع، والإسلام يجمع، فكيف الطريق؟

ولكن سيطرة الشيخ على اللغة وانطلاقه، ووقوفه عند الكتاب والسنة. شدني إليه، وكثر ترددي على المسجد لأداء صلاة الجمعة، ولم يزد فيه شيء.. نفس المكان الصغير، أعداد محدودة تضاف إليه، تعاون بين الحاضرين فى دفع ثمن مياه الوضوء إلى المخبز المجاور، ومعاونة فى نفقات المرافق الصحية..

ومحور الخطابة واضح محدد: العقيدة السلفية فى ذات الله وصفاته، الإيمان بنص القرآن، دون تشبيه أو تعطيل أو تجسيم، رد الكيف فى الآيات المتشابهة إلى الله، شرح وبسط لما أجمله الإمام مالك إمام دار الهجرة، عندما سأله أحد الجالسين عن معني قوله تعالى:"الرحمن على العرش استوى"، فكان رده:" الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"، ثم حديث عن التوسل والوسيلة، ووجوب الاعتماد على الله وحده القائم على كل نفس بما كسبت، وترك التوسل إليه بعباده، فهو قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وأفضل الدعاء ما جاء في القرآن والسنة النبوية المطهرة.

وبذلت فى الدراسة جهدًا أكبر لأفرغ فى عطلة الصيف إلى قراءة حرة فى السنة المطهرة. وكان أول كتاب وضعه الشيخ محمد على أمين فى يدي كتاب "السنة والمبتدعات" للشيخ محمد عبد السلام. وهو كتاب حديث يرتبط بالواقع الذي نعيشه بما فيه من خير وشر، وسنة وبدعة، ثم قرأت بعده كتاب الاعتصام للإمام الشاطبي، وهو كتاب أصيل فى إقامة الدين على الكتاب والسنة المطهرة.. وكان من أكبر ما استفدته من هذا الكتاب أنه فتح أمامي الطريق إلى آفاق علماء الإسلام البارزين، وأزال من نفسي خشية هذه الكتب ورهبتها.. الأسلوب سهل وقريب، الموضوعات مقسمة تقسيمًا واضحًا ، الحجة واضحة وبينة.. وكان هذا الكتاب وكتاب تيسير الوصول إلى جامع الأصول من معالم التحول الرئيسية فى ذهني.

وعدت إلى تيسير الوصول لأستزيد منه هذه المرة حفظًا مرتبًا للسنة على حسب الأبواب، فى مرحلة طويلة مع السنة المطهرة، وظل هذا الكتاب أفضل زادي فى السنة، وأقرب الكتب إلى يدي، ومن أول ما اقتنيت من كتب الأحاديث، بعد الأربعين النووية ورياض الصالحين للإمام النووي.

وازداد اتصالي بكتب السنة، فقرأت أبوابًا كثيرة من كتاب المحلى لابن حزم الأندلسي، واستوقفتني تقدمته للكتاب، وأنه مختصر من كتاب كبير، وهذا المختصر مطبوع فى أحد عشر جزءًا، أما الكتاب المطول فقد ضاع مع تراث الأندلس العظيم.

وأحببت في ابن حزم وضوح أسلوبه، وقوة حجته، وتنظيمه العقلي، وسعة إحاطته، وكنت أضيق بعنفه وشدة هجومه على مخالفيه.. ومن المحلى صحبت ابن حزم فى رحلات عقلية أخرى فى "الإحكام فى أصول الأحكام" وفصول من "الفصل فى الملل والأهواء والنحل" وكنت أعجب كيف يجمع بين هذا الجد كله وبين المقدرة على كتابة مؤلف مثل "طوق الحمامة" فى الحب وأحوال المحبين، ويؤكد فيه مع سعة إحاطته، طهارة ذيله واستقامة أخلاقه، ويشهد الله على ذلك.. هذا الوزير العالم الفقيه الشاعر المتمكن من الأديان والمذاهب المقارنة، عاشق المحبرة والقلم وسهر الليالي على مصباح العلم.

ما الذي يدعوه إلى هذا الجهد كله إلا إيمانه وحبه للعلم، وما يرشفه من سعادة..

واقرأ تاريخ حياته، وكيف أحاطته الأحقاد، حتى دفعت به بعيدًا عن موقعه، وكيف جمعوا كتبه وأحرقوها، هذه التى نبحث عنها بشغف وشوق، ولم ينج من النار إلا بعضها.

وداع

٢٢مارس ١٩٤٨

دم الخـــازنـــــدار

فى صبيحة هذا اليوم، بينما كان المستشار أحمد الخازندار (بك) فى طريقه من منزله فى حلوان إلى عمله، عاجله اثنان من شباب الإخوان بإطلاق النار عليه فأرديا قتيلاً.. وأمكن القبض على الاثنين: محمود زينهم وحسن عبد الحافظ.

وكان للحادث دوي عميق، تصارعت فيه تيارات فكرية متعددة، فقد أعاد إلى الأذهان مواقف الخازندار من قضايا سابقة أدان فيها بعض شباب الإخوان لاعتدائهم على جنود بريطانيين فى ناحية الإسكندرية، وحكم على الشابين بالأشغال الشاقة المؤبدة فى ٢٢ نوفمبر عام ١٩٤٧، وسئل الأستاذ البنا، ولكن أطلق سراحه لعدم كفاية الأدلة.. ولم يكن الخازندار محبوبًا، أو حتى موصوفًا بالحيدة

بين الإخوان، فبينما يرون عملهم " وطنيًا ودينيا ً"، كانوا يرون موقف الخازندار موقفًا قضائيًا متعسفًا.

ولا أود أن أسرد الوقائع كلها هنا، ولكن أود أن أسجل جلسة خاصة شهدتها فى المركز العام للإخوان المسلمين، برئاسة الأستاذ البنا، وحضور النظام الخاص في هذا الموضوع.

وأسجل هنا ما تعيه ذاكرتي من أحداث هذه الليلة البعيدة.

وسنرى كيف تتغير المشاهد فى الذهن وتعاد صياغتها، ويرويها صاحبها "معدلة"، وهو يؤمن أنها الحقيقة التى شاهدها، وهذه هي حكمة الشاهدين والأربعة شهود فى الإسلام.

مارس ١٩٤٨

كنت فى ربيع عام ١٩٤٨ مدرسًا فى معهد المعلمين فى أسيوط، وبعد مصرع الخازندار، جاءتني رسالة عن اجتماع عاجل مع الأستاذ المرشد فى القاهرة.. واستأذنت عميد المعهد الأستاذ عبد العزيز سلامة فى السفر، ولم أكن أغيب عن عملي أو أعتذر، ونظر إليَّ نظرة طويلة، ووافق على السفر فى هدوء دون أن يسأل، وإنما طلب منى أن أحدد أيام الغياب، ولم أستطع فقال: سأحتفظ بخطاب الاستئذان عندي حتى عودتك، وأرجو أن تكون قريبة، وأن تطمئن على الأهل، وكن حريصًا، والله معك.

كان بإحساسه الداخلي يشعر أن الأمر متعلق بالإخوان بعد مصرع الخازندار. والكل يتحدث ويعلق، القضاة، المحامون، رجال التعليم. ومهما يكن من أمر الآراء التى تشعبت، فإنها كانت تلتقي عند إدانة الإخوان، واستنكار الحادث، فقد كان عدوانًا سافرًا على القضاء..

وكانت عودتي إلى القاهرة مفاجأة للأهل.. أمي وإخوتي.. ولزمت الصمت، وذهبت إلى المركز العام.

كان الاجتماع فى حجرة المكتبة بالدور الثاني، هذه المكتبة التى تبرع بجزء كبير منها سمو الأمير محمد على توفيق ولى العهد وقتئذ، على أثر كلمات طيبة

من سليمان متولي (بك) مراقب عام المدارس الأميرية، فأرسلها مكتبة كاملة بخزانات الكتب.. وكانت هذه الحجرة بالذات أقرب الحجرات إلى فكري وقلبي.. وكم قضيت فيها الساعات قارئًا ـ باحثًا، أو متحدثًا مع أعضاء قسم الأسر.

ولكن هذه الجلسة كانت ذات طبيعة خاصة، ولعلها من أعمق جلسات الإخوان أثرًا فى نفسى، ولا زلت أذكر الأستاذ وجلسته، وعليه يبدو التوتر.. أراه فى حركة عينيه السريعة، والتفاته العصبي، ووجهه الكظيم، وإلى جواره قادة النظام الخاص عبد الرحمن السندى رئيس النظام، وكان لا يقل توترًا وتحفزًا عن الأستاذ، ثم أحمد حسنين، ومحمود الصباغ، وسيد فايز، وأحمد زكي، وإبراهيم الطيب، ويوسف طلعت، وحلمى عبد الحميد، وحسني عبد الباقي، وسيد سابق، وصالح عشماوي، وأحمد حجازي، ومصطفى مشهور، ومحمود عساف.

كان محور الحديث مصرع المستشار أحمد الخازندار..

قال الأستاذ: إن كل ما صدر منه من قول تعليقًا على أحكام الخازندار فى قضايا الإخوان "لو ربنا يخلصنا منه، " أو "لو نخلص منه"، أو لو واحد يخلصنا منه"، معنى لا يخرج عن الأمنية، ولا يصل إلى الأمر، فالأمر محدد، وإلى شخص محدد، وهو لم يصدر أمرًا، ولم يكلف أحدًا بتنفيذ ذلك، ففهم عبد الرحمن هذه الأمنية أمرًا، واتخذ إجراءاته التنفيذية، وفوجئ الأستاذ بالتنفيذ.

حدثني الصديق الأستاذ مختار عبد العليم المحامي، أن الأستاذ فى صلاة العشاء مساء الحادث سها فى عدد الركعات وصلى الفرض ثلاث ركعات، وأكمل ركعة السهو. وما أذكر على طول صلاتي مع الأستاذ أنه سها مرة.. وعلم الأستاذ مختار بهذا ممن كان مع الأستاذ فى صلاته.

وسمعت منه أيضًا أن الدكتور عزيز فهمى المحامى قابله فى المركز العام، فوجد الأستاذ جالسًا فى حجرة منعزلة، وحيدًا واضعًا رأسه بين يديه فى تفكير عميق، وألم لم يستطع إخفاءه، وهو ناقم أشد النقمة على الحادث.

وما أذكر أن الأستاذ عقد مثل هذا الاجتماع طوال حياته فى الإخوان بهذه الصورة..

وكان واضحًا أن الخلاف شديد بين المرشد وعبد الرحمن، فأمام كبار المسئولين، سيبدو إن كان الأستاذ قد أمر، أو أن عبد الرحمن تصرف من تلقاء نفسه، وفى ماذا؟ في قتل المستشار، وتسجيل عدوان دموي على القضاء فى مصر.

ووجهت حديثي إلى الأستاذ قائلاً:

أريد من فضيلتكم إجابة محددة بنعم أو لا على أسئلة مباشرة لو سمحتم.

فأذن بذلك فقلت:

-هل أصدرت فضيلتكم أمرًا صريحًا لعبد الرحمن بهذا الحادث؟

-قال: لا.

- قلت: هل تحمل دم الخازندار على رأسك وتلقى به الله يوم القيامة؟

- قال: لا.

- قلت: إذن فضيلتكم لم تأمر ولا تحمل مسئولية هذا أمام الله.

- قال: نعم.

فوجهت القول إلى عبد الرحمن السندى، واستأذنت الأستاذ فى ذلك فأذن.

- ممن تلقيت الأمر بهذا؟

- فقال: من الأستاذ.

-فقلت: هل تحمل دم الخازندار على رأسك يوم القيامة؟

- قال: لا.

- قلت: وهذا الشباب الذى دفعتم به إلى قتل الخازندار من يحمل مسئوليته؟ والأستاذ ينكر وأنت تنكر، والأستاذ يتبرأ وأنت تتبرأ.

- قال عبد الرحمن: عندما يقول الأستاذ إنه يتمنى الخلاص من الخازندار، فرغبته فى الخلاص أمر منه.

- قلت: مثل هذه الأمور ليست بالمفهوم أو بالرغبة وأسئلتي محددة، وإجاباتكم محددة، وكل منكما يتبرأ من دم الخازندار، ومن المسئولية عن هذا الشباب الذى أمر بقتل الخازندار.

ولا يزال المسلم فى فسحة من دينه ما لم يلق الله بدم حرام، هذا حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

- ثم قلت له: والآن هل تُترك المسائل على ما هي عليه، أم تحتاج منك إلى صورة جديدة من صور القيادة، وتحديد المسئوليات؟

- قال: لابد من صورة جديدة وتحديد مسئوليات.

واستقر رأيه على تكوين لجنة تضم كبار المسئولين عن النظام، بحيث لا ينفرد عبد الرحمن برأى ولا تصرف، وتأخذ اللجنة توجيهاتها الواضحة المحددة من الأستاذ، وأن يوزن هذا بميزان، ديني يقتضى أن يكون من بين أعضائها ـ بالإضافة إلى أنها تتلقى أوامرها من الأستاذ ـ رجل دين على علم وإيمان، ومن هنا جاء دور الشيخ سيد سابق ميزانا لحركة الآلة العنيفة.

وكانت هذه هي المرة الأولى التى يجلس فيها عبد الرحمن مجلس المحاسبة والمؤاخذة أمام الأستاذ وقيادات النظام الخاص، بل لعلها المرة الأولى التى جلس فيها الأستاذ أيضًا مجلس المواجهة الصريحة أمام نفسه وأمام قادة النظام، إلى الدرجة التى يقول فيها لعبد الرحمن:

- أنا لم أقل لك، ولا أحمل المسئولية.

وعبد الرحمن يرد:

- لا أنت قلت لى وتحمل المسئولية.

ويتبرأ كل منهما من دم الخازندار، ويخشى أمر أن يحمله على رأسه يوم القيامة.

وانتهت الجلسة..

وعدت إلى المنزل..

وفى الصبيحة الباكرة لليوم التالي كنت فى طريقي إلى أسيوط.

واتصلت بعميد المعهد فى المساء، ومارستُ عملي فى اليوم التالي، وفى مسائه دعاني إلى نزهة على شاطئ النيل القريب على الأقدام..

وقال لى: كنت أحس ـ ولا أريد منك أن تقول شيئًا ـ أن الأمر متصل بالإخوان المسلمين، ولم أرد أن أفرض نفسي عليك، ولا أن أسجل خطاب غيابك ولا المسوغ له، ولعلك أحسست أنني وددت أن أشعرك أني أحمل معك مسئولية ما إذا ما تأخرت، والحمد لله عدت مبكرًا، وأرجو أن تكون تصرفاتك على ما أحب لك، وما أنتظر منك، فبالإضافة إلى ما تحمله من مسئوليات أهلك، أضفت إلى هذا شعورك بأني أيضًا مسئول معك.. ولعل هذا كله مما زاد من حسن تقديرك لمواقفك وعودتك سالمًا.

وكل الذي أود أن أقوله لك، إذا احتجت إلى الرأي والنصيحة، فلا تعاملني كعميد، فما كنت معك كذلك، ولكن كأخ وصديق، وستجدني هكذا دائمًا. هذا عتابي عليك، أنك أشعرتني أنني لازلت بعيدًا عنك بعض الشيء..

قلت له: أنت تعلم مقدار إعزازي لك، إعزازًا لا أحب أن يسبب لك شيئًا من الحرج، حتى بمجرد العلم بما أعانيه.. ولكني أيضًا أحسست تمامًا بما تود منى أن أقوم به، وكيف أرعى مسئوليات الأهل والعمل، بالإضافة إلى مسئولياتي الدينية.. وأسأل الله أن يجزيك خير الجزاء، وأن يلهمنا جميعًا الرشد والتوفيق..

ومرت الأيام بعد هذا، والقضية تُنظر، وشقيق أحد المتهمين (حسن عبد الحافظ وهو الأستاذ صلاح عبد الحافظ المحامي) يبذل الجهد المضني مع الأستاذ فتحى رضوان الذى تولى الدفاع؛ ليثبت أن أخاه عنده انفصام شخصية "شيزوفرانيا".

وجاءت فرصة قابلت فيها الأستاذ صلاح، فوجدته ناقمًا أشد النقمة على الإخوان، وقد مست القضية شرف المهنة التى يعمل فيها والأخ الأثير إليه، والعدوان على القضاء الذي يقف أمامه، ودمرت مستقبل شابين.

وبعد جهود وجهود أمكن أن يصدر الحكم بالأشغال الشاقة على محمود زينهم وحسن عبد الحافظ..

ولكن هل توقفت آلة القتل والتدمير عند ذلك؟

لقد كان عام ١٩٤٨ ومطالع عام ١٩٤٩ الأعوام الدموية عند الإخوان أفعالاً وردود أفعال، وسحبت وراءها ذيولاً، وحفرت أخاديد، ومزقت أجسادًا، وفتحت معتقلات باتساع لم تعرفه مصر من قبل، وأعدت قوائم بالآلاف كانت تحت يد الثورة حين أرادت أن تضرب ضربتها للإخوان في سنة ١٩٥٤ وما بعدها.

صليت الجمعة فى مسجد قيسون فى الحلمية الجديدة، غير بعيد عن منزل الأستاذ البنا والمركز العام للإخوان المسلمين. الدار تحت السيطرة الحكومية، والأستاذ فى بيته تحت رقابة قوية هادئة، الجو مشحون بالتوجس، والهواء تتنفسه ثقيلاً..

ولقيت فى المسجد بعض الإخوان، فرادى هنا وهناك وقال بعضنا لبعض: فلنحاول أن نسلم على الأستاذ إذا استطعنا، وسيكون فى بيته بعد الصلاة. ومررت فى شارع أحمد عمر الموصل من المسجد إلى بيت الأستاذ فى شارع سنجر، واتجهت يسارًا بعد أن ألقيت نظرة على المركز العام على يميني، والمبنى القديم على يساري، وهذا ميدان الحلمية الذي كان يمتلئ كل ثلاثاء، وينقطع المرور ويمتد إلى السوق فى الشوارع الموصلة إليه وقد فرشوا الحصير فى هدوء يستمعون إلى حديث الثلاثاء.. تقطعه من حين إلي حين أصوات التكبير والتحميد: الله أكبر ولله الحمد..

العربات تمر فى الميدان.. السيارات.. رجال.. نساء.. أطفال.. باعة.. حياة متدفقة متلاقية متفرقة.. هادئة سريعة.. باسمه عابسة.. حياة.. كل فرد فى نفسه كون صغير، من يشعر بي؟ وبمن أشعر الآن؟

وهذا الرجل الذى تقيده أغلال غير منظورة، وتحده عيون مفتوحة ليست لها أجفان، عيون ثابتة على بابه، هكذا أمروها.

وعبرتُ كالسمكة حين تدخل الشبكة دون أن تشعر..

وطرقت الباب، وفوجئ بي الأستاذ:

- لماذا جئت؟ سيقبضون عليك الآن. كل الذين يأتون يدعونهم يدخلون ثم يقبضون عليهم حين يخرجون !

وظهر عليه الكثير من الأسى، وسمعنا الباب يُطرق، وكان الداخل هو المرحوم محمد صالح حرب باشا الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين.

- السلام عليكم يا شيخ حسن.

- هكذا كان ينادي الأستاذ المرشد والذي رد قائلاً: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وجلسا متجاورين وبدأ صالح باشا الحديث:

- أعلم أن الجمعية مغلقة ودارنا دارك، وتستطيع فى أي وقت أن تحضر إلى جمعية الشبان المسلمين حتى نفتح الجمعية إن شاء الله..

وشكره الأستاذ على هذا الاستعداد، ولكني كنتُ أحس القلق فيه، يبدو من حركات سيره السريعة، وسرعة اختلاج جفنه..

ثم قال له:

- يا باشا هل تستطيع وأنت خارج أن تأخذ معك عبد العزيز، كأنه جاء معك، إنهم يعتقلون من يحضر إلى.. يتركونهم يدخلون، ويعتقلونهم عند الخروج..

ودعا بخير.. وتهيأنا للخروج، وقال لى صالح باشا:

- تفعل ما آمرك به، ستخرج إلى جواري، وسأدفعك إلى عربتي، وسنصرف السائق مسرعًا، وقبل أن ينتبهوا ستكون العربة قد أسرعت بالسير. وخرج صالح باشا فى مشيته العسكرية السريعة وقامته المهيبة، ودفعني إلى السيارة ودخلها هو مسرعًا وأشار إلى السائق بالإسراع. وفى لحظة كنا بعيدين عن المنزل متجهين إلى قلب العاصمة.

كان التأثر باديًا على محيا صالح باشا. وتركت ورائي الأستاذ المرشد، وكان هذا آخر لقاء بيننا فى دنيانا.

وتأكد صالح باشا من أن العربة لا يتبعها أحد، وعندما اقتربنا من ميدان الإسماعيلية (التحرير حاليا) قال لى: سأنزلك قرب تاكسي تركب فيه مسرعًا، ثم تتجه إلى منزلك، ورافقتك السلامة.

وعندما تحرك بى التاكسي متجهًا إلى روض الفرج، حيث أسكن، أحسست أنني انتقلت من سجن صغير إلى سجن أكبر..

كل منازلنا معروفة، وغدًا أو بعد غد سيضم المعتقل آلافًا وآلاف.

وأخذت أستعيد أحاديثه القريبة الأخيرة.. عندما لقيته فى دار الشهاب، وكانت داره المفضلة، وإليها نقل مكتبته، وأصدر مجلة الشهاب، وأخذ فى تفسير القرآن، ومرحلة جديدة من مراحل حياته:

أريد أن أفرغ إلى العلم وإلى تكوين الشباب، مائة شاب أقابل بهم الله تعالى، وأقول: هؤلاء ربيتهم ينتشرون فى الأرض يدعون إلى الله، لا أريد هذا العمل "الدكاكيني" وهذه الشُّعوب الكثيرة؟! ما الثمرة الآن؟ لقد كلمني من أثق بهم من كبار العاملين فى العالم الإسلامي، ونصحوني بالاتجاه إلى التربية والتكوين.

وأنا أعلم من هؤلاء الحاج عبد الستار سيت سفير باكستان فى القاهرة، وكان قريبًا من نفس الأستاذ، ومما قاله المرشد عنه:

لقد اهتممنا بتربية الشباب فى باكستان، تستطيع أن تعتنى بمن تتوسم فيهم النجابة، والذين يُنتظر أن يصلوا إلى مقاعد الحكم، بل تستطيع من الآن أن تعتني بأبناء الحاكمين، وأعط الزمن نصيبه من العمل ولا تتعجل.. لا تتعجل، سيكون عندك جيل جديد قادر على التغيير.. وإذا لم يكن هناك تعاون بين الذين فى الحكم وبين الشعب، فكيف يتم التغيير؟

وكان هذا الأسلوب قد بدأ يتعمق فى نفس الأستاذ، وأذكر أنه قال لى بعد أن اشتدت المحنة وفى لقاءاتنا الأخيرة:

لو استطعت أن تنجو هذه المرة بمائة شاب وباسم الإخوان المسلمين، وفرغت إلى تربيتهم- لكنت سعيدًا عند لقاء ربي قائلاً: هؤلاء ربيتهم لدينك، وهم اليوم يجادلون عني.. لافتة الإخوان ومائة شاب.. هذا كل ما أريد..

وظلت هذه الكلمة ترن فى أذني دائمًا: التربية والتكوين، ومن قبل كان هذا مدار صراع طويل ترك آثاره العميقة على تاريخ الإخوان، وحين اتضحت معالمه فى نفسه كان موج الأحداث قد ارتفع كثيرًا، واندفعت السفينة معه إلى البحر العميق..

ولم تكن السفينة صغيرة، ولكنها كانت ثقيلة الحمولة.. شيوخ.. رجال.. شباب.. نساء.. أطفال.. هذه الآلاف من الأسر المؤمنة التى استجابت لداعي اللّه، وتداعت إلى شُعب الإخوان تكتب أسماءها، وتسجل عضويتها، وتدفع اشتراكاتها المتواضعة.. تنشئ مسجدًا، تعين أسرة، تعين مظلومًا، تفتح مدرسة أو ناديًا رياضيًا ـ كل هذه الأسماء أصبحت في سجلات تمهد للاعتقال.

وعندما جاءت النذر فى أواخر عام ١٩٤٨، وبدأت موجة الاعتقالات -تواجه من يستطيع التوجة إلى بيت الأستاذ المرشد، يسأل عن غائب، أو يلتمس العون.. فإذا العون مزيدًا من الاعتقال، فى جزائر الصمت التى صنعتها أيدي الحاكمين وقتئذ على سطح الحياة المصرية.

من الشورى غير الملزمة ... إلى النظام السري

يشتمل هذا الفصل على ثلاثة موضوعات:

- رأى الأستاذ المرشد فى القيادة والشورى: أنها معلمة وليست ملزمة
- كيف سار الأمر إلى الطاعة المطلقة؟
- كيف خرج النظام – عمليًا – عن طاعة المرشد؟

كان من رأي الأستاذ المرشد أن الشورى غير ملزمة للإمام، كتب هذا صراحة، ودافع عنه، ولم يتحول عن هذا الرأي، وسرى هذا منه إلى من حوله. وفى أواخر الثلاثينيات -وهى السنوات الأولى لحياتي فى الإخوان- كنت أسمع كثيرًا كلمة "بالأمر"، وهى كلمة عسكرية، تعني أن تفعل هذا كما هو مأمورًا به من مستوى أعلى، ولم أكن أستطيع إخفاء الضيق الذي كنت أحس به وقتئذ بذلك، وبعد ذلك وكنت - ولازلت - أؤمن برأي الأغلبية إذا ما استنارت، وكانت لها حرية إبداء الرأي، ووضعت أمامها الحقائق التى تجعلها قادرة على الحكم، هذا حقها. وصاحبتني هذه الحرية حتى فى الرؤى المنامية..

لازلت أذكر يومًا رأيت فيه الأستاذ المرشد فى المنام، ونحن نقوم الليل معًا، وعندما اقترب موعد الأذان، أخذ المؤذن فى الدعاء أو الترحيم، كما يطلق عليه أهل الإسكندرية، وكان المؤذن ندي الصوت يتغنى بالدعاء، ولاحظت الرضا على وجه الأستاذ، وقد استند إلى حائط المسجد فى نشوة، وهو يقول لبعض من معه:

قولوا للمؤذن أن يطيل فى الدعاء.

فقلت له: ولكن هذه بدعة !!

فقال لى: أحب أن أسمع دعاءه.

فعدت أقول: ولكن هذه بدعة..

فاشتد فى رده وإصراره واشتددت فى ردي وإصراري، واستيقظت على ذلك..

ولقيته بعد أيام، وقصصت عليه هذه الرؤيا، فقال مبتسمًا:

أنا أعلم نوع تفكيرك وتمسكك بالسنة، وستأتي أيام وظروف قد نختلف فيها، وأود فى هذه الظروف أن تترك رأيك لرأيي.. ألا تطمئن إلي؟

وكثيرًا ما كان يسألني عند أول لقائنا: ماذا تقرأ هذه الأيام؟

فى كثير من الأحيان كانت ردودي لا تتعدى مؤلفات ثلاثة من أئمتنا الكبار: ابن حزم، وابن تيميه، وابن القيم.

مصادفات كانت تحدث، وتكون ردودي مركزة على هؤلاء الأعلام، فيبتسم قائلاً: دائمًا معهم ؟!

ومما أعان على ذلك، الفارق الواضح بينه وبين جميع الذين كانوا من حوله، ولم يكن فارقًا فى مجال واحد.. لقد كان ذا ذاكرة واعية شهد له بها الصديق وغير الصديق، كان يتم قراءة القرآن فى سبعة أيام ومصحفه مقسم ومجلد على هذا الأساس.

وكان يقرأ بنا القرآن كله فى ليل رمضان، يقرؤه بخشوع، ويعيش فيه، وبعد أربع ركعات من صلاة القيام، يجلس بنا ليفسر بعض ما قرأ، ثم يتابع قراءة الجزء الذي بدأ فيه.

وكانت ليالي رمضان على سطح المركز العام من أسعد لياليا معه، وأحيانًا يشتد به التأثر، فنحس بعض نشيجه فى التلاوة، ونرى آثار الدمع فى عينيه إذا ما اتجه إلينا بوجهه بعد الصلاة.

المصحف أمامه صحيفة واحدة، ينقل فيها بصره وفكره، واستشهاده بالآيات سريعٌ ولماح.

كذلك حصيلتهُ من الأحاديث كبيرة، والاستشهاد بها قريب إليه وعلى طرف لسانه، كذلك الأدب العربي، والشعر بخاصة. وأذكر أنه قال لى: كنتُ أحفظ منه عندما التحقت بدار العلوم نحو اثني عشر ألف بيت.. ومكتبته فيها كتب السنة،كتب التصوف.. كما كان دءوبًا على الاطلاع، والإضافة، وتبسيط المعلومات، ويملك قدرة عالية على مخاطبة مستويات الفكر المتباينة.

سمعته يخاطب العلماء والقادة والعمال والفلاحين، سمعته تحت قبة الجامعة وفى أعماق الريف، كالنهر الفياض، يرد شاطئه الكثيرون فيشربون ويرتوون، دون أن ينضب الماء، أو يُكدر، أو تقل عذوبته..

فإذا أضفت إلى ذلك حُبه العميق لمن معه من الإخوان والأصدقاء، والقدرة على حفظ أسمائهم وأبنائهم وبناتهم، ووعى مشكلاتهم، والتعاون معهم -ما استطاع -على حلها..

إذا ما ضممت هذا كله إلى سماحة الوجه، وحلاوة الكلمة، والصدق فى الإخاء -استطعت أن تحس بأمرين:

١- ما كان يحمله الإخوان فى قلوبهم له من حب ما رأيت له نظيرًا فى حياتي بهذا العمق والاتساع والتنوع.
٢- ما كانوا يقابلون به توجيهاته من استجابة، كانت لها مشكلاتها التى تركت أثرًا عميقًا على تفكير الإخوان.

لقد كانت بيعة "كتائب أنصار اللّه" على ثلاثة أمور:

- السمع، والطاعة، والكتمان

وإذا تلاقوا تذاكروا آيتين من كتاب اللّه أول ما يتذكرون:

تقول الأولى: "نصر من اللّه وفتح قريب".

ويجيبه الثانى: "واللّه غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون".

التكوين إذن فى كتائب أنصار اللّه كان على هذه الأركان الثلاثة: السمع والطاعة والكتمان. ولكن إذا كانت التوجيهات والأوامر فى الكتمان، فمع من يناقش الأخ؟ وإذا ما قال له رئيسه المباشر إن هذه الأوامر جاءت من قيادة الإخوان، فينبغى أن يكون هذا محل تسليم.. وهنا نقطة الخطورة التى أصابت جسم الإخوان بأخطر الإصابات..

وعندما كون الأستاذ "النظام"، وهو الذي عرف فيما بعد باسم "النظام السري" -كان تكوينه أيضًا على أساس السمع والطاعة والكتمان.

ولقد أصبح هذا تاريخًا، ومن حق الأجيال الجديدة العاملة فى الحقل الإسلامي أن تعلم الكثير من التفاصيل حول ما يمكن أن نسميه "طقوس الانضمام إلى النظام"، وبدون هذه المعرفة والتقويم المبني على أساس من الإسلام، يمكن أن تتكرر الأخطاء والمشكلات.

كان المسئول الأول أو رقم (١) هو المرحوم عبد الرحمن السندى، وكنا زملاء فى كلية الآداب، التحقنا بها معًا فى العام الدراسي ١٩٣٦_١٩٣٧، وكان عبد الرحمن بالنسبة إلينا على شيء من اليسار والغنى، يسكن شقة مستقلة من حجرتين فى الجيزة، وأثاثها طيب، وجذوره من أسيوط من بني سند. وكان بيننا هادئًا وديعًا، لا تحس أنه ينطوي على عنف أو شدة. ولكن ظروفه الصحية كانت سيئة، وظهر أنه يعاني من روماتيزم فى القلب، ولم يستطع بصحته هذه أن يتابع دراسته معنا فى الكلية، فأصبح موظفًا في "وزارة الزراعة"، واستقر فى مسكن من مساكن الأوقاف أمام مسجد السلطان أبو العلا، ومعه أحد أقاربه "عم فهمي"، ثم استقل بالمسكن بعد ذلك.

ما فائدة هذه التفاصيل؟

إنسان يعاني من مرض القلب، فكيف يكون مسئولاً عن نظام يحتاج إلى مرور على محافظات مصر، وإشراف على تدريب، ورحلات خلوية بعيدة عن العمران، لا تصل أخبارها إلى سمع الحكومة، وفيها أصوات طلقات التدريب أو القنابل اليدوية؟!!

وكيف تحول صحته دون متابعة الدراسة، ثم تساعده على الإشراف على هذا الجهاز الخطير، الذي يحتاج إلى أعلى درجات اللياقة البدنية والفكرية؟

كان الوضع بالنسبة إلى عبد الرحمن "عمليا" لا يزيد عن انتحار تدريجي..

لقد تزوج مرة أخرى وأنجب، ولكن كنت أحس دائمًا أن هذه الصورة غير منطقية، ولا يمكن أن تؤدى إلى نتائج منطقية.

ولا زلت أذكر مرة كنت أزوره، وكان عنده الأستاذ المرشد.. وعبد الرحمن بيننا فى سريره، ولفائف القطن تصنع قميصًا له، وهو ينظر إلى المرشد قريبًا بعيدًا: قريبًا بجسمه، بعيدًا بعينه.. وكانت عيناه ـ حتى فى صمته ـ تبدو كأن عليهما

طبقة رقيقة من زجاج سحابى.. فإذا مرض أحسست أنه ينظر إليك من وراء ستار شفاف، تحسه ولا تراه.

ورقَاهُ الأستاذ ودعا له بخير، وأوصاه بصحته وقبله فى جبهته، وخرجنا معًا.. كانت صحة عبد الرحمن تتراوح بين الإقبال والإدبار.. ولكني كنت دائمًا أشعر أنه يشعل شمعة حياته من طرفيها، وأن أحكامه محكومة بصحته.

وإذا ما كانت هذه الصحة في مطالع الأربعينيات قادرة على الاستجابة لتكوين "النظام"، فإن شعوره أنه يتلقى التوجيهات مباشرة من المرشد، وأن له مكانة ليست لبعض أعضاء مكتب الإرشاد، بل شعوره أن ترتيبه فى النظام سابق لترتيب الأعضاء المتضمنين فيه —كل هذا كانت لا تنضبط معه قوامة الرجل "للجهاز"، فما بالك بمن لا يعرفون شيئًا، ويستجيبون للأمر مباشرة... ثقة فى المرشد شخصيًا؟

ولا شك فى أن الأستاذ كان على علم بالوضع العام " للنظام " أما عن التفاصيل منها فلها حديث بعد..

وإذا ما أريد فى "النظام" ترشيح أحد من الإخوان لعضويته بدأ أولاً فى إخضاعه لسلسلة من الاختبارات، تركز على قدرته على السمع، وعلى الطاعة، وعلى الكتمان:

حقيبة يحملها من مكان إلى مكان لا يعرف ما فيها، ويراقبه أحد أعضاء النظام ليرى تصرفاته، وقد لا يكون فيها أكثر من ملابس عادية، أو قطع من الحديد تشعره بالثقل.. قد يؤمر بنقلها من بلد إلى بلد.. أو ينتظر فى مكان معين ليأخذها من شخص معين، ليتسلمها منه آخر.. قد يؤمر بالاحتفاظ بها أيامًا. ولهم وسائلهم القياسية التي يعرفون بها أن الحقيبة قد فتحت، أم لا، مجرد الفتح.

كذلك هناك اختبارات الكفاءة البدنية للأفراد، والتوازن النفسي والحماسي للدعوة، مع القدرة على ضبط النفس ...

ويعرض عليه أحد أعضاء " النظام " هذه المبادئ الثلاثة (السمع، والطاعة، والكتمان)، وأن ينفذ ما يلقى إليه دون تردد.. فإذا ما اطمأن إليه، ومر فى بعض الاختبارات التمهيدية تحددت له ليلة البيعة.

ليلة البيعة ١٩٤٣

كانت لأحد الإخوان شقة فى حي السيدة عائشة غير بعيدة عن جبل المقطم، وكان من قادة "النظام"، يبيت المرشحون عنده هذه الليلة، وهم في كل مرة مجموعة سيعملون معًا فى خلية واحدة، يلتقون هناك بعد صلاة العشاء، بعد أن يصحبهم إلى المكان أحد أعضاء النظام، ويقضون الليل فى عبادة ثم يؤمرون واحدًا واحدًا بالدخول إلى غرفة مظلمة، لا يُرى فيها أحدًا، ويجلسه صاحبه على الأرض بعد خطوات محددة، ويمد يده إلى حيث يوجد مصحف ومسدس، وتمتد يد أخرى هى يد ممثل المرشد فى البيعة.. ويبايعه على السمع والطاعة والكتمان، دون أن يرى وجهه، إنما يسمع صوته ويلمس يده فقط.

أذكر هذا الموقف حين كنت أنا في البيعة، ولم يكن الصوت غريبًا عني، فقلت له مباشرة وسط الظلام:

ما هذا يا أستاذ صالح؟! وهل من الإسلام أن أضع يدي فى يد من لا أعرف؟ ثم أني أعرفك من صوتك، وأتحدث معك كل يوم !! ما هذه الأساليب التى أدخلتموها على عملنا، ولا أساس لها من ديننا؟!

ورد الأستاذ صالح عشماوى حينها –وكان وقتئذ عضوًا فى مكتب الإرشاد ورئيس تحرير مجلة الإخوان: هذا نظامنا.

قالها دون أن يذكر اسمه، أو يحاول أن يقدم تفسيرًا لما نفعله..

وبعد الخروج يذهب من أقسم إلى جبل المقطم القريب، يتدربون على إطلاق النار فترة قصيرة، والأسلحة كانت مخبأة فى مكان فى المقطم، بحيث لا يضطرون إلى حملها كل مرة، إلا إذا أرادوا استبدالها أو تغيير مكان التدريب..

ويعودون بعد هذا.. وبعد صلاة الجمعة يصحبهم عبد الرحمن إلى منزل الأستاذ البنا فى لقاء قصير يحييهم فيه، ويدعو لهم بالخير.

وإذا ما نظرت إلى ذلك كله أحسست فيه روح الفترة التي كانت تعيشها مصر وقتئذ، ونظم الجمعيات السرية، والتقليد الذى يمسخ الشخصية الإسلامية، والذي لا تستطيع أن ترده إلى أي قاعدة من آيات الله وسنة رسوله المصطفي -عليه الصلاة والسلام.

بل تستطيع القول، إن هذا الأسلوب كان أقرب إلى النظام الماسوني، أو الجماعات السرية التى أفرزتها عهود التآمر، منها إلى عهود الصفاء والنقاء الإسلامي الأول.

لقد قيل هذا كله فى التحقيقات، ولم يحذف اسم وأضيئت الأنوار، وظهر المسرح كله، ولم يكن الإخوان بحاجة إلى هذا.. بل إن هذا الأسلوب كان له إفرازه الحارق، الذي ترك ندوبًا غائرة على أديم العمل الإسلامي.

خريف ١٩٤٨

.. عاد الأستاذ المرشد من أداء فريضة الحج بفكر جديد، لم يكن يخفيه، ولا يخفي الذين تأثر بهم..

وأود أن أسجل هنا اسم الحاج عبد الستار سيت سفير باكستان فى القاهرة وقتئذ..

لقد كان رجلاً هادئًا، رضي النفس، مؤمنًا بالعمل الهادئ الطويل النفس، وكان يخشى على الإخوان عواقب الخطوات العنيفة التى اتخذوها، وأخذ يذكر للأستاذ ما اتبعوه فى بلاده من عناية بتربية الشباب، واختيار العناصر التى يرجى لها مستقبل فى الحياة العامة، أو يمكن أن يسمى بالجيل المقبل من القادة.. ولم يكن هؤلاء بعيدين عن شخصيات فى الحكم بحكم النشأة، فقوي فى نفس الأستاذ الاتجاه نحو التربية..

ولكن الرجل عاد ليجد حوادث القنابل والانفجارات فى القاهرة، سلسلة توالت حلقاتها: انفجار ممر شيكوريل، شركة الإعلانات الشرقية، حارة اليهود.

وإلى جوار الانفجارات، مصرع المستشار الخازندار من رجال القضاء، ومصرع سليم زكي من رجال الأمن.

ملامح الصورة يرسمها المسدس والقنبلة والديناميت.

وكانت ملامح القلق بادية على وجهه، حتى المحاضرات وزيارات الأقاليم زهد فيها.

بأذني سمعت منه وصف هذه الاحتفالات العامة بأنها "شغل دكاكيني"؛ أي عمل صغير متفرق لا قيمة له.

ويأتي مصرع النقراشي باشا رئيس الحكومة المصرية ليضع الأستاذ فى أشد المواقف حرجًا.

كان كل أمله ـ كما سمعت ذلك منه بنفسي ـ أن يخلص باسم الإخوان المسلمين ومائة شاب "أربيهم ينتشرون فى الأرض داعين إلى الإسلام، ويجادلون الله عني يوم القيامة.. حين يسألني أقول: يا رب ربيت هؤلاء، ونشرتهم فى الأرض يدعون الى دينك".

حصاد العمر الطويل: آلاف الشُّعب، وآلاف المعسكرات، وآلاف الحفلات، والجرائد والمجلات والمنشورات، تركز عنده فى مائة شاب يلقى الله بهم.

وتصدر عنه بعد مصرع النقراشي وثيقته الخطيرة: "ليسوا إخوانًا وليسوا مسلمين".

ورب قائل يقول: إن هذا كله تم عن تراض وتشاور بين الأستاذ وبين الذين قاموا بهذا الأمر؟ ولكنه دفاع أهون منه الإدانة، والوقوف إلى جوار المسئولية، أو على الأقل عدم إدانة من قام بالأمر بأنه ليس أخًا ـ وهذه تهون ـ وليس مسلمًا.

والإسلام واضح فى هذا الموقف، وحديث الرسول بين أيدينا: "من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما".

ويختلط هذا كله بقضية فلسطين، ويرتفع صوت الداعي إلى المشاركة العملية فيها، وكان للإخوان فيها دور تشهد به وثائق هذه الحرب والمنصفون من الكُتَّاب.

وفى فترة من الفترات فكر الأستاذ في المساهمة بنفسه فى هذه الحرب، والسفر مع أبنائه، ووجد هذا الرأي معارضة.

وكان الموقف أشد تعقيدًا مما يبدو..

فمن أجل فلسطين دار الذين يعملون من أجلها ـ من مصريين وفلسطينيين ـ فى محافظات مصر يجمعون السلاح. وكان السلاح قد انتشر في مصر من خلال

المعسكرات البريطانية فى أثناء الحرب العالمية الثانية: باع الجنود بعضه، واستولى المصريون على البعض الآخر من المعسكرات، إما باتفاق مع الجنود، وهذا هو الأغلب، أو اغتصابًا، وهو الأقل.. كل شيء فى المعسكرات كان يباع: السلاح.. الطعام.. الأمتعة.. المعدات الأولية كالأخشاب.. وظهرت طبقة أغنياء الحرب، ونشطت حركة الهجوم على المعسكرات، وسلسلة بائعي هذا كله من منطقة القنال بالذات إلى بقية أطراف مصر.

وفى هذا خطورة ما بعدها خطورة على وضع الإنجليز في مصر من ناحية، والجهاز من ناحية أخري. فكان فتح جبهة فلسطين بهذه الصورة، وفى هذا التوقيت، يمكن أن يفيد منه الإخوان أكثر من فائدة:

أولاً: تحت لواء الجهاد المقدس من أجل فلسطين والحفاظ عليها سيجمع الكثير من السلاح من مصر وما حولها، ليكون فى أيدي المجاهدين، وسيبذل من يعنيهم ذلك كل الجهد والمال لجمع أكبر قدر من السلاح. وفى ذات الوقت هناك دافع يدعو من يملك السلاح إلى أن يقدمه، والنتيجة أن تخلو أيدي الشعب - إلى أبعد مدى ممكن - من السلاح.

ثانيًا: ستكون هذه المعركة فرصة لا تعوض لإظهار إيمان الإخوان المسلمين، ومهارتهم فى استخدام السلاح، وشجاعتهم فى خوض المعارك، ويمكن أن تتولى أجهزة الإعلام العربية إبراز هذه البطولات بصورة واضحة وبإلحاح مستمر، (لا ننسى مقالات الصحفي اليهودي كيمش وحديثه عن قوة الإخوان المسلمين)، ونستطيع أن نحس انعكاس ذلك على النظام الحاكم فى مصر، الملك فاروق وبطانته، وجهاز الديوان الملكي، وأجهزة الأمن، والحكومة ذاتها، وسيطفو على الأحداث سؤال يفرض نفسه:

ماذا يستطيع هؤلاء أن يفعلوا إذا عادوا وأرادوا؟

ولنذكر أن حرب فلسطين عام ١٩٤٨ كانت "مشتلا" نمت فيه بذور وجذور كثيرة، أبرزها فى دراستنا هذه: حركة الضباط الأحرار، وما تمخضت عنه بعد هذا من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وظهور الإخوان المسلمين كقوة عسكرية ضاربة، وانعكاس هذا على دوائر القصر والحكم فى مصر..

وإذا كانت المرحلة الأولى من الصراع عام ١٩٤٨ مرحلة شعبية فيها تأييد حكومي، فقد دخلت أو أدخلت الحكومات فيها سافرة بعد قليل، دخل الجيش المصري، ووراءه الجيش البريطاني فى القنال، ودخلت الجيوش العربية وعلى بعضها قيادات أجنبية ظاهرة، أو من وراء أستار.

ثالثًا: وعندما جاءت الهدنة الأولى، وفرضت فرضًا على القوات العربية وهى على بعد أميال من تل أبيب -أعادت القوات اليهودية استعداداتها، وأمدتها الدول الكبرى بما تحتاج إليه من سلاح ودارت الدائرة على العرب. وبدا وكأن سبع دول عربية عجزت عن الوقوف أمام العدوان الجديد.

وتأتي الهزيمة النفسية بعد الهزيمة العسكرية عاملاً ثالثًا فى الموقف، وخندقًا يملؤه الشك وسوء الظن المتبادل بين الحكومات والشعوب العربية.

ويزداد موقف الإخوان المسلمين سوءًا: قوة نامية، قامت بجهد إيجابي فى المعركة، أشادت به الصحافة المحلية والعالمية، وحكومات متداعية سيقت إلى الهزيمة، وشهدت أمام عينها قيام دولة العدوان الإسرائيلي على أرض عربية الوجه واليد واللسان..

وتحولت الحكومة المصرية كالوحش الجريح، وفى عيونها نظرات القلق، وفى يدها بقايا بطش، وفى نفسها صدع تريد أن تشد عليه بجبيرة من ثياب الإخوان.. وبين يديها من أحداث القنابل والديناميت والمسدسات ما يمكن أن تتخذه مبررًا.

وللأمانة أقول: ألم يقدم الإخوان بأنفسهم بعض أدلة إدانتهم؟ ألم يحكم الاستعمار خطته حتى يحول الصراع بعد هزيمة ١٩٤٨ إلى ضرب عنيف للإخوان مستفيدًا من كل هذه الظروف؟

على أنني مع كل الحطام والآلام لازلت أذكر آخر نصيحة للأستاذ: " لو أخلص باسم الإخوان ومائة شاب أريبهم، ينتشرون فى الأرض داعين إلى الإسلام، يجادلون الله عني يوم القيامة.. حين يسألني أقول: يا رب ربيت هؤلاء ونشرتهم فى الأرض يدعون إلى دينك..".

ووعيتها فى نفسي..

وفتحت المعتقلات والسجون أبوابها تتلقى آلاف الإخوان.

الهايكستب ١٩٤٩

(شعبة شركس)

عندما جاءنا الحاج أبو العلا فى معتقل الهايكستب، بدا لي منذ النظرة الأولى أنه أقوى الموجودين، متوسط القامة، قصير الرقبة، كأنها ركبت على أكتافه العريضة بعظام إضافية تزيدها قوة، ضخم الساعدين، ثابت الخطوة، قوي النظر، ممتلئ الجسم، يبدو فى جلوسه وقيامه كأنه كتلة واحدة، يحار من يهاجمه من أين يبدأ.

دخل من باب المعتقل، ذي الأسلاك الشائكة المتقاطعة، بين الحراس الذين أشرفوا على هذا الوافد بنظرات حذرة فيها إعجاب واحترام عميق، خصوصًا أبناء الصعيد الذين أحسوا أن " أبو العلا " نموذج مشرف لهم.

وكان وراءه عدد من إخوانه، تحس من سيرهم أنه يعاملونه بكل احترام وتبعية، ووقعت عيني على أحدهم، كان ضيق العينين، بادي الحزن والغضب، له لحيه صغيرة فى أسفل وجهه الأبيض المشرب بحمرة. ونظرته غير ودودة، وكان قريبًا من الحاج، ويبدو أيضًا أنه كان صاحب تأثير عليه..

وقلت: هل تتكرر القصة؛ الجسم فى واحد والفكر فى الآخر؟

بدأ النفور، بيني وبينهم حين فهم أبو العلا من أحدهم أنني مع الحكومة. واعتزلت مجموعة شعبة شركس الناس، وانفردت وحدها فى الصلاة والجلوس.

لقد ظهر شيء غير قليل من العداوة..

ومرض أبو العلا في المعتقل، فقمت بتمريضه والعناية به، حتى عافاه الله من المرض.

بعدها جاءني أبو العلا واعترف لي أنه كان ينوي ضربي بحديدة "تجيب أجلي" وكيف أفهمه عبد الرحمن جانو أنني مادمت لا أسافر إلى الطور فأنا مع الحكومة..

كما اعترف لي أبو العلا بسبب حضور جانو، وأنه هو الذى بلغ عنه لطول لسانه، وعبر أبو العلا عن رغبته في الانتقام من جانو الذي عكر الأجواء، ولكنه سافر هو ومجموعته إلى الطور.

وقد يسر الله لي أن أزوره بعد خروجنا من السجن، وقبل موته شابًا- رحمه الله.

١٩٤٩ ـ ١٩٥٠:

شهد عام ١٩٤٩ موجة عالية من الاعتقال والحبس على ذمة بعض قضايا الإخوان، مررت فيها بمعتقلات الهايكستب والطور وعيون موسى.. وكان فى سجون القاهرة والأقاليم عددٌ كبير، يعنيني فى هذا الحديث من كانوا فى سجن مصر..

ذلك لأن هذه الفترة كانت مخاضًا فكريًا جديدًا، وفرصة للمراجعة والتأمل فى أسلوب الإخوان، ومدى فاعليته فى تحقيق أهدافهم، بل إن هذه الأهداف نفسها كانت محل مراجعة.

١ - اتصل الإخوان آنذاك بفكر " أبو الأعلى المودودى"، ويحتاج هذا الفكر إلى وقفة متأنية لبيان خطوط اللقاء وخطوط الافتراق بينه وبين فكر الإخوان، وكان هذا الحوار شديدًا فى سجن مصر، وفى الهايكستب، ثم انتقل إلى الطور، وتستطيع أن تسمى هذا الخط اتجاه "الشباب المسلم".

٢- كما أن بعض الإخوان كانوا قد اتصلوا بمصادر من الفكر العالمي، والوضع المقارن بين الجماعات الدينية فى الإسلام والمسيحية، ووجوب تطوير أساليب الإخوان، ومستوياتهم الفكرية، وحمل هذا اللواء مصطفى مؤمن فى الهايكستب، ثم فى الطور بعد ذلك..

٣- وفى ذات الوقت كان هناك اتجاه محافظ، يرمى إلى المحافظة على ماضي الإخوان، كأنه تراث مقدس لا يمس. وكان دم الأستاذ البنا وكفاحه الطويل وما له من مكانة فى قلوب الإخوان. حائلاً دون القدرة على النقد والتقييم، وكيف يقيمون، وفي هذا اختلاف للآراء، فى وقت هم أحوج ما يكونون فيه إلى الوحدة؟! هكذا قالوا.. ولا أنسى أصواتًا ارتفعت يومًا قبل الاعتقال فى الهيئة التأسيسية صارخة "المرشد لا يخطئ".. وكأننا أصبحنا

نؤمن بعصمة الإمام فى الإخوان، ومع أن هذا لم يكن محل قبول، إلا أن ظروف الاعتقال جعلت إدارة الحوار أسلوبًا شائكًا، لا يجدي الحذر فيه عن إدماء الأيدي.. على الأقل..

٤- وثمة خطر آخر أحس أصحابه بأنه لا مُقَام لهم فى هذا المعترك، لقد دخلوا الإخوان عبادة لله، ومودة بينهم وتعاونًا على البر والتقوى، فإذا بها طريق يجرهم ـ دون استعداد أو رغبة ـ إلى المعتقلات. منهم أصحاب قوائم التبرعات بخمسة قروش أو عشرة، الذين دفع بهم إيصال التبرع إلى أعماق السجون وأقصى المنافي.. كثيرون جاءوا لا يعرفون لماذا جاءوا، ولا متى يخرجون، وتركوا وراءهم زوجات وأطفالاً بغير عائل، ومحلات تجارية أغلقت، وسعي إلى الرزق توقف، وحوانيت محدودة المساحة والرزق لا تجد راعيًا. وتنظر حولك فترى وجوهًا أرهقها الألم، زائغة البصر، لا تريد أن تسمع حتى كلمة التثبيت والإيمان.. فصوت الجوع وجوع الأطفال يستطيع أن يخترق أسوار المنافي، ويعبر إلى جهاز الالتقاط الذي ركبه الله فى قلب كل أب، ويسمع فيه أنين ولده بغير أذن، ويرى بكاءه بغير عين.

٥- ووجوه دخلت التجربة الجديدة امتدادًا لإيمانها، فهي على الصبر واليقين تبذل كل الجهد لرعاية من حولها محبة ومودة، وتقاسمًا لما بين أيديهم من متاع الدنيا، مع محاولة دائبة لتخفيف ألم، ورعاية مريض، وإيصال خبر من أهل أو إليهم عبر الحراس والأسلاك.

كان الأستاذ محمود محمد شاكر، والأستاذ سيد قطب من الشخصيات التى اتجه الإخوان إلى الاستفادة من علمها بعد خروجهم من الاعتقال فى أواخر عام ١٩٤٩.

وتولى د.محمد رشاد رفيق مهمة الاتصال، خاصة بالأستاذ شاكر بحكم جوار السكن، ومعرفة رشاد لعدد غير قليل من كبار المفكرين. وكان، ولايزال فى طبعي شيء من الانطواء يقعد بى عن التعرف إلى الآخرين.

وكان رشاد هو الذي عرفني بمحمود شاكر، وهو الذي ذهب معي إلى مجلس الأستاذ عباس محمود العقاد صباح يوم جمعة حتى موعد الصلاة.

والأستاذ شاكر علم من أعلام فكرنا العربي المعاصر، له قراءاته العريضة والعميقة، وإنتاجه الأدبي، ونظراته النافذة.. وهو من أسرة ورثت حب الإسلام والعمل العلمي له، كان والده الشيخ محمد شاكر وكيلاً للأزهر الشريف، وعمل فترة فى السودان.. وأخوه الأكبر هو العالم الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر، ولمحمود إنتاجه الإسلامي، المشترك والخاص، تحقيقًا وتأليفًا.

وفى محمود غيرة على الإسلام واللغة العربية شديدة دافقة، تشتد أحيانًا كفيضان النهر فى صعيد مصر حيث نشأ، فلا تعترف بجسور ولا سدود، وتسرى فى عروقه من دم يصل به إلى بيت النبوة.. وله خطه الفكري الذي يفرضه على حياته، ويعيش به، مدافعًا عنه، لا أقول كأنه فى معركة، فهو فى معركة فعلاً مرفوعة الأعلام، أسلحتها كل ما فى قلبه من طاقة وإيمان، وما فى عقله من طاقة وفكر، وما فى لسانه من طاقة تعبير، قادرة على أن تكون عبيرًا أو رجومًا.

وقضية اللغة العربية كمحور والحضارة الإسلامية كمدار.. قضية جوهرية عنده.

"ألا إنما العربية اللسان"، واللّه تعالى:"خلق الإنسان علمه البيان"

وقد قضيت أيامًا وأيامًا أسمع من محمود شاكر..

كان وقتئذ يسكن فى شارع السباق فى مصر الجديدة، فى سكن مرتفع تطل منه على الخضرة الكاسية الممتدة والبيت كله كتب لا تكاد ترى منها الحوائط في حجرة المعيشة وحجرة المكتب على يسار الداخل، وحُجرة الطعام المجاورة، وجزء من حجرة النوم المقابلة، كتب من الأرض إلى السقف، أمهات الكتب العربية، لغة وأدبًا وتاريخًا.. كتب المستشرقين، كتب عن الاستعمار والتاريخ الأوربي، مجموعات من المجلات. ولكن تحس وراء هذا نظامًا دقيقًا صارمًا، فلا تكاد يده تخطئ مرجعًا، وإذا فتحته فلا تكاد تقلب إلا أقل الصفحات حتى تصل إلى بغيتها.

كان مدار حديثنا عن الوجود الإسلامي، ومكانة اللسان العربي فيه.. ولم يكن محمود اتصل "بعمق" بالإخوان، والنماذج التى اتصل بها حتى ذلك الوقت كانت طيبة ومثقفة، وتريد المزيد من العلم بجد واستمرار. ولقد كتب اللّه

للدكتور رشاد أن يتابع رحلته العلمية الطويلة تحقيقًا لتراث الإمام ابن تيمية ونشرًا علميًا له، مع دائرة أوسع عمل فيها فى مجال الفلسفة الإسلامية فى بريطانيا ومصر والسعودية.

وكان من تفكيرنا أن يحضر عدد من شباب الإخوان جلسات علمية بعضها لمحمود شاكر، وبعضها الآخر لسيد قطب وبعض المفكرين الآخرين.

وحاولنا أن نمهد لهذا بزيارة محمود لبعض معسكرات الإخوان الرياضية الثقافية، وأذكر منها وقتئذ معسكرًا فى حلوان..

وجاء محمود كأنما يكتشف عالمًا غريبًا.. أعجب بنشاطهم وأخلاقهم وانتظامهم وصلاتهم.. وعندما دُعي إلى الحديث أطال النظر إليهم.. ولازال هذا المنظر عالقًا بذهني...

كان جالسًا على الأرض محتبيًا، يلبس قميصًا أبيض وسروالا صدفيًا، جمع شعره بمنديل أبيض، لحيته تغطي الجانب الأكبر من وجهه، عيناه تبرقان تحت منظاره.. هو ينظر وهم ينتظرون، ثم انفجر ضاحكًا..

ونظر بعضهم إلى بعض، وسرت الابتسامة إلى وجوههم مختلطة بالدهشة.. ما هذا الإنسان الغريب الذى يدعى إلى الحديث فى الدين فينفجر ضاحكًا فى وجوههم بعد صمت طويل؟!!

وقطع دهشتهم بقوله: أنتم تذكرونني بأمرين: صلابة أصحاب العقائد، والمحكوم عليهم بالسجن المؤبد من مجرمي ليمان طرة.. رجال العصابات فى الصعيد عندنا، أولاد الليل الذين لا يعرفون الخوف. ما رأيت نظراتكم هذه إلا عند أولاد الليل فى الصعيد..

هكذا تبدأ معهم يا محمود؟!

وبدأ يشرح موقف هؤلاء من السلطة الحاكمة، ومن العائلات الباغية، وعطفهم على الفقراء، الشهامة التى بينهم، وأن هذه بقية بقيت من أخلاق الرجال طردتها الحياة الرخوة إلى الجبال، فعاشت فى صراع مع المجتمع، والذي يأخذ طريق التغيير ليس السجن منه ببعيد..

ثم عاد إلى الحديث عن اللغة العربية.. وكان على محمود أن يبدأ بالعرب قبل الإسلام باعتبارهم المعدن الذي اختاره الله ليقوم فيه خاتم الأديان، وليبعث فيه خاتم النبيين.

وفرق كبير بين هذا التناول وبين اعتبار ما قبل الإسلام مجرد "جاهلية" بالمفهوم الساذج لهذه الكلمة.

وأخذ يدرس لهم عادًا الأولى، وقوله تعالي: "وأنه أهلك عادًا الأولى" كما درس عادا الثانية التي ذكرها الله فى قوله تعالى:" ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد".

ثم درس لهم ثمود وديارهم ونبيهم "صالحًا "- عليه السلام.

وانتقل إلى دراسة طسم وجديس والعماليق ووبار وجرهم. وبعد دراسة العرب العاربة انتقل إلى دراسة العرب المستعربة: عدنان وقحطان ...

وحضرت من هذا درسين، وكنت أنظر إلى شباب الإخوان، والقليل منهم متقبل لذلك وأكثرهم عنه غير راض.

الموضوع يحتاج إلى حصر ذهن وإلى أصالة، النفس فى الدراسة طويل، والاستشهادات فوق مستوى الكثير منهم، الجلسة فى ذاتها على الأرض غير مريحة. طريقة تعاملهم مع محمود وتعامله معهم لم تكن مما ألفوا.. فأخذ يضيق بهم ويضيقون به،.. وناقشوه فى أمر الإخوان، فوجد فى أكثرهم ضحالة فوجئ بها، وتعصبًا لا يستند إلى دليل، وسرعة إلى النتائج دون تثبت.. وازداد الجو توترًا.. وبدأ ينفر من بعض تصرفاتهم، ومن تصرفات الإخوان في الفترة السابقة. واشتد الحوار، وارتفعت حرارته. ورأوا فيه عدم احترام لقياداتهم واستخفافًا بجهودهم، وتخطئةً لمنهجهم، ورأى فيهم صورًا فى التعصب الضيق، والإسراع بالحكم على الناس ولو بالكفر واستباحة الدم..

وفى يوم أشتد غضبه، وضاق بهم ذرعًا، وقالها فى عنف باتر:

الذى يريد أن يتعلم مني، أو يتناقش معي، فليترك ما في رأسه مع حذائه الذي يخلعه عندما يدخل بيتي..

وكانت هذه الفاصلة بينهم وبينه..

وذهبت إليه بعدها فوجدت فيه الغضب والحزن..

كانت الدموع فى عينيه وهو يحس الخطر المحدق الذي ينحدر إليه الإخوان، وخاصة فى موضوع "الدم ".

لقد دافعوا أمامه عن الإخوان فيما نسب إليهم من حوادث، النسف أو القتل، واعتبروا هؤلاء معتدين على الإسلام يستحقون القتل..

هكذا تحكمون على الناس بالكفر؟ تحكمون.. من أنتم؟ وهل يعطي الإسلام أي مسلم الحق فى دم أخيه لأي سبب؟ وأين تذهب أحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم: "لايزال المسلم فى فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا ".. "كل المسلم على المسلم حرام، دمه وعرضه وماله".

١٩٥٣

قضيت معظم تلك السنة فى السودان أجمع المادة العلمية، وأقوم بالدراسة الميدانية لرسالة الدكتوراه عن "دلتا القاش: دراسة إقليمية"

عشت منها قدرًا فى الخرطوم، وانتقلت بعدها إلى ود مدني عاصمة مديرية النيل الأزرق لدراسة الصلة بين مشروعي الجزيرة والقاش، وتابعت رحلتي بعد هذا إلى روما حيث إدارة المشروع، ومن روما انتقلت فى رحلات امتدت من كسلا جنوبًا (عاصمة مديرية كسلا) إلى هداليا المحطة الشمالية فى المشروع.. ثم تابعت الرحلة إلى إريتريا، وأمضيت أيامًا فى تستي حيث المشروع الذى قام به الايطاليون لزراعة القطن وبعض الحاصلات الغذائية، وكانت له مشكلاته فى الري مع مشروع القاش.

وتابعت الرحلة بعد هذا إلى أجوردات وكرن، وأمضيت أيامًا فى أسمرة، وزرت مصوع ميناءها على البحر الأحمر، ولمست عن قرب الأثر الذي تركه المصريون هناك.. ثم عدت بعد هذا إلى روما، وتابعت الرحلة بالخط الحديدي والنيل حتى وصلت مصر فى أواخر العام..

بدأت هذه الرحلة فى فبراير.. وانتهت فى أكتوبر.. ومع الجهد المضني الذي كنت أبذله فى جمع المادة العلمية، والوسائل المحدودة التى كانت تحت يدي، والموارد التى كنت أحسبها بكل دقة -كانت هناك فترات من الفراغ والتأمل أستطيع فيها أن أعيد التفكير فى قضايا كثيرة تحتاج إلى مواقف وحسم..

عندما سافرت كنت عضوًا فى مكتب الإرشاد العام، وكانت هذه هى المرة الأولى والأخيرة التى عملت فيها فى المكتب..

بعد الخروج من الاعتقال فى نوفمبر ١٩٤٩ والجهود المبذولة فى أعوام ١٩٥٠و١٩٥١ تكون المكتب، وكان هناك إصرار كبير من الإخوان على أن أتولى منصب مسئولية الأمين العام للإخوان، متعاونًا فى هذا مع المرشد العام الجديد الأستاذ حسن الهضيبي والوكيل الجديد الأستاذ عبد القادر عودة.. وكان من المرشد إصرار على أن يكون وكيله الأستاذ عودة؛ حيث التقارب فى الفكر والثقافة، وقوة صحته فيه تعاون على حمل مسئولية العمل.

وكنت ولازلت عزوفًا عن المناصب الإدارية، إلا إذا اضطررت إليها اضطرارًا..

وكان الأستاذ عبد الحكيم عابدين ـ الأمين العام السابق ـ يعلم هذا عني جيدًا، ويعلم إصراري على الابتعاد عن هذا المنصب، وأن الإلحاح معى لن يصل إلى أكثر من قبول عضوية مكتب الإرشاد، وأنه سيظل الأمين العام للإخوان.

وبعثت خطابًا رسميًا بعد سفري إلى السودان أعتذر فيه عن عدم الاستمرار فى عضوية المكتب؛ لأني سأتغيب فترة طويلة، ومن الخير أن يختار الحاصل على أعلى الأصوات من الذين لم يختاروا. وكتبت إصراري على الاستقالة، وأن هذا موقف سألتزم به: ألا أتولى مناصب إدارية فى الإخوان.

كان هذا منذ مطلع عام ١٩٥٣، وزادت فترات التأمل والوحدة من عمقه فى نفسي، وعندما عدت كنت شديد الإصرار عليه.

لماذا؟

أحسست عمليًا فى السودان ـ كان وقتئذ يمر بفترة الانتقال الحرجة بين سنتين ١٩٥٣و١٩٥٦ ـ بأن الشباك التى نصبها الاستعمار للعالم الإسلامي ليست

بهذه الدرجة من البساطة والضحالة التى قد تصورها الخطب الحماسية الجماهيرية، وأن جهودًا دائبة مستمرة قام بها بناة إمبراطوريات أخلصوا لأهدافهم، وسعوا إليها بكل وسيلة... وأن هذه الجهود متواصلة، يكمل بعضها بعضًا.

وأن الجهاز الاستعماري على درجة عالية من الكفاءة والتنظيم، التنظيم الذي ينبغي أن يتوفر فى أي عمل ناجح، بقطع النظر عن الميزان الأخلاقي الذي يوزن به هذا العمل.

ولقد كنت كثيرًا ما أدعو إخواني وأبنائي إلى العناية بالعلم، والمنهجية والتخطيط الطويل، حتى أصبحت هذه -وآسفًا أقولها- مثار دعابة، قد تصل أحيانًا إلى شيء يقرب من السخرية المهذبة، إن كان فى السخرية تهذيب !!

وأخذت أستعيد الخطب العريضة الرنانة، والقوالب المحفوظة، التى يستطيع بها الخطيب أن يحدد أماكن الهتاف والتكبير، كأنها تمثيلية معادة، أخذت أستعيد التبسيط والتسطيح لقضايا الحياة، وقضايا الإسلام، حتى كأن الإخوان أصبحوا يمتلكون المفاتيح السحرية لحل قضايا العصر..

قضايا الاقتصاد تحل فى كلمات..

قضايا الاجتماع فى كلمات..

المشكلة السياسية فى كلمات..

الشورى.. فى كلمات..

هكذا بكل بساطة يمكن أن تحل قضايا الحياة !!

واستطاع هذا التبسيط أن يجتذب الكثير من الشباب، وكان مرتبطًا - وهذه نقطة القوة - بالتزام أخلاقي، كان هو العاصم من شرور كثيرة..

والالتزام الأخلاقي حين يستقر يصبح به الفرد صورة حية لدينه، بقدر تمسكه بالدين، وقدرته على تطبيقه فى قضايا الحياة.

وهذا البناء الأخلاقي الضخم، كان معرضًا - أخطر ما يكون التعرض - لسطحية القرارات التي يمكن اتخاذها.

وما دام حل مشكلات الحياة ممكنًا بهذه السهولة، فما الذي يحول دون أن يكون اتخاذ القرار سريعًا وسهلاً؟! وليكن بعد هذا ما يكون.. فإننا على الحق وعين الله ترعانا..

ولقد كان من الأعراف الفكرية عند الإخوان، أن يد الله –التي ترعاهم- قادرة على أن تحول خطأ تصرفهم إلى صواب.. نسير إلى خطأ، فإذا برحمة الله تتدّاركنا فنتحول إلى صواب.. نقصد أمرًا فتوجهنا عناية الله إلى غيره.. هكذا كنت أسمع، وسمع كثيرون غيري من الأستاذ البنا -رحمه الله.

فإذا كان ذلك كذلك، فلا داعي لتضييع كثير من الوقت والجهد فى تقليب القرار، والدراسة العميقة المستأنية لملابساته؛ فإننا إذا أخطأنا تكفلت عناية الله بإصلاح هذا الخطأ !!

ولم أكن في قرارة نفسي، ولا فى منهج تفكيري أؤمن بذلك..

وإنما أومن بأن على أن أبذل الجهد الملائم لطبيعة العصر الذي أنا فيه، ودراسة أحواله وظروفه داخلية وخارجية، وألا أتعجل الزمن في مثل هذه القضايا الكبيرة، وأن أفصل بين عمر الفرد وعمر الدين..

عدت فإذا بالجو بين الإخوان والثورة قد ازداد توترًا:

رغب الإخوان فى إصدار مجلة (أخرى)، غير مجلة "الدعوة" التى يرأس تحريرها الأستاذ صالح عشماوى.

الانقسام المستتر بين عودة وعشماوي بدأ يطفو على سطح حياة الإخوان. الأستاذ سيد قطب بدأ يقوم بجهد أكبر وأوسع إلى جوار الأستاذ الهضيبي، وكنت قد تقدمت بنصيحة: بأن لا داعي لمجلة، والاكتفاء بسلسلة من الرسائل. المجلة ستضطرنا إلى اتخاذ مواقف، ونحن تعودنا على أساليب النقد والمعاداة، أكثر من تعودنا على أساليب الاقتراح الإيجابي البناء.

قلت إن المجلة ستؤدى إلى توسيع الهوة بيننا وبين الثورة..

صح ما توقعته، واضطر الرقيب إلى أن يحذف مقالات ورسومًا كاريكاتورية.

رفضت الكتابة فى المجلة، وتساءل الإخوان عن ذلك، ووقف سيد قطب يقول: عرضنا عليه الكتابة فاعتذر، ولديكم عنوان منزله، وتستطيعون أن تسألوه !!

هل تتحول هذه الجموع إلى منزلي لإقناعي؟

الرد البسيط الموضوعي: إنه غير موافق على المجلة أصلاً لأسباب أبداها، وهو يعلمها، وله أن يقولها.. ولا داعي لهذه الإثارة.

وقد عاتبته فى ذلك، وتحدثت إلى الأستاذ المرشد، وقصرت جهودي على نشر رسائل قسم الأسر، وصدر منها حتى حل الإخوان ثلاث رسائل هي: نظام الأسر، من آداب الأسرة والكتيبة، نحو جيل مؤمن.

هذا هو الجو المتوتر الذي عدت من السودان لأجده أمامي.

وزارني صديق أخبرني أن مولانا ظفر الأنصاري فى القاهرة، ويود مقابلتي، وظفر أحد المقربين من مولانا أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية فى شبة القارة الهندية الباكستانية.

ماذا يريد ظفر الأنصاري فى القاهرة؟

سبق أن تلاقينا أكثر من مرة فى منزله فى بندر رود فى كراتشي، وكان هذا فى أبريل عام ١٩٥٢، ولقيت عنده مولانا المودودي فى جلستين طويلتين.

وتلاقينا فى منزل السيد السفير عمر بهاء الدين الأميرى، وكان وقتئذ فى كراتشي رافضًا العودة إلى سوريا موطنه..

وأخبرني أنه يحمل رسالة من المودودي إلى الهضيبي، وحددنا موعدًا وذهبنا إلى الأستاذ المرشد فى منزله فى رفقة الأستاذ صالح عشماوى زميلي فى رحلة باكستان (أبريل ١٩٥٢).

وكانت رسالة المودودى تدور على محور واحد: ألا يصطدم الإخوان بالحكومة بكل طريقة وبأي ثمن، ذلك لأن الجماعة الإسلامية وقتئذ كانت تخوض تجربة قاسية مع حكومة باكستان، زعماؤها فى السجن، نشاطها تحت قيود، ومن الممكن أن يستطيع الإخوان - إذا كانوا فى عافية -أن يقدموا عونًا

للجماعة الإسلامية تستطيع به، أو يكون على الأقل مساعدًا لها على اجتياز محنتها، وإذا ما دخل الإخوان صراعًا مع الحكومة ـ فى ظل هذه الظروف ـ لم تستطع الجماعة الإسلامية أن تتلقى منهم أي عون أدبي أو مادي.

كان حديث ظفر الأنصارى على هذا المستوى الإسلامي العام، كان يأمل أن يكون هناك تعاون بين الجماعات الإسلامية الكبيرة، ولم يكن هناك وقتئذ فيما أعلم أقوى في العمل الإسلامي من الإخوان المسلمين فى القطاع العربي، والجماعة الإسلامية فى القطاع غير العربي.

صحيح أن هناك خلافًا جوهريًا فى أساليب عمل كل من الجماعتين، وإن كان المنطلق الأساسي لها هو الإسلام. ولقد كانت الصلة بين الإخوان والجماعة الإسلامية من القضايا التى شغلت الإخوان وهم فى السجون منذ أواخر عام ١٩٤٨ إلى أن أفرجت عنهم الثورة بعد قيامها، كما كانت مثار حوار تشتد درجة حرارته أحيانًا فى المعتقلات وما بعدها فى المحاضرات وجلسات الحوار، واستمرت ذيوله حتى التحقيقات بعد حوادث أكتوبر سنة ١٩٥٤، واستمرت بعد هذا أيضًا..

ولقد تعرضت هذه المذكرات لجوانب من هذا بالتفصيل فى مواضع أخرى، ولكن الذي أود أن أؤكده هنا -كما أؤكده فى غير هذه المواضع- أن الجماعة الإسلامية لا تؤمن بالعنف سبيلا إلى تحقيق أهدافها، ولا تؤمن باستخدام السلاح. لا تؤمن بالتشكيلات السرية بكل ما تحمل من مزالق وأخاديد الطاعة الكاملة أو العمياء، ولن يكونه الكمال أعمى، فلنقل الطاعة المطلقة، فهذا أفضل.

تحدث مولانا ظفر أحمد الأنصاري مع الأستاذ المرشد، وقلت له: وهذا صوت يأتيك من باكستان، صوت مخلص يحب لنا الخير، فلنحاول بكل الجهد أن نحول دون تدهور العلاقات مع الثورة، فالخاسر أخيرًا سيكون البلد: حكومة وشعبًا ودينًا، سيظل العمل للإسلام بعد هذا فترة طويلة مصبوغًا بلون الضحايا على طريق العمل الديني.

وبلغ مولانا ظفر رسالته بكل الأمانة والهدوء، وزكيتها أمام الأستاذ المرشد ما استطعت، وعاد الرجل إلى وطنه والعام يقارب الانتهاء، ليبدأ عام ١٩٥٤ بكل تضاريسه وأعاصيره وتفجراته وأصدائه.

خريف ١٩٥٣

نحو عام أمضيته فى السودان، كانت لى فيه فترات تأمل طويلة، زادت فيها قناعتي بما انتهي إليه الأستاذ المرشد حسن البنا فى خريف ١٩٤٨..

ورأيت فى السودان الخطر الذي يتهدد الجبهة الجنوبية للإسلام فى أفريقية، ورأيت ما يتعرض له المسلمون فى إريتريا، والتخريب الاقتصادي والاجتماعي والديني والأخلاقي الذي يفرضه الاستعمار الاثيوبي عليهم..

وزادت قناعتي بأن قوة أبناء الإسلام ينبغي أن تتجه أول ما تتجه إلى أعداء الإسلام من غير المسلمين، ولكن للأسف استطاع عدونا أن يجعل بأسنا بيننا شديدًا، وأن يوجه المسلم إلى حرب المسلم.

وساءلت نفسي:

ما الذي جاء بمحمد على إلى السودان؟

لماذا حارب دولة الفونج؟

لماذا حارب دولة الفور؟

لماذا حارب الوهابيين؟

وما أكثر حروبه فى أرض الإسلام، ولكن عندما ما اتجه إلى أوربا، رأى وجهًا غير الذي يعرف أو ينتظر..

وما أعمق ما كتب إليه سلطان الفور يسأله عن سبب هذه الحرب والكل مسلمون مؤمنون بالله..

واستطاعت هذه الجهود التى بذلها محمد علي فى أفريقية هو وأبناؤه أن تفتح الطريق ميسرًا أمام الاستعمار تحت اسم إمبراطورية مصرية كبيرة.

وما الفرق بين حروب محمد على علي المستوى الإسلامي والصراعات الداخلية بين قوى الإسلام حتى على مستوى الحكومة والشعب، وفى إطار الدولة الواحدة؟

كلها قوى إسلامية مستنزفة، ولا يفيد منها الإسلام شيئًا.

وأذكر لقاءً لي مع كبار العاملين فى الحقل الإسلامي فى السودان قبيل سفري، وكان آخر ما قلت لهم: ابتعدوا عن كل مشكلات الإخوان فى مصر، ووجهوا كل عنايتكم إلى نشر الإسلام والعروبة عندكم، اللغة العربية لسان القرآن، والقرآن كتاب الإسلام.. وانظروا إلى ما يبذله غيركم، ولا تريقوا جهودكم فى صراع داخلي لن يستفيد منه غير عدوكم.

وعدت إلى مصر، ومرت سنين، وفى زيارة للسودان عام ١٩٧٧ قابلت بعض من لقيت فى خريف عام ١٩٥٣، وتذاكرنا ما كان، بل ذكروني هم بما قلت قائلين:"ليتنا بذلنا كل الجهد فى تلك السبيل".

تذاكرنا وقد سرى الشيب فى رءوسنا، وبدأت العظام تهن مع تعاقب السنين.

عدت إلى مصر بعد أن أرسلت فى أثناء السفر رسالة أطلب فيها إعفائي من عضوية مكتب الإرشاد للإخوان المسلمين فى القاهرة، رغبة فى التفرغ للدراسة العلمية، وآثر الزملاء حفظ طلب الإعفاء وعدم إذاعته.. ولكني كنت عليه مصرًا.

ولم تمض إلا فترة يسيرة بعد العودة، حتى علمت من الأستاذ صالح عشماوى أن مولانا ظفر أحمد الأنصاري جاء من باكستان، ويريد مقابلتي لأمر هام.

ومولانا ظفر عالم جليل، تعرفت به أثناء زيارتي لباكستان فى ربيع عام ١٩٥٢، وطال جلوسنا معًا، ورتب لى لقاءين طويلين مع مولانا أبو الأعلى المودودى فى منزله فى بندر رود -كما أذكر.

وكان مولانا ظفر شديد الإشفاق من توتر الأوضاع بين الإخوان والثورة، وجاء يحمل رسالة من الأستاذ المودودي إلى الأستاذ الهضيبي.

وحددنا موعدًا فى بيت الأستاذ المرشد لمولانا ظفر، وصحبته مع الأستاذ صالح عشماوى فى الزيارة.

كانت الجماعة الإسلامية التى أسسها المودودى فى محنة مع حكومة باكستان، وأحس الإخوة هناك بما نحن مقبلون عليه، وكانت رسالة مولانا ظفر نقلاً عن المودودى دعوة للإخوان ألا يصطدموا مع الحكومة، فنحن الآن -أي

الجماعة الإسلامية- فى هذا الموقف، وليس من المنطقي ولا من مصلحة الإسلام أن تخوضوا نفس التجربة الآن.. ابتعدوا الآن عن هذه المشكلات، ولتكن صلتكم بالحكومة طيبة، وحاولوا جهدكم أن تدافعوا عنا فى موقفنا الذي نحن فيه. ولو كنا فى عافية وكنتم أنتم مقبلون على تجربة لأمكن النظر فى ذلك، ولكن إذا كنا نحن الآن كما ترون، وغدًا تصيرون مثلنا، فمن الذي يرفع الصوت مدافعًا عما يصيبنا؟

كانت هذه خلاصة الرسالة التي حملها مولانا ظفر، وكانت دعوة إلى تعاون بين الجماعات الإسلامية ذات الصبغة العالمية كالجماعة الإسلامية والإخوان المسلمين.. كانت دعوة إلى تفاهم واسع على امتداد العالم الإسلامي، حيث لا تصبح فيه كل جماعة حرة حرية كاملة فى اختيار مواقفها دون تشاور مع الذين يعملون فى نفس الحقل.

ولنتذكر أن الجماعة الإسلامية تؤمن إيمانًا كاملاً بالعمل السلمي فى الميدان العام وفى الحياة البرلمانية، وهى لم تقاطع المجتمع، ولا تدعو إلى ذلك، ولا تؤمن باستخدام القوة المسلحة فى نشر الإسلام ما دامت الجماعة فى مواقعها الشعبية، لذلك لا ترى جانب السلاح فى قضاياهم كما تراه فى قضايا الإخوان المسلمين. وهذه من أهم نقاط التفرقة التى ينبغي أن تكون واضحة بين أسلوبي الجماعتين.

تعلم الجماعة الإسلامية أن قدم الإخوان إذا جذبت إلى معركة، فإن يدهم قد تتحرك بالسلاح، ومن وراء ذلك قضايا وقضايا.. وأرادوا أن يقطعوا عليهم طريق المأساة بالنصح الهادئ، وبالمندوب الكريم الذي أرسلوه فى هذه المرحلة الحرجة من حياة الإخوان.

لازلت أذكر هذا الموقف فى بيت الأستاذ المرشد ومولانا ظفر أحمد الأنصاري يتحدث إليه بصوته العميق وإخلاصه، ويقدم خلاصة تجاربهم، ولكن سرعان ما ضاع الصوت الخالص وسط ضجيج الأحداث.

بين السجن الحربي ومعتقل القلعة

١٩٥٤ ـ ١٩٥٦

" يوشك إن طالت بك مدة، أن ترى قومًا فى أيديهم مثل أذناب البقر، يغدون فى غضب الله، ويروحون فى غضب الله".

حديث شريف رواه مسلم عن أبي هريرة مشكاة المصابيح ٢٧٦/٢ حديث رقم ٣٥٢٣ ص ٢٧٦ ط. المكتب الإسلامي، دمشق.

من البيت إلى السجن الحربي

السجن الحربي:

ليلة ١٥/١٤ يناير إلى الجمعة ٢٦ مارس ١٩٥٤:

ثلاث موجات من الاعتقال مر بها الإخوان فى عهد الثورة من قيامها إلى هزيمة يونيو ١٩٦٧،

وأستطيع أن أطلق عليها الأسماء التالية:

الموجة الصغيرة فى شتاء ١٩٥٤.
الموجة الكبيرة من خريف ١٩٥٤ إلى صيف ١٩٥٦.
الموجة الكبرى من صيف ١٩٦٥ إلى ١٩٦٧-١٩٦٨.

وتتدرج فى أكثر من عنصر:

١- عنصر الزمن فهو يطول فى كل موجة تاليه عن سابقتها.
٢- وهو يشتد قسوة وضراوة.
٣- وهو يتسع فى المدى، ويزداد التنوع فى أساليب التعذيب.

ولا أستطيع أن أفصل هذا عما حدث قبله فى عهد السعديين، فى الفترة ما بين ١٩٤٨ و١٩٥٠. بل إن هذه الموجات يمكن أن نجد لها جذورًا فيما حدث فى عهد صدقي، فى فترة حكمه ما بين سنتي١٩٣٠ و ١٩٣٤.

والذي يدعوني إلى هذا الربط أمل فى أن يدرس تاريخ التعذيب فى مصر، وليت الدراسة تتسع لتشمل العالم الإسلامي.

والذي خرجت به مما مر بي - ولا أعتبره كثيرًا مقارنة بما مر به كثيرون غيري - هو قناعة أساسية، أود أن أكرس لها من الجهد ما أستطيع، وهو الدعوة أساسًا إلى "احترام الإنسان"، وهو الذي كرمه الله، وحمله في ظلمات البر والبحر.. فكيف وضعه أخوه الإنسان فى غيابة السجون، وأعماق المنافي، وأهدر آدميته، وحرمه مما يتمتع به الطير فى سمائه، والحشرة فى جحرها، والأسماك فى مسبحها؟

لقد تتابع الرسل، ونزلت عليهم الكتب من الله تعالى، ولكن قضيتان أساسيتان كانتا فى كل دين، وهما: الإيمان، والعمل الصالح، وفى مقدمة العمل الصالح احترام الإنسان، ومنع استغلاله بأي نوع من أنواع الاستغلال.

أمضى الإخوان فى السجن الحربي نحو شهرين فى الاعتقال الصغير، وفتحت معه الثورة - بالتبعية - معتقلات أخرى، كان أبرزها معتقل "أبو قير" فى الإسكندرية.

ومرت المعاملة فى مرحلتين:

مرحلة أولى سريعة وعنيفة كالإعصار، تلتها مرحلة هدوء طويلة، انتهت بالإفراج..

وكان الاعتقال مفاجئًا، فيأتيك طارق فى منتصف الليل ومعه حرس مسلح، وتحملك سيارة إلى سجن الأجانب، ثم تنقل إلى السجن الحربي.. إدخال عنيف فى حجرات ضيقة بلا فرش ولا غطاء، وطعام لا يُرى فى الظلمة و لا يُعرف في النور.

وكان معي فى محبسي عامل من الإخوان شهدته في حرب فلسطين، وأحضر معه لحافًا خفيفًا أحمر اللون، ولما رأيته فى الصباح قال فى هدوء وابتسام، عندما أحس أني أطيل التحديق فيه: هذا الكفن أحمر اللون، لا يبدو فيه أثر دمي إذا حدث تعذيب، وإذا احتاجوا إلى كفني فهو موجود.. أنا دائمًا أحمل كفني معي. قالها وعاد إلى سكونه وابتسامته الهادئة.

ولم تطل صحبتنا، فقد جاء من يأمرنا بالخروج المفاجئ، وأحسست بالأيدي تدفع، والكلمات المدموغة الغليظة واللكمات، وعلى رأسهم ضابط لا يقل عن جنوده شراسة.. ونقلونا إلى مكان آخر، حيث كل فرد فى محبس خاص.

ومر يوم رأيت فيها جانبًا مما عشت فيه طويلاً بعد هذا فى الشهور الأخيرة من عام ١٩٥٤ وما تلاها.

وفجأة -وما أكثر ورود هذا اللفظ فى الحديث والأحداث فتح الباب، ودخل أكثر من جندي يحملون سريرًا ومنضدة ومقعدًا، وللسرير مرتبة وعليه ملاءة بيضاء ومخدة.

ماذا حدث؟

لا نعلم..

وبعد قليل فُتحت الأبواب، وأصبح من اليسير أن يتلاقى الإخوان، وأن يتوضأوا فى يسر، وأن يغسلوا ثيابهم، وأن تصل إليهم بعض أخبار الدنيا.

لم نكن وحدنا فى المعتقل، كان معنا بعض الشيوعيين والوفديين. وبعد أيام جاءنا الأستاذ أحمد حسين -رئيس حزب مصر الفتاة، ثم الحزب الاشتراكي بعد هذا.

وضم المعتقل غير قليل من قادة الإخوان، كان معنا الأستاذ الهضيبي ـ المرشد العام ـ وأدركنا الأستاذ عبد القادر عودة، والأساتذة: عبد الحكيم عابدين، ومنير دله، وحسن عشماوي، وصلاح شادي.

ولكن الذي استرعى انتباهي أن عددًا من قادة النظام الخاص لم يكونوا بين المعتقلين، بينما كان معنا فى مكان آخر الأستاذ سيد قطب وسعيد رمضان..

وما أن تغيرت معاملة السجن لنا، حتى تغيرت معاملة بعضنا للجنود. وأقولها آسفًا: فهؤلاء لا يخرجون عن كونهم أدوات تحركها قيادات مسئولة تعرف ما تريد، وتأمر بما تريد، أمروهم بالإيذاء فآذونا، وأمروهم بالإحسان فأحسنوا معاملتنا، وكان بعضنا قد رأى فيهم رموزًا لسلطة، فأراد أن ينتقم من هذه الرموز، فأرهقوهم من أمرهم عُسرا.

وعندما دارت الأيام وعدنا، لقينا بعض من كان فى السجن من جنود، وكنا فى أوقات عسرة وشدة، وانتقم بعضهم منا، وصبوا الكثير من أحقادهم على من تعرفوا عليهم، ممن أساءوا معاملتهم فى الاعتقال الصغير. وكان بعضهم على خلق

طيب، بقدر ما تسمح به ظروف السجن من التعبير عن هذا الخلق، ومع حرصهم على ألا يصيبهم أذى هم أدرى الناس به؛ لأنهم أدوات الجلاد، وخزنة ناره.

وكان الاعتقال الصغير موسمًا للتعرف على كثير من جوانب الصلة بين الإخوان والثورة فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ كل منهما، كما كانت "معملاً" تميزت فيه عناصر رجال، وحجومهم، وأنماط تفكيرهم.

لم يكن مضى على عودتي من السودان غير شهرين عندما حدث الاعتقال، وكانت فترة السودان خصبة فى قراءاتي وتفكيري، واتساع آفاق معرفتي بالناس. ولعل أكثر الجوانب خصوبة فيها، ما أتيح لى أن أقرأه من تقارير عن السياسة الإنجليزية فى السودان، وما عشت فيه من تجارب مع مسئولين بريطانيين، وإخوة سودانيين، فتحوا لى ـ بعد الثقة ـ قلوبهم وملفاتهم.

ولم تكن حياتي في السودان حينئذ حياة فنادق ومدن، ولكنها حياة معاناة يومية، ولقاءات مع أناس من مستويات اجتماعية متباينة، وجولات فى المدن والريف والبادية، وأحاديث مع خريجي جامعات أوربية وعربية، ومشايخ قبائل، وعمال زراعة، ووافدين من غرب إفريقية، ورجال علم ودين وتصوف.

وانعكس هذا على تفكيري، زيادة فى غلبة التخطيط الطويل، دون ردود الأفعال الآنية، وعمق إحساس بمسئولية القول، والعقل والرأي.

وأحسست فجوة تأخذ فى الاتساع بين ما فى ذهني من مناهج تفكير، وبين ما أجده حولي من بعض قادة الإخوان، وإن كان الشباب، وخاصة ممن عاشوا معي فى قسم الأسر، أكثر استجابة لهذه التطورات من غيرهم.

من أجل ذلك كان أول ما نصحتهم به، عندما تحسنت الظروف واستطعنا أن نتلاقى - أن أدعوهم إلى الهجرة من مصر إذا قدر الله لنا الخروج من هذه المحنة. وكان إحساسي أن الاعتقال الصغير هذا كان تجربة، ومحاولة أجهضتها أحداث أكبر من رجال الثورة، وسيعودون إليها مع قوة كبيرة منهم، أو خطأ كبير منا ... فصراع القوة، لا يحتمل وجود الثورة والإخوان، كقوى متوازية أو متوازنة أو متعايشة، ولا يمكن أن تكون الكلمة العليا إلا لصاحب القوة فى الموقف. وتجارب الماضي وأحداث الحاضر تبين أن قوة الإخوان إلى تفكك، ومن الخير أن يتحولوا

إلى مادة ذائبة لها طعمها الذي تعطيه للسائل دون أن ترى.. مادة سكرية فى ماء، والماء شفاف، ولكن له حلاوته وعذوبته..

وحين خرجنا فى مارس، بادر عدد غير قليل منهم إلى الهجرة، وانتشروا فى الأرض.. فى السعودية وفى الخليج، وكونوا أنفسهم علميًا واجتماعيًا، وأصبحوا يشغلون مناصب قيادية، وأخلصوا لدينهم وللأقطار التى آوتهم، وكانوا نماذج كريمة للعمل الإسلامي العالمي، الذي يحفظ الولاء للعقيدة والوطن، ويجازي الوفاء بالوفاء، وكرم الإيواء بالتفاني فى العمل والإنتاج..

وعندما لقيتهم فى مهاجرهم بعد عشرين عامًا، كانوا شخصيات ناضجة، لكل منهم ذاتيته، ومقوماته، وتجربته، واختفى الطابع النمطي من حياتهم، وهو الذي كانت تتقارب به شخصياتهم عقليًا، وأصبحت علاقاتهم ـ فيما بينهم وبين أنفسهم، وفيما بينهم وبين الناس ـ تقوم على أسس سليمة من الإسلام، والتقييم العادل للأفراد والجهود.

وبقي البعض على ما كان عليه، والبعض زادته الأيام استمساكًا بأسلوب عقلي عاش به فيما مضى، ومبادئ وسلوك عاش به في ظرف تاريخي سابق. كان يجد نفسه فيما يستمسك به، ولا يطيق نقدًا لتاريخه، إلا فى أضيق الحدود، وهو أميل إلى معرفة أخطاء غيره من معرفة أخطاء نفسه.

ولكن لهذا حديث آخر..

فلنعد إلى السجن الحربي فى الاعتقال الصغير، لنرى نماذج أخرى..

ويبدو أن أخبار الأرض عندما تضيق مسالكها، تفتح الطريق لأخبار السماء، كنا نستيقظ قبيل الفجر فيفتح الحراس الأبواب، وبعد الصلاة كنت أجد الأستاذ عبد الحكيم عابدين -الأمين العام للإخوان- واقفًا يروي للإخوان ما رآه فى المنام، ويتكرر هذا كل يوم، حتى إن بعض الظرفاء من إخواننا أطلقوا عليها اسم "أخبار النوم" تشبيهًا لها بأخبار اليوم، الجريدة المعروفة فى مصر.

وكان بعض الحراس يقفون إلى جوارنا يسمعون أخبار النوم من عابدين، وفى يوم قال له أحدهم: يا أستاذ عابدين استرح يومًا من الأحلام، ليس من الضروري أن ترى لنا فى كل يوم منامًا!!

وعابدين شاعر، ويبدو أن النوم كان عنده امتدادًا لليقظة، ما أدري مدى تأثير ما يراه منامًا على يقظته، فكم من الرؤى أثرت على حياة الإخوان.

وتبدأ التحقيقات مع الإخوان، تحقيقات طويلة مع البعض، وتحقيقات لا تعدو أن تكون أسئلة عامة مع البعض الآخر.

ويحضرني منها التحقيق مع حسن عشماوي،

وكان حسن قريبًا من الأستاذين البنا والهضيبي، حلو المعشر، طيب القول، فيه ذكاء واستقامة.

وكان فى ذات الوقت على صلة طيبة بالرئيس جمال عبد الناصر، وأحد الخطوط الموصلة بينه وبين قيادة الإخوان..

ويعود حسن من التحقيق وفى وجهه دهشة لا يستطيع إخفاءها، فقد عثروا على أسلحة فى مزرعته وسألوه عنها فقال: لا أستطيع الإجابة إلا بعد استئذان جمال عبد الناصر.. ولا يزيد على هذا شيئًا !

ويقول لي حسن: الأسلحة أسلحة الضباط الأحرار، وعندما ضيقت عليهم الحكومة، طلب مني جمال عبد الناصر أن أحفظها فى مزرعتي. فقلت له: لا أستطيع أن أحفظها بطريقة سليمة.

فقال: أنا أرسم لك المكان الذي تحفظها فيه وطريقة صيانتها، وأخرج ورقة أعد فيها تصميم المخبأ بخط يده، وقمت بتنفيذ ذلك، ولازالت الورقة عندي، برسم وخط جمال.. أتكون الأسلحة أسلحته، والرسم رسمه، والخط خطه، والمكان يعرفه هو، وبعد هذا يذهب من يذهب إلى هذا المكان بالذات، ويستخرج الأسلحة، وأُتهم أنا بحيازة أسلحة بدون ترخيص؟!!

ولا زالت هذه النظرة التي اختلطت فيها الدهشة بالحيرة بالألم، هى آخر ما أعي من حسن عشماوى، نظرة تلخص الصراع بين الوفاء وطموح السياسة، التي تعصف فى طريقها بأقدس المشاعر.

وأذكر الأستاذ الهضيبي فى هدوئه وعكوفه على كتاب اللّه، وطول عبادته، وحوارنا فى الكتب الإسلامية، وكان له بها إلمام عريض وعميق، فإذا

أراد التخفيف نقل الحديث إلى طرائف أدبية، فعرض - كما أذكر - لابن حزم وكتاب "طوق الحمامة"، بعد أن كان قبل قليل يعرض آراءه فى كتابه "الإحكام فى أصول الأحكام". وذكرت معه الإمام الشافعي فى تأكيده على التمكن فى اللغة العربية والأدب العربي قبل التعرض لتفسير القرآن.

وكان الرجل مع جلال السن أكبر من الأحداث، لا يشكو، ولا يبدو عليه حتى كتمان الشكوى.

كان مثالاً للرضا والإيمان، وكنت أطيل النظر إليه، وأرى كيف دفعته الأحداث من كرسي القضاء - والكلمة من فمه قدر - ومن هدوء الحياة اليومية بين الأهل، والأصدقاء والزملاء الذين يحملون له التقدير والاحترام، إلى محبسه فى السجن الحربي، يتحكم فى مصيره من هم فى سن أبنائه، باندفاعهم وتجربتهم المحدودة، وهم فى أول الطريق إلى مسئولياتهم، وهو قد أشرف على الغاية، وليس فى قلبه من دنيا الناس مطمع، إلا أن يرضي ربه، ويقود هذه السفينة وسط الموج لينقذ الإخوان، ويجمع بينهم وبين الأوضاع الجديدة.

ولقد لخص الرجل فلسفته كلها فى كلمته التى جاءت بعد هذا تصديرًا لكتابه "دعاة لا قضاة"، وحين قال: "الداعية سلاحه الكلمة الطيبة.. ".

ولكن: كم من الحُفر كانت فى طريقه؟ بعضها من صنع أقرب الناس إليه، دفعهم الإيمان، وقصر بهم التصور السليم، واضطربت على الطريق خطواتهم، واختلطت الأفكار فى أذهانهم. والإيمان ليس عقيدة مجردة، وإنما هو القدرة على التصور والتصوير، على الفكر والتنفيذ، على اختيار الأفضل بين البدائل المتاحة، على مواجهة أقرب الناس بما يكرهون، والجمهور بما يصدمه وإن كان فيه الخير، على التحكم فى التيار الجموح بأعصاب هادئة، على سعة النظرة في مصادر المعرفة السليمة، التى توفر أنسب الأسس لبناء الرأي، وتعديله مع المتغيرات السريعة.

ولقد كانت النقلة واسعة، بين مقعد القاضي الذي أمامه كل الحقائق، والدفاع والإدانة يتحاوران أمامه، ثم ينطق بالحكم ويسجل حيثياته -كانت النقلة واسعة بين هذا المقعد، وبين منصة الخطابة والدعوة، واتخاذ القرار السياسي الذي تفرضه الظروف، لا الذي يستريح إليه ضمير القاضي.

ما أبعد المسافة بين الدعاة والقضاة، ثم بين القضاة والساسة ! ولقد حاول جهده أن يتحول من صف القضاة إلى صف الدعاة، ولكن كيف يستطيع أن يحمل معه فى التحول أساليب الساسة؟ وحتى لو كان على علم بها، فهل يستطيع ـ دينا ـ أن يمارسها؟ وهل يستطيع ـ بحكم السن ـ أن يتمرس بها؟

وكم كان له فى صفحات القدر من أيام عاصفة تحملها بكل جلال الإيمان وشموخه، ثم كان قادرًا على أن يقول ـ فيما يحس ـ كلمة الحق، كما سجل فى كتابه، وكما جاء فى محاكمته..

ولكن..

ما ذنب الإنسان إذا كانت الأحداث أكبر منه، والمؤامرة أكبر منه ومن خصومه؟

عندما جاء الأستاذ الهضيبي، جاء ليكون أبًا وأخًا أكبر، يصدر حكمه فى قضايا الإخوان الكبرى، ومن أجل ذلك رغب فى أن يكون إلى جواره الأستاذ عبد القادر عودة، بدينه وعلمه وقوته وتفرغه للعمل..

ومن وقت أن جاء عبد القادر، دب الصراع بينه وبين القوى القديمة. ولقد جاءنا عبد القادر بعد أيام.. وأحسست فيه بوادر العذاب المقبل.

لقد أخذوا الرجل وآذوه، ولازلت أذكر آثار التعذيب وهو يتحسس وجهه وجسمه، ويطمئن على أسنانه، هل هي فى مواضعها أم أن الأذى آتى عليها؟!

كان صابرًا، ويبتسم فى ألم، ويتصبر دون أن يذكر تفاصيل ما كان، حركته وما يشوبها من ألم، القيام أو الجلوس أو الوضوء، طوال صمته، وحضوره الغائب عنا.

كانت فرصة انفردوا فيها بالرجل، وظنوا أنه يغزل على غزلين، الثورة والإخوان، وفى اندفاعه أروه يدهم الباطشة.. اليد التي ارتفعت بعد هذا سنين عددًا، ما خفضتها إلا الهزيمة ثم الموت.

وكان معنا الأستاذ سيد قطب، أمضى وقته فى المستشفى، وكان فى مطالع كتابته " فى ظلال القرآن "، الذي بدأ نشره فى مجلة " المسلمون "، التي كان يصدرها الأستاذ سعيد رمضان، ثم استقل الأستاذ سيد بجهده العلمي.

كنت أراه أحيانًا حين تتاح لي فرصة الخروج من المعتقل إلى المستشفى، وكان أحيانًا يأتي لزيارتنا حين تسنح له فرصة. نهاره كله فى القراءة والكتابة.

أذكره وتفسير ابن كثير غير بعيد من يده، وقلمه الحبر الأسود فى يده، وأوراق يكتب فيها بخط واضح، وسطور منتظمة، وتخرج من يده فى طريقها بعد هذا إلى المطبعة.

وكانت هذه أول تجربة لسيد قطب فى اعتقاله مع الإخوان. والاعتقال حياة كاملة، أقرب ما يكون شبهًا بكشف الأشعة السينية على الإنسان، وكثير من بواطننا تبدو فى الاعتقال على ظواهرنا.

ولا شك فى أن سيد قطب صدم فى كثير مما رأى، وفى بعض من رأى، وبخاصة فى المستويات الإدارية العليا للإخوان. ورأى الرجل فى بعضهم ضحالة فى الفكر، واضطرابًا ولينًا فى الدين، كان صدمة له. ولم يكن يخفي ذلك عندما تلاقينا.

واستوقفني من سيد قوله: وليس من المعقول أن نتركهم يقبضون علينا بهذه السهولة مرة أخرى.

ولم أعقب، فلقد كنت بحكم المعاناة الطويلة، أعلم أن النهاية واحدة إذا أرادوا القبض، وليس وراء المقاومة إلا المزيد من الضحايا والدماء.. وماذا تستطيع قوة محدودة من الشباب، أن تقاوم حُكمًا كاملاً بكل أجهزته، إلا أن تكون جزءًا منه كما فعل الجيش.

وفى مصر بالذات تقوم الحكومة وأجهزتها منذ أقدم العصور بدور خطير، وتحول الجهد الشعبي إلى نظام حاكم، قضية ينبغي أن نراها فى منظورها التاريخي وتجاربها المريرة السابقة، قبل أن يقوم عليها جيل من الشباب لا يكون وراءه غير السجون والمنافي..

وسأعرض لأساليب العمل فيما بعد..

ولكني هنا أود أن أعرض للخطوط الفكرية التي كانت تتفاعل داخل الاعتقال الصغير:

جانب آخر من قيادات الإخوان غاب عن هذا الاعتقال، وهم الذين كانوا على صلة برجال الثورة، يضافون إلى قيادات من النظام الخاص.

ولك أن تقول - بحق - إن الاعتقال الصغير كان أخدودًا يمر فى أرض الإخوان، ويقسمها إلى شريحتين على الأقل: شريحة تعاونت مع الثورة، وهي قطاعان: أحدهما عام والآخر من النظام الخاص. وشريحة أخرى تمثل الجسم الكبير أو الأغلبية الصامتة، مع القيادة المنظورة والشرعية للإخوان، وتحاول أن تحافظ على ذاتها، بينما ترى أطرافها تتآكل أمامها، أطراف يمثلون قطاعًا طوليًا، يمتد من القيادة -وهو الأبرز- ثم يسري متجهًا إلى القاعدة، وهذه هي وقود كل اعتقال، يتحملونه بالصبر، ويحاسبون على ما لا يعرفون، ويحصدون ما لم يزرعوا. وتتجلى فيهم - أمام الله والناس - صور كريمة من الإيمان العميق، يقابلون به قدر الله، دون محاولات عميقة لتحليل العوامل التي صنعته من كسب البشر.

أحمد حسين

وكانت هذه هي الفرصة الأولى التي ألتقي فيها لقاءات طويلة مع الأستاذ أحمد حسين، كنا نذكر ماضيه الطويل فى الكفاح، من "مشروع القرش" الذي قام به، واستطاع أن ينشئ مصنع الطرابيش الوطني، وأن يأخذ خطوة نحو تحرير الصناعة المصرية، وأن يجمع الشباب على هدف. وأنشأ "مصر الفتاة" بقميصها الأخضر، ومبادئها المصرية القومية.. ولم يكن من اليسير فصل التفكير فى مصر الفتاة عن الأسلوب الذي اتخذه هتلر وموسولينى فى إحياء القومية الألمانية والإيطالية، ولا ما حاول الوفد اتخاذه عندما لجأ إلى القمصان الزرقاء.

كانت "المصرية" عنده غالبة وقتئذ، وشعاره "مصر فوق الجميع".

وكنا ونحن طلاب نقرأ مجلة "الصرخة" التي يصدرها، وتعرفنا فيها على كُتّاب صاحبتنا أسماء بعضهم فترة طويلة من حياتنا، مثل: د. مصطفي الوكيل،

وفتحي رضوان، وعبد الحميد المشهدي، ومحمد صبيح، وعبد الحميد الديب الشاعر البائس المعروف.

واستمعت إلى أحمد حسين لأول مرة، عندما أقام حفلاً سياسيًا فى الإسكندرية، بعد رحلة له فى أوروبا، وكان فى هذا متأثرًا بأسلوب مصطفى كامل ومحمد فريد. وتكلم فيه ـ فيما أذكر ـ فتحي رضوان وعبد الحميد المشهدي.

ومرت أيام، واتجه أحمد حسين إلى الفكر الاشتراكي، ودخلته لمحات إسلامية، وهاجم السراي بعنف وضراوة.. ولازالت مقالته "رعاياك يا مولاي" عن بؤس الريف والحياة فيه، من معالم الفترة السابقة للثورة، متواكبة مع ما كتب طه حسين " المعذبون فى الأرض" و "دعاء الكروان "، وما اتجهت إليه الطليعة الجديدة من شباب الوفد وقتئذ، مثل: د. عزيز فهمي ومحمد مندور.. وما اتجه إليه قطاع من كتاب الإخوان بعد الحرب العالمية الثانية وفى أثنائها.. وأذكر مقالات لي فى مجلة الإخوان بعنوان: "دم وعرق فى خزائن الأغنياء " و " الباحثون عن الذهب يأكلون التراب " و " لماذا كفروا وكيف يؤمنون "؟ أكدت فيها على الجانب الاقتصادي فى الإسلام، ووجوب رعاية المحرومين والمحتاجين فى المجتمع.. هذا إلى ما كان للفكر اليساري –على اختلاف مدارسه ومنطلقاته- من جهود أصبح بها وجه الحياة المصرية فى فورة دائمة، تستمد من الواقع المرير ومن لهب الأقلام قوة دافعة ومتدفقة..

ولا شك فى أن صوت أحمد حسين قبيل الثورة كان من الأصوات العالية القوية، وإن كان الصف الذي معه قد قسمته التطورات الفكرية، فأسس فتحي رضوان الحزب الوطني الجديد، يجدد به شباب الحزب الوطني القديم، ويحمل المشعل الذي حمله من قبله مصطفى كامل ومحمد فريد، وسار معه على نفس الدرب، وتحت نفس اللواء د. نور الدين طراف..

أحمد حسين جزء حي من التاريخ المصري الحديث، فتعد مشاركته فى صياغته، وتطويره لفكره، واستجابته المتجددة للأحداث، حتى قيام الثورة، وفى مطالعها - سمات بارزة فى حياتنا السياسية..

وجاء الرجل لينزل محبسًا فى معتقل ٤ الذي كنا فيه..

ولقيته وهو يغسل ملابسه فى الضحى، وكان يأبى أن يشاركه أو يعاونه أحد، وألقيت عليه تحية الصباح، ورد فى بشر وهدوء، وتجاذبنا أطراف الحديث، ثم امتدت يدي فى هدوء لتعاونه فى غسل ملابسه فأبى، فقلت له: سأحضر بعد قليل ملابسي، وسنتعاون معًا، ونتحدث..

لم يسألني عن اسمي، ولم أقل له شيئًا، وإنما استراح كل منا إلى صاحبه. ومضي وقت، وأحضرت أنا من ملابسي شيئًا قليلاً - يكاد يكون رمزيًا - وبدأت فى غسله، وهو معي، وأمضينا وقتًا طيبًا معًا..

وبعد الغداء، جاء لي الصديق مصطفى البساطي، وكان على صلة قوية بالأستاذ أحمد حسين، وهو يضحك قائلاً: تصور الأستاذ أحمد حسين قال لي إنه يرغب فى التعرف عليك، فقلت له: هو الذي كان يغسل معك الملابس فى الصباح.. فتعجب وقال: لم أسأله عن اسمه، وهو يعرفني، ويعرف الكثير عن تاريخي ومقالاتي وكتبي، من أجل ذلك استحييت أن أسأله عن اسمه، ولكني أحسست براحة معه، حتى إنني تركته يعاونني فى غسل ثيابي، وهذا ما لم أدع أحدًا يعاونني فيه..

وعند العصر تلاقينا مرة أخرى، ذهبت إليه فى حجرته، أو محبسه، فاستقبلني مُرحبًا مُحتفلاً:

أهلا بالأستاذ الكبير.

فقلت له: أستاذ أحمد، فليكن تعاملنا بما كان من بساطة الصباح، إخاءً سهلاً سمحًا، من صديق يحمل لك الاحترام والمحبة والتقدير.. هذا ما أرجوك فيه، ومنك القبول- إن شاء اللّه..

وفتح الرجل قلبه، وتحدث، وأطلت الجلوس والاستماع إليه. وأعتقد أن الكثير مما قال - وما أكثر ما قال - مما ينبغي أن يكون بين شبابنا، ثمرة تجارب، وعصارة قراءات وآراء، ونجد أحيانًا فيها الإشراق والأمل، وأحيانًا فيها حرقة الإحساس بنكران الجميل والعقوق، عقوق الأفراد وعقوق المجتمع..

وقديمًا سألوا أحد رجال القلوب:

ما أشد البلاء؟

فقال: الحرمان بعد العطاء.

ولقد أعطى المجتمع المصري ـ فى بعض فتراته ـ تكريمًا كبيرًا لما يكتبه أحمد حسين، واستمع إليه الآلاف والآلاف، ورأى الرجل شمس مجده فى ضحاها وفى علاها، وحاول أن يمسكها فى أوجها، ولكن الفلك الدوار، لا يتوقف عند أحد ودخلت الميدان قوى جديدة شابة وعنيفة، كما حاصرت الرجل فى مسيرته زوابع وصيحات، وزاحمته مناكب، فكان عليه أن يلتمس جانب الطريق، ففي وسطه تيار لا يرحم.

لقيت أحمد حسين فى هذه الفترة التي اضطرته فيها الأحداث إلى التزام جانب الطريق..

كان يصمت أحيانًا ويطيل الصمت، وينظر إلى جوانب المحبس... ويقول:

هذا مكاني فى مصر، أحمد حسين فى السجن الحربي، فى زنزانة، أتدري ماذا فعلوا بي؟ أعددت حقيبتي، وأخذت بعض الكتب معي، وذهبنا إلى البوليس الحربي، ونظر الضابط فى الحقيبة، وتوقف عند الكتب، وكانت منها قصة إنجليزية، وقال: تقرأ روايات إنجليزية؟ كتب حب؟ مراهق حضرتك؟ وعامل زعيم؟ وكأن الروايات الإنجليزية عنده كلها كتب حب مشتراة من سور حديقة الأزبكية!!

ويتابع أحمد حسين قوله: وإذا كان هذا أول الحديث، فتستطيع أن تدرك أخره، ولكن الأمر تحول من القول، من حجز الرواية إذا أراد، من محاولة فهم موضوعها كأثر أدبي عالمي... إلى التحدي السافر، الذي عبر عن طيشه بلكمات انهالت على فى وحشية لم أجد ما يبررها..

قال هذا، وتحسس فكه وآثار الورم لازالت بادية فيه.. وكيف شارك الابن مع الضابط فى العدوان بأمر منه.. وكنا معًا فى الحجرة وحدنا، وكشف الرجل عن كتفه وجزء من ظهره وآثار العصا حمراء فيها زرقة.

ثم قال: لا أريد أن أستشهد بك، ولا أن أسبب لك أي حرج، فقط احذروا، هذا هو الأسلوب من أول الأمر: التفاهم بالأيدي وبالعصي قبل الفكر..

أنت هنا لا تدري متى تخرج؟ ولا تدري لماذا جئت؟ ومهما يكن من أمر، فالقانون حماية للناس، وهنا: لا قانون.

وسأحاول فى هدوء أن أخرج من هذا المكان، ولو إلى معتقل آخر، لكيلا أسبب لكم حرجًا.

قلت: كيف؟

قال: سترى، فكل نوع من السجون والمعتقلات له أسلوب فى التعامل، وكل هذا يقوم على أساس علمي ينبغي أن يدرس بعناية. وللأسف الشديد ينقص الإخوان كثير من العلم، العلم بمشكلات السياسة وأساليبها، والعلم بأساليب الحياة فى السجون والمعتقلات.

إن الحركات الوطنية وحركات المقاومة التى سبقت على الطريق كتبت فى هذا، وينبغي أن يقرأ الإخوان. ويقرأوا كثيرًا.

وأنا أعلم أنك لا تضيق بهذا القول، وأنت تعاني منه، وأن هناك قضايا كثيرة اختلفت فيها مع إخوانك، وكان لك منها رأي وموقف..

فقلت له: هل تستطيع أن تعطي نموذجًا؟

قال: النموذج نعيش فيه الآن، إخوانك يريدون الإضراب عن الطعام، وأعلم أنك غير موافق على ذلك.. الرأي الغالب مع الإضراب، كنوع من إثبات الذات، والاحتجاج على التواجد فى السجن الحربي.. فماذا فعلوا؟ حاول الكثيرون منهم تناول أكبر قدر من الطعام قبل الصيام، واختزنوا ما استطاعوا، وأعلنوا ذلك. وبدءوا، وتدخل بعض قادتهم لمنع ذلك، وحدث تفاهم، ومذكرة، ودراسة، وانتظار، وأنهي الإضراب بعد فترة قصيرة.. ما هذا؟

ثم تابع حديثه: الإضراب له أصول، أنت حين تضرب ينبغي أن تتناول أول الأمر مادة ملينة؛ حتى تفرغ بطنك تمامًا مما فيها، ذلك لأن الطعام يطرد الطعام،

أما إذا ملأت بطنك، وبقيت بعد ذلك صائمًا، فقد يتخمر الطعام فى بطنك، ويصعب على جسمك إخراجه، ويسبب لك أذى.

وحين تضرب عليك بعد هذا أن تستحم جيدًا، وأن تنظف نفسك، وتلبس ملابس نظيفة، وأن تنام على مرتبة على الأرض، وإلى جوارك كوب ماء وبعض قطع السكر، ووعاء للبول. كل هذا لتدخر كل جزء من طاقتك، حتى تستطيع الاستمرار أطول مدة ممكنة، فإذا جاء الطعام فاحتفظ به كاملاً دون أن تتناوله ودون أن ترده.. والذي يحدث أن الجندي سيضطر إلى تركه وإخطار المسئول عنه، وهذا يرفع الأمر إلى من هو أعلى منه، حتى تصل إلى المسئول الذي بيده هذا الأمر..

فإذا كان الحسم الكامل من المسئول المحلي، استطعت أن تعرف مقدار السلطة المتاحة له، أما إذا رفع المسئولية إلى مستوى أعلى، وحاول التخلص منك ومن مأزقك، فسيأتي مسئول أكبر، وقد يأتي طبيب.. وفى الغالب، إذا ما كانت الظروف قريبة من الطبيعية، ستنقل إلى مكان آخر، خوفًا من سريان عدوى الإضراب إلى غيرك.. ولا تدخل فى مناقشة مع أحد، ولا تعط أحدًا فرصة ليأخذ عليك شيئًا، الصوم عن الأكل، والصوم عن الكلام.. وستنخفض حرارتك أولاً، وهذه مرحلة أولى، ثم ترتفع، وهذه مرحلة ثانية، وتأتي بعدها المرحلة الخطرة، وهى الانخفاض والهبوط المستمران.

وانتظر أحمد حسين أيامًا، حتى هدأ الجو حوله، وبدأ إضرابه الهادئ، كما رسم، ادخر قطعًا من السكر، وسارت الأمور كأنما يقرؤها من لوح الغيب، وما مضت غير أيام قلائل، حتى كانت مستويات القيادة تأتي لتنظر إليه، وتخرج ليأتي مستوى أعلى.. ثم قال القائد: لتأخذوه من عندنا إلى أي مكان آخر..

وقد كان..

فى هذه الفترة التي صحبته فيها تكلم عن بعض أساليب الشعب المصري فى معاملة حكامه:

هناك شعوب تقاوم الحاكم إذا ظلم بالهجوم الدائم عليه، حتى يعتدل أو يعتزل أو يعزل، وهذا يتم عندنا على مستوى الوزارات فقط، أما المستوى الأعلى من هذا، وهو مستوى النظام الملكي وما سبقه من الولاة، فإن نفرًا من أبناء الشعب

يلتفون حول الحاكم، ويحاولون ما استطاعوا أن يربحوا من ورائه، فيمدحونه ويتملقونه.. كما قالوا عن فاروق إنه العامل الأول، وإنه المحسن المجهول، كما كان محمد على الزارع الوحيد، والصانع الوحيد، والتاجر الوحيد !! كانوا يرفعون فاروق إلى أعلى.. وإلى أعلى.. ويكسبون من ذلك.. ويظن هو أن حجمه أصبح كبيرًا.. وقديمًا وصلوا بفرعون إلى مرتبة قال فيها: " أنا ربكم الأعلى "، ووجد من يسجد له، ويقدم القرابين.. فإذا ما زاد ارتفاعه، وانفجر كأي بالون، جروا بعيدًا عنه بما غنموا، وتركوه لمصيره.. إنهم ينتقمون منه بالمدح والملق، ويقتلونه بما يلقون عليه من ورد، ويقيدونه بما ينظمون له من قصائد. كل هذه أغلال، وأسلحة فتك.. وهى أسلحة استخدمها المصريون من قديم.

حاول أن تجمع بين ما قيل فى حاكم ظالم قبل موته وبعده، تجد قصة تتكرر عبر التاريخ، إذا عجزوا عن مقاومته، رفعوه، ثم تركوه يسقط حطامًا من أعلي الجبل.. بل ارجع إلى الأمثال فى تراثنا الشعبي عن مقاومة الظلم، تجد فيها خط المقاومة القصيرة إن كانت ناجحة، وخط المقاومة عن طريق المدح والملق والرفع المستمر، ثم تركه يسقط من ذروة غروره، ولكن للأسف؛ الشعب هو الذي يدفع الثمن الغالي، والقلة المنتفعة أصبحوا كجرذان السفينة: يعيشون، ويأكلون أخشابها، ويتركونها إذا آذنت بغرق.

سيفعلون هذا مع عبد الناصر، وستتكرر القصة، وهم ـ أي رجال الثورة ـ شباب فى أوائل طموحهم، تعودوا على إعطاء الأوامر وتلقي الأوامر، وتنظيم الحياة العامة فى خطوط وتشكيلات. وستقاسي أمتنا كثيرًا من الطوابير فى مرافق حياتها.

وكان يكتب مذكراته على شكل قصة بطلها "عصام"، كأنما يحاول أن يمد نظره عبر التاريخ المصري كله، ويعيد تقطيره وتكثيفه فى هذه الأوراق بين يديه، وأعطاني بعضها لأقرأ، ولازلت أذكر خطه الواضح الذي تعود تقديمه إلى المطبعة..

وفى الوقت الذي كان فيه سيد قطب يعكف على كتابه العملاق " فى ظلال القرآن " فى رحلته التي استمرت عشرة أعوام، كان أحمد حسين يعكف على كتابة التاريخ المصري من ذاكرته.

خطان كانا يعيشان معًا: خط يبدأ من السماء، وخط يبدأ من الأرض، والله خلق السماوات والأرض.

ولقد استطاع سيد قطب أن يكمل كتابه بين السجن الحربي وبيته فى حلوان وإقامته الطويلة فى مستشفي سجن طره، وتابع أحمد حسين ما بدأه عندما عاد إلى بيته وإلى عزلته الطويلة عن الحياة العامة..

كلاهما كان ينظر إلى المستقبل، أحدهما فى قلب العاصفة، والثاني على أطرافها ـ بعد أن خاض غمارها ـ أحدهما كان منطلقه دورة عنيفة فى تاريخ الحركة الإسلامية، والثاني كان يجمع أوراقه ليضعها أمانة فى يد جيل جديد ...

وأعود إلى أحمد حسين وهو يذكر زملاءه الذين يعتب عليهم، هم الآن فى الحكم والسلطان وهو فى محبسه، ماذا صنعوا لى؟ أين حق الوفاء؟ ولكن هل السلطان فى أيدي "كل" من فى السلطان؟

كان هؤلاء المدنيون يأتون إلى السلطة لاستكمال نقص علمي أو فني تحتاج إليه أداة الحكم، ولكن أهل الثقة أولاً، وهم صانعو الثورة، ثم أهل الخبرة ثانيًا، وكم عانت مصر من قضية الثقة والخبرة.

وما أعمق ما أفتى به الإمام أحمد بن تيمية ـ قدس الله روحه ـ عندما سألوه عن قائدين: أحدهما ماهر بالقيادة على خُلُق غير حسن، والآخر غير ماهر بالقيادة وعلى خلق طيب، فأجاب الرجل بعمق النظرة: خذوا الماهر بالقيادة، فلكم مهارته وعليه سوء خُلُقه، ودعوا غير الماهر بالقيادة، فعليكم ضعفه وله تقواه..

ماذا تفيد الثقة إذا كان صاحبها لا يعلم، وإلا كان الأولى بكل أب أن يجري الجراحة لولده بدلاً من الطبيب !

وماذا حدث للدكتور السنهوري بعد رحلته الطويلة مع الثورة؟ ضرب فى مكتبه فى قلب مجلس الدولة؟ وماذا حدث لسليمان حافظ رغم كل ما عمل وما أفتى به؟ ظل فى بيته محدد الإقامة فترة طويلة إلى أن لقي ربه..

بل ماذا فعلت الثورة بأبنائها المقربين؟ لقد دارت عليهم واحدًا واحدًا، وكأنها تتغذى بدم من فصيلة "الثورة"، وتحتاج من حين إلى حين إلى قرابين من أبنائها، وما نجا منهم إلا القليل.

أصبحت القاهرة ضيقة أمام عيني.

كنت أنظر إلى والدتي نظرة مودع، أحاول أن أملأ عيني وقلبي وكل حواسي بها، فى أي لحظة سأترك هذا البيت، وأترك أمي وإخوتي إلى المجهول.

وتدور عيني بين كتبي الحبيبة، والمكتب الذي أجلس إليه ساعات وساعات، وأنظر من نافذتي إلى النيل، ويبدو منه جزء يسير..

ثم أنزل بعد الغروب أسير على شاطئه، وأتأمل ماءه فى جريانه القديم المتجدد.. رحلة طويلة تقوم بها كل قطرة من ماء النهر، من منابعه العليا فى هضبة البحيرات وإثيوبيا، حتى يلقى النهر ماءه فى البحر المتوسط.. وهناك يمرج الله البحرين، هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج.. وبعد هذا تأتي رحلة سماوية للمياه، تذهب فيها كل قطرة إلى طريق..

هل تعود قطرة النيل إلى النيل، وتعود كل نفس إلى بيتها؟

وإذا كان هذا النهر يفيض علينا بالخير، فهناك نهر من الشر يتجمع، إنه نهر الاعتقال.. قطراته من هذه القلوب الطاهرة، شواطئه من حراس غلاظ شداد، روافده من كل قرى مصر ومدنها، وتجمعهم الأيدي والقيود، وتدفعهم القطارات والسيارات إلى السجن الكبير..

ويطول نظري إلى النيل، وأحس أمواجه تجري مسرعة، كأنما تختصر السنين.. عشر.. عشرون.. ثلاثون.. ستمر السنوات ستمر.. والمسجون والسجان، والقاتل والمقتول، والضارب والمضروب ستطويهم الأرض، وفى أماكن معروفة أو مجهولة.

وتمر صفحة دامية، تجف دماؤها لتأتي من بعدها صفحات وصفحات.. وبعد، سيعرضون على رب الأرباب، لا تخفى منهم خافية **"ونضع الموازين القسط ليوم**

القيامة فلا تظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين" (الأنبياء: ٤٧).

وراء الحياة حياة.. وراء الحساب حساب.. "لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد" (ق: ٢٢).

ويجري النيل ويجري..

وتقودني خطاي أحيانًا إلى الهرم، وأستعيد هنا ذكرى الآلاف المؤلفة التى بنت الهرم الأكبر، وأسائل نفسي: أين خوفو؟.. أين أنت يا صاحب الهرم.. وهذه حجرتك الحصينة، كأشد ما تكون الحجرات حصانة ومنعة، وقد أصبحت خالية من صاحبها؟ وهل كان دفنك هنا أم مكانًا آخر؟ آلاف من السنين مرت ولازال سرك محجوبًا، وأمرك مثار جدل..

وهذا أمرنا متى يفصل فيه التاريخ؟ وما التاريخ؟ لقد رأيناه كألوان الطيف، بل إن لألوان الطيف نظامها واستقرارها، هل نقول إنه تاريخ زئبقي؟ إن للزئبق كثافته المحددة وصفاته المعروفة..

وهل استطاع تاريخ الإسلام أن يفصل فى بعض قضاياه الكبرى، فيلتقي عليها المسلمون جميعًا؟ إذن ما هذه الفِرق، وهذه الدماء؟

وكنت أنظر إلى مآذن القاهرة الكبرى: مسجد محمد على فى القلعة، السلطان حسن، الرفاعي، الأزهر، الحسين، السيدة زينب، قايتباي..

هذه الجوامع الموحدة المتجهة إلى السماء، وهذه القباب، وما تحتها من أرض طاهرة طالما عمرناها ركوعًا وسجودًا، وهذه المنابر التي ارتفع من فوقها صوت الإيمان هاديًا. ستظل المساجد، ويظل الركع السجود، وستلد مصر بعدنا جيلاً على الإيمان.. فهذا نهر آخر يفيض بالطهر، ونافورات من الخير تنبعث منها الحياة طاهرة متدفقة..

قد نسمع الشتيمة توجه إلينا من فوق المنابر، ألم يحدث هذا مع أهل بيت النبي عليه الصلاة والسلام؟

وهذا رأس الحسين فى هجرته من كربلاء إلى الشام، إلى حيث أراد اللّه..

وهذه السيدة الطاهرة زينب تهاجر من مدينة جدها -عليه الصلاة والسلام- وافدة غالية إلى مصر، ويخرج أهل الفسطاط، يستقبلون حفيدة الرسول الأعظم السيدة زينب ـ رضى الله عنها ـ بعد أن رأت مصارع أهل بيت النبوة.

ليست الدماء جديدة على الإسلام، ولا الضحايا والشهداء.. لم تعصمهم من قبل قرابة من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ولا من بعده عمل صالح قاموا به: **"وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد"** (البروج: ٨).

ويجري النيل ويجري..

أذهب فى طريقي صباحًا من منزلي فى إمبابة، وأعبر كوبري الزمالك، وأنحرف يمينًا مع النهر حتى يلتقي بشارع شجرة الدر حيث معهد الدراسات الإفريقية، وأقضي بعض الوقت مع أوراقي.

الزملاء ينظرون إلى فى صمت طويل، العاملون فى المعهد تحس فى عيونهم الحب والحزن..

وألقى الصديق الدكتور حسن عثمان ـ رحمه الله ـ عميد المعهد فيقول: كان ولا يزال عندي أن تخرج من مصر.. لقد عرضت عليك السعودية أن تذهب إليها، ووافقت مصر فى الصيف على ذلك، وهذه فرصة لا تعوض. وكان من رأيك أن تبقى وراجعتك كثيرًا فى هذا، ثم قلت لك قبل أن أرد على الخطاب برفضك: سأغسل يدي من دمك كما غسل بيلاطس يده من دم المسيح!!

ثم ابتسم وأعاد تمثيل غسل يده وقال: وها أنت ترى تطور الأحداث.

وأمر فى غرف المعهد، وانظر من نافذة مجاورة لمكتبي إلى النيل.

وجاءت الليلة..

ودق الجرس طويلاً، قبيل الفجر واستيقظت وفتحت الباب لأرى ضابط المباحث ومعه الحرس والسلاح..

تفضلوا..

ودخل الضابط، وقلت له: هنا حجرة الجلوس، هنا حجرة المكتب، حجرة نومي، الوالدة.

فقال: المكتب.

ومرت يده مسرعة بين الكتب، وفتح أدراج المكتب فى هدوء ومع تقليب بسيط فيه، وأنرت له حجرة النوم فنظر فيها، ثم قال: مطلوب.

فقلت: أعد الحقيبة.

فوافق، وأعددت الحقيبة فى سرعة، ودموع الوالدة تسيل على خديها فى صمت، وتنظر إلي في حب وفزع..

ما طول الغياب هذه المرة؟ الله أعلم، المرة السابقة ثلاثة شهور، والتى قبلها أحد عشر شهرًا.. وهذه؟!

لماذا تركوني هذه الأيام القلائل، ثم عادوا فقبضوا علي؟

وقبلت والدتي، وحييت الخادمة، وأوصيتها بأمي خيرًا.. وأخذت طريقي فى صمت الليل إلى قسم الجيزة ثاني.

وقال لى الضابط ونحن فى الطريق: لقد تم القبض على إبراهيم الطيب، ويوسف طلعت، وزعماء الجهاز السري، ولا داعي لوجودك فى الخارج، نصيحة يا أستاذ عبد العزيز، ستذهب إلى السجن الحربي، والمعاملة هناك هذه المرة من نوع جديد. لا تحاول أن تكتم شيئًا تعرفه، سيصلون إلى المعلومات بكل طريقة.. سيستخدمون كل وسيلة.. لا "تبهدل" نفسك معهم بدون فائدة.. سيصلون إلى ما يريدون.

وكنا قد أدركنا قسم البوليس القريب..

ونظر إليه ضابط النوبة، وأمر بإدخالي حجرة الجنود فى مواجهة باب القسم، وألقيت عليهم السلام، وعرضوا على قضاء بقية الليل على الصناديق الخاصة بهم، ويتكون منها مكان يصلح للجلوس والرقاد.. ومضى بعض الوقت هادئًا، وجاء الفجر فاستأذنت لأداء الصلاة.

وذهبت فى هدوء إلى دورة المياه، وجددت الوضوء، وعرضوا على مشكورين أن أشرب معهم شاي الصباح.

وأشرقت شمس يوم جديد..

وجاء ضابط من المباحث ومعه حرس مسلح وقيد حديدي، ونظر الضابط إليَّ ووضع قيدًا واحدًا فى يدي، والقيد الآخر أمسكه بيده، وخرجنا فى طريقنا إلى السجن الحربي.

وفي الطريق كرر الضابط نفس المعاني التي تكلم فيها صاحبه من قبل عن المعاملة فى السجن الحربي، وأنه قد تم القبض على يوسف طلعت وإبراهيم الطيب وقادة الجهاز السري..

إذن كان الإفراج عني مؤقتًا، وكان تركي فى المنزل مرتبطًا بذلك.. وكان القبض عليهم إيذانًا بالقبض علي.

هل كانت أجهزة الأمن تنتظر من أحدهم أن يحضر إلى منزلي، أو يتصل بي بطريق مباشر أو غير مباشر؟

هذا إذن هو مستوى القبض ومستوى التحقيق.

وأحسست باضطراب فى النبض يعاودني وإسراع فيه.. قصة قديمة عندي خِلقية، تبدو فى فترات ضعف صحتي، ويقل ظهورها عندما تتحسن.. وقد تأتي فى أوقات الشدة، وقد تختفي قبلها.. وفوضت الأمر إلى الله، فهو القائم على كل نفس بما كسبت.

والسيارة تخترق القاهرة فى صباح باكر، متجهة من ميدان الجلاء إلى العباسية، وهذه الآلاف المؤلفة من الناس من حولي، لكل منهم شأن يغنيه، تمر عليهم الأفراح والأحزان، كما يطالعونها فى صحائف الاجتماعيات والوفيات، لا يحس بها إلا صاحبها، أو من كان قريبًا منها أو مهتمًا بها.

سيارات الإسعاف لها لون خاص، للحريق أيضًا سيارات لها لون خاص وحرس خاص، ولكن ما بال سيارات إهدار الحريات تجري متخفية، لها لون باقي السيارات، ومن فيها يرتدون نفس الملابس التي يلبسها الناس العاديون.

وتوغلت السيارة فى قلب المنطقة العسكرية حتى جئنا إلى البوابة السوداء.. ووراءها عالم آخر..

استأذن الضابط، ودخلت السيارة، وقفت أمام المكاتب، ودخل الضابط لإتمام إجراءات التسليم.

فى هذه اللحظة، ومن خلف مكتب القائد حمزة البسيوني، برز وجهه أولاً: إنه إبراهيم الطيب، ظهر واختفى فى لمحة واحدة، رأيت رأسه الحليق، وأثر تعذيب ودماء على رأسه، حافي القدمين. كان ظهري إلى المعتقل، ووجهي إلى السور القريب.. وهذه الفجوة يقف فيها إبراهيم والمكاتب على يساري.

وبعد قليل ظهر القائد حمزة البسيونى..

يوم دخول السجن الحربي

نوفمبر ١٩٥٤

خرج من حجرته حاسر الرأس، ثائر الشعر، فى خطوات متثاقلة، وانحناء قليل.

الوجه أبيض ممتلئ، فيه أثر جرح قديم، العيون داكنة متناقضة مع الشعر الرمادي الباهت، أنف مدبب تحته شارب عريض، كأنه من الجنود الألبان الذين صاحبوا محمد على باشا، رقبة غليظة تكاد تختفي مع ذقنه المترهل المزدوج.

استرعى نظري ضيق كتفيه، إذا ما قورن بضخامة أردافه وبطنه، جسم نسائي فيه سمنة ملحوظة، وتكوين ناقص يحاول أن يستره بنظرة مفترسة.

تصورته فى لحظة مخلوقًا يجمع بين الوحشية والذكورة والأنوثة، لا شك فى أنه يعاني هذا النقص والتناقض حين ينظر إلى نفسه فى مرآة حجرته أو مرآة ذاته.

ولقد نجح فى أن يكون وحشًا، ثم تفوق على الوحوش فى حبه للدماء، وفشل فى أن يكون غير ذلك.

وكان الجو مشمسًا، ودار بيننا هذا الحوار؛

اسمك؟

- عبد العزيز كامل.

أين تعمل؟

- جامعة القاهرة، معهد الدراسات الإفريقية.

كم عدد الشهادات العالية التى حصلت عليها؟

- ثلاث.

ودارت عيناه، قليلاً، ثم قال؛ انظر.. الجو جميل.

ونظرت إلى حيث نظر، فوجدت آلة التعذيب؛ العروسة، يربط فيها الفرد بسيور جلدية من يديه ورجليه، وفيها فتحة لرأسه.. هكذا يسمونها فى مصر، كأن السجين يزف إليها فى يوم من أيام العمر قد يتكرر.

ثم تابع حديثه؛ تستطيع أن تخلع الجاكته ... اخلع !!

وخلعتها فى هدوء، ووضعتها على يدي الأخرى..

وعادت عيناه تنظران إلى وجهي فى تحديق وعنف ثم قال؛ ثلاث شهادات عالية!!

وفى لمح البصر ارتفعت يده اليمني، وهوت كالمطرقة على وجهي، وقد ضاقت عيناه فى وحشية، وصدى صوته فيه فحيح الثعبان، وهو يقول؛ هذه لشهادتك العالية الأولى.

وارتفعت يده بلطمة أخرى قائلاً؛ وهذه لشهادتك العالية الثانية.

وعادت يده اليمني لتنهال بضربة مدوية قائلاً؛ وهذه لشهادتك الثالثة.

ماذا بعد؟ الله أعلم ... وتحملت الضربات الثلاث فى هدوء، وحاولت جهدي ألا يبدو أي شيء على وجهي، بينما قطع من السواد تدور أمامي، وأحس وسطها وجهه كأنه يتحرك وحوله شرارات شيطانية.

واندفع قائلاً؛ أنا سأربيكم يا بتوع الجامعة.. سأربيكم كما ربيت توفيق الشاوي..

إذن توفيق الأستاذ بكلية الحقوق قد سبقني على الطريق، واجتاز مراحل من هذه التربية..

ثم نظر إلى جندي قريب، لم أكن أشعر حتى بوجوده فى هذه اللحظة قائلاً؛ خذه إلى السجن الكبير.. بسرعة.. "اجري".

وفى يد الجندي سوط كانت مجرد رؤياه كافية لأن أجري بأقصى ما أستطيع من سرعة نحو السجن الكبير.

وصرخ الجندي قائلاً؛ قل أنا عائشة، قل أنا خديجة، قل أنا فاطمة ...

وما رأيت فيها أسماء نساء، وإنما تذكرت البيت النبوي الشريف، وأشرف الأسماء، وأحبها إلى قلبي..

خديجة أمنا الكبرى، ومن أكون أنا؟ عائشة ومنها يؤخذ نصف الدين، وهي الراوية الكبيرة لحديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والحافظة لسنته، وفاطمة بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وزوج علي وأم الحسن والحسين؟

هكذا تهون الأسماء الشريفة؟

يا سبحان الله..

واندفعت فى الجري، فإذا به يستوقفني، ورأيت بالقرب مني الشاويش ياسين عملاق السجن الحربي..

كان من حسن الحظ أنه كان مشغولاً بالطعام، يأكل.. وكثيرًا ما يأكل، وإلا فكيف كون هذه العمارة البشرية التى لا تقل عن مائة وعشرين كيلوجرامًا؟!

وقال ياسين والطعام فى فمه:

أيه؟ !

- معتقل جديد ...

- خذه إلى السجن الكبير..

وعندما اقتربنا من السجن كان طابور الصباح خارجًا منه، أربعة أربعة، تجري كالخيول، وحولها السياط، حاسرة وحليقة الرءوس، وقيّد الجندي اسمى، واندفع بي صاعدًا إلى الدور الثالث، فوضعني فى زنزانة وأغلق علي الباب.. وأحسست شيئًا من الراحة، على الأقل سأبقى وحيدًا بعض الوقت..

ولم تطل الراحة..

فوجئت بجندي آخر يفتح الزنزانة..

- من أنت؟ ولم تجلس هنا؟ ولماذا لم تخرج فى الطابور؟ قم.. انزل.

- قلت ؛ جاء بي زميلك منذ قليل وأغلق الباب علي.

- قال: وترد علي.. انزل..

- وأخذت حقيبتي والجاكيت ونزلت مسرعًا..

الطابور فى الخارج، وأنا وحدي مع بعض الجند، وتقدم أحدهم وفى يده قطعة من الخشب ليضربني بها قائلاً:

- متأخر عن الطابور..

- قلت: لم أتأخر، زميلك صعد بي وأغلق الباب، وزميل آخر جاء بي هنا، ورفعت يدي أذود عن نفسي الضربة المفاجئة..

ووقعت الواقعة..

ترفع يدك، وترفع صوتك، وترد الكلام.. جديد لا يفهم.. يا شاويش: المعتقل الجديد رفع يده وصوته ورد علينا الكلام.. والتف حولي الزبانية، وصرخ الشاويش: ضعوا فى يده الحديد..

ووجدت الحديد فى يدي فى سرعة، والسياط من حولي، وصدر الأمر: اضرب..

ورأيت السياط ترتفع وتهوي، ولها أزيز ينتهي بفرقعة، وأحسست بعدها الدم ينبع من جسمي.. وتوالت السياط نارية حامية، حتى فقدت من سرعتها الإحساس الدقيق بمكانها.. ودارت الدنيا بي.

وكان كل جهدي فى هذه اللحظة أن أنقذ رأسي وعيني وأذني من ضربة طائشة..

وهداني الله ـ والدنيا تدور من حولي ـ فرأيت حفرة فى الوسط فى قاعها طين وماء، حاولت حين وقعت أن أضع وجهي فيها..

والضرب مستمر مختلط.. وذكرت بلالاً وقوله: أحد..أحد..

ولم أدر هل كنت أرددها بلساني أم أسمعها بأذني.. واختلط ذكر الله بضرب السياط، وأخذ الصوت يخفت وأثر الضرب يبتعد..

هل بعدت أنا؟

هل بعدوا هم؟

أين أنا؟

أحدٌ.. أحد.. أصوات مختلطة بعيدة.. إغماء.

لا أدري كم بقيت كذلك.. لا صوت من حولى.. صوت الطابور بعيد.. واحد.. اثنين، وضربات الأقدام.. ثلاثة ثم رابعة قوية..

واستطعت أن أرفع رأسي قليلاً، وسمعت صوت الجندي آمرًا: قف.

وحاولت، وتحاملت، واستطعت بكل جهدي أن أقف، لم أحاول أن أنظر إلى جسمي.. القميص لزج ملتصقة به الدماء، العرق، الماء، الطين، الألم، النبض المضطرب.

تحركت، واستندت إلى جدار قريب، وحاولت أن أستمر واقفًا.. لم أستطع طويلاً، ووقعت على الأرض ثانية..

وسمعت صوتًا.. اتركوه..

ومضت فترة، واستطعت بعدها الوقوف، مستعينًا بذكر اللّه، ووجدت الطابور قد عاد، والصفوف أمامي.. هؤلاء المئات من المعذبين مروا فيما أمر فيه الآن..

ودارت عيني بين الجنود.. وتركزت على "الصول" أمين، وهو صول الطابور، بجسمه النحيف، وقامته الطويلة، ويده المدربة على استخدام السياط، وحنجرته التى يدير بها طابورًا كاملاً من آلاف فى السجن الحربي، دون أن يستعين بميكروفون..

كان يعرفني من المرة السابقة، وعندما حدث اضطراب فى المعتقل، رأيناه ورآنا، وكان الاضطراب فى فترة لا يستطيع أن يمارس فيها العنف الذي رأيناه منه عند الدخول فى السابق.. ولم يكن بيننا فى المرة السابقة ما يعطيه فرصة تحامل هذه المرة..

واستطعت فى المرة الماضية أن أدرك فى تدرج بعض طباعهم، هؤلاء الجنود لا يحبون أن تحدق فيهم طويلاً، ولا أن تركز عينك فى عيونهم.. يرضي غروره الصغير أنك إذا نظرت إليه تكون البادئ بتحويل نظرك عنه، كأنما هي مبارزة بالعين، ويتصور أنك إذا ما أطلت التحديق فيه، كأنك تحاول أن تحفظ تفاصيل وجهه وصفاته، لتنتقم منه إذا ما سنحت لك فرصة.

نظرت إليه فى سرعة ونظر إلي، ولا شك فى أنه تذكرني، وليس هناك من وسيلة مع حضوره، إلا أن يأمر هو بفك القيد الحديدي، وإنهاء هذه القصة..

وجاء موعد حصر العدد قبل دخول الزنازين، وإعطاء التمام، وكشف الإيراد الجديد..

وأمرني بالاقتراب.

وعندما صرت قريبًا منه قال:

أنت لست جديدًا على السجن الحربي، فلماذا لم تطع الأوامر؟

قلت لنفسي: لا داعي للدخول فى حوار.. من أجل ماذا؟ ومع من؟ وقلت له: للقادم دهشة واضطراب، وإن شاء اللّه أنفذ الأوامر بدقة.

قال: تنفيذ أوامر أي عسكري، والعسكري يأخذ الأوامر مني، وأنا آخذ الأوامر من القائد.. تسمع كلام أي عسكري وتنفذه تمامًا.

قلت: إن شاء الله بدقة.. وأكون شاكرًا لو أمرت بفك القيود. وصمت قليلاً ثم رفع صوته قائلاً: يا عسكري فك الحديد..

وأمرني: قف فى آخر الطابور.

وتحركت الطوابير فى سرعة تنفيذًا للأوامر.. وبعد قليل وجدت نفسي فى زنزانة فى الدور الثالث من السجن الحربي..

وهكذا كانت حفلة الاستقبال..

ويمضى اليوم الأول

ربع قرن مضت بين معاناة هذه المواقف وبين كتابتها..

لا أستطيع أن أنسى هذه الوجوه المؤمنة التى لقيتها عندما أغلق الجندي الباب ورائي، والتفوا حولي فى فيض من الإخاء والمودة، بعد انتهاء مسرحية قصيرة؛

عندما فتح الجندي الباب هبوا وقوفًا: انتباه، وتعظيم سلام..

نظر الجندي إليهم مسرورًا من الضبط والربط والنظام..

ألا يمارس سيادته على هذا الخلق؟ ثم قال؛ استرح.

وتأكد من نظافة الزنزانة.. كله تمام.. وخرج.. والتقت قلوبنا وقد جمعنا الإيمان والصبر..

كثيرة هي الأيام التى مرت علي بعد هذا حلوة ومرة، ولكن هؤلاء المؤمنين الذين لقيتهم أول ما لقيت، كانوا يدًا حانية ونسمة إيمان بعد هذا اللهب المحرق..

عاونوني على أن أبدل ملابسي..

القميص الذي خططه الدم والطين، وما يليه على جسدي، وقد اختلط الدم فيه بالعرق.

سنحاول أن نغسل هذا عند أول فرصة.. تأكد أن الجراح هنا تبرأ بسرعة.

لا نعلم لماذا؟ هذا من فضل الله علينا، لا نمتلك أدوات تطهير، النظافة قليلة، الذهاب إلى دورة المياه عذاب يومي.. ولكن كل هذا يهون، المهم أن تستريح قليلاً استعدادًا لطابور العصر، سنحاول بقدر الإمكان أن تكون بيننا، وإذا اشتد بك الألم، ضغطنا عليك من اليمين والشمال، كي تستند إلينا دون أن تتحرك من مكانك، الله معنا..

وأسمع.. وأسمع.. وكنت عطشان.

وأخرجوا ما عندهم، كوبًا من الماء لسبعة أشخاص.

(عندما كنت أكتب هذه العبارة كتبتها "كوب من السماء" بدلاً من كتابتها "كوب من الماء" وتنبهت إلى أني أكتب بيدي شيئًا وفى ذهني شىء آخر). حقًا لقد كان كوبًا من السماء.. يعادل ماذا؟ الله أعلم.

وأخذ مختار، وكان أكبرنا سنًا، وأقدرنا على التفاهم مع الجندي، وأخفنا روحًا وظلاً، وأكثرنا مرحًا - أخذ فى توزيع الكوب بين السبعة.

ويا سبحان الله.. ما أجمل هذه القطرات القليلة، وما أروع عفة الأنفس، وجمال الرضا، ورأيت كيف تنبت الزهور وسط الصخور.

وجاء الطعام قليلاً، لا مانع المهم أن تسلم جلودنا من السياط، وعيوننا من رؤية الزبانية، أما الجند فكثير منهم كان إذا فرغ إلينا، وأمن الرقيب، بدا منه جانب إنساني، سرعان ما يخفيه أمام رؤسائه، فالرحمة ضعف، والأوامر عندهم الضرب والإهانة، بلا رقيب ولا حسيب.

وأسندت ظهري إلى حائط الزنزانة، ومددت أقدامي قليلاً، فلم أستطع، جروح ظهري تمنعني من إسناده إلى الحائط، وقلت أسند الجانب الأيسر إلى الحائط فاستطعت، إذ كان معظم الضرب من نصيب الجانب الأيمن، وحمدت الله أن الإصابة فى الوجة طفيفة، ولم تكسر عظمًا فى الرأس أو الجسم..

ويرتفع صوت الصول أمين: استعد للطابور.. وبعد قليل: افتح الزنازين..

ويمر الجنود لرفع المشابك الحديدية التى يغلقون بها الزنازين، وقد استعد المعتقلون لطابور العصر.. الملابس كما هي، وليس هناك أكثر من لبس الأحذية.. وإذا استطاع أحد لبس شيء ثقيل تحت ملابسه يحميه من الضرب المفاجئ فلا بأس..

ويرتفع الصوت: خارج الزنازين.. وشك فى الحيط..

وننـدفع خارجين مواجهين الحوائط، لا تسمع صوت النفس..

وتتوالى الأوامر بتجميع الأدوار الثلاثة بالترتيب، مع التنظيم فى أربعة أربعة، كل سرية من مائة، وفى سرعة يتم حصر جميع الموجودين.

يتحرك الطابور إلى الساحة الكبرى فى السجن، وتخرج السجون الأخرى: ثلاثة.. اثنين.. المكاتب..

وتتحرك عيني لأري قوة ضاربة، مكانها الطبيعي على حدودنا، وفوهات بنادقها ومدافعها أولى بها أن توجه نحو العدو الإسرائيلي لا نحونا..

الجنود فى ملابس ميدان، أكياس من الرمال تحميهم، ومدافع سريعة الطلقات مصوبة نحو الطابور الأعزل، إلا من إيمانه بالله، حمزة البسيوني يطلع علينا، وقد ارتدى (جاكت) من الجلد، مغلقاً، حاسر الرأس، ثائر الشعر، متجهم الوجه.. الضباط يمرون على الحراس المسلحين، يتفحصون السلاح، ملاحظة لضابط على جندي، وجهت بعدها ضربة عنيفة للجندي، أتبعها الضابط بقوله:

- إحنا بنلعب.. يدك على سلاحك.

أبراج الحراسة حولنا.

ويدور الطابور مشيًا عاديًا، خطوة سريعة، وحولنا الأسلحة، وبيننا حملة السياط. وعلى جانب ساحة العرض، نفر ممن حطمهم المرض، أشباح لا تعرف كيف تقوم على أرجلها..

ويقف الطابور، وأنظر فأجد الأستاذ المرشد حسن الهضيبي، وإلى جواره من لحق بربه قريبًا شهيدًا.. ومن ينتظر.

من؟ عبد القادر عودة.. محمد فرغلي.. حسين كمال الدين.. كمال خليفة.. وتذكرت وجوهًا أخرى لم تزر السجن الحربي، ولعلها لن تراه.. لقد انشقت أرض الإخوان، واتسعت فيها الأخاديد، كل مجموعة، وأحيانًا كل فرد، وقد صارت لمصير وسبيل..

لقد سبق الأستاذ البنا إلى ربه بعد أن شهد بوادر انفراط العقد، وأكلت الدعوة فى عهده بعض بنيها، وجاء الأستاذ الهضيبي وبرج الإخوان يزداد ميلاً، حتى مادت به الأرض، وأعانت عليه معاول من الداخل والخارج.

هكذا تفرق القادة، بل تفرق مكتب الإرشاد، الحواريون الاثنا عشر أصبحوا أحزابًا وشيعًا.. ولله الأمر من قبل ومن بعد..

وصدرت أوامر القائد في السجن، فإذا بهؤلاء القادة ينتشرون فى المواقع المحددة لهم - ماذا يريد منهم؟

سنرى..

ودار شريط أم كلثوم؛

أجمل أعيادنا المصرية.. بنجاتك يوم المنشية.. ردوا علينا.

وتتحرك أيدي أعضاء المكتب، كأن كلا منهم مايسترو فرقة يضبط الإيقاع، ويحرك مع النغم يديه. وتركزت عيني على الشيخ الجليل، وعلى عبد القادر عودة.. وهذه الجموع التى طالما قطعت الليل تسبيحًا وقرآنًا، تكرر وتنشد الأغنية، وقادتها يضبطون الإيقاع..

وكلما جاء فى الشريط قول أم كلثوم: ردوا علينا ارتفعت الحناجر تكرر البيت الأول من الأغنية.. حتى انتهت.

وسار صمت ثقيل، واقترب الغروب وشيء من البرودة يزحف، وصدر أمر القائد بصرف الطابور وعودته إلى السجون..

ونعود إلى السجن الكبير وقد اشتد بي التعب، وفى أثناء الطابور وبعده كدت فى بعض اللحظات أسقط مغشيًا علي وتعاون زملائي صامتين على حفظي

واقفًا، فالوقوع معناه سياط متلاحقة، تدفعك إلى حرق آخر نقطة من الزيت فى مصباحك. فحاول وحاول - والله معك - ألا تقع فى الطابور أمام القائد.

وعندما عدنا صدر الأمر بعد التقسيم إلى مئات:

- اقعد.. وشك فى الأرض..

- لماذا؟

ذكرت عندها قول الله تعالى؛"ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم، ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحًا إنا موقنون".

موقف لا يكون إلا أمام رب العزة، عدلاً، وللعصاة.

فلماذا التأله بالباطل؟ ولماذا ينازعون الله صفاته؟ ومع الأبرياء.

ويمر الجندي يعد الرءوس بطرف عصاه أو بمقبض سوطه، ولكيلا يخطئ يطرق بعصاه على الرأس لكي يسمع وهو يعد؛ واحد.. اثنين.. ثلاثة.. حتى يصل إلى خمسة وعشرين..

ويا ويلنا لو أخطأ أحدهم، فالعد يبدأ من جديد، ويضرب الجندي بالعصا على رأس المعتقل وفى أول الطابور: واحد.. اثنين.. ثلاثة.. وهو يعد بعينه وعصاه، وأذنه.. ولكي يؤكد لنفسه العد يشتد بالضرب على الرأس.

وعندما يتأكد الصول من العد ويضبطه، يعطي الأمر، بالوقوف، وتتحرك المجاميع وقوفًا أمام الزنازين مواجهة للحوائط.

ولقد أخطأت فى التوجه مرة، فبدلاً من الانحراف يمينًا انحرفت يسارًا ثم توقفت، وعند الأمر بدخول الزنازين جريت بأقصى ما أستطيع من سرعة لأبلغ زنزانتي.

ويمر الجندي بعد هذا ليأخذ تمام الزنزانة: واحد.. اثنين.. إلى سبعة، ويغلقها على من فيها..

ويأتي ما يأتي من طعام العشاء والماء ...

ألم تلاحظ حتى الآن أننا لم نتحدث عن الحمامات؟ أين ومتى؟

إنها لا تتاح إلا مرة واحدة فى الفجر أو منتصف الليل، وهي وحدها رحلة عذاب..

الطريق إلى دورة المياه

السجن الحربي مثل المضخة الماصة الكابسة:

يسحب المعتقلين من مدن مصر وقراها، ويدفعهم بعد هذا إلى سجون ومعتقلات أخرى.

والسجن الكبير هو أكبر "اسطوانات" هذه المضخة..

ويزداد الضغط على من فيه إذا زاد العدد.. والليل هناك محدود الطول، وعدد المعتقلين غير محدود..

ولابد أن ينتهي طابور الذهاب إلى الحمامات، والعودة منها، وتنظيف دورات المياه، وكنس أرض السجن، وتزحيفها لتصبح ناعمة بعد رشها بالماء -لابد أن ينتهي هذا كله - مهما كان العدد- ما بين منتصف الليل وشروق الشمس.

يخصص "الصول" وقتًا محددًا لكل ضلع من أضلاع السجن، وكل دور أربعة أضلاع.. يبدءون فى النزول، ويتوزعون صفوفًا على دورات المياه.. ولابد أن يقضي كل منهم حاجته بأسرع ما يمكن، ليترك المكان لزميله، وأن يتوضأ إذا استطاع بأسرع ما يمكن، لا عذر لمريض، ولا عذر لمن لم يدرك دوره. السياط فى يد الجند. وإذا لم يتيسر فالعصي الغليظة موجودة، وإذا لم تتيسر فأي خشبة أو قطعة من حديد للضرب أو التهديد.. أي شيء من ذلك هو امتداد لوجود العسكري، وإحساس منه بوجوده..

وهو أيضًا، عليه أن ينتهي فى وقت محدد من مهمته.. فوراءه عسكر آخرون يقودون طوابيرهم، والشاويش يراجع الجميع، ويضبط التوقيت.

لا أدري ما يحدث للبطون والأمعاء، والعضلات القابضة والطاردة من اضطراب أو استجابة لهذه المتغيرات.

وعلى كل زنزانة بعد هذا أن تحمل إناءين؛ أحدهما لقضاء الحاجة، والثاني للشرب، والاثنان متشابهان شكلاً ومادة.. وعلى المعتقلين إفراغ ما أخرجته بطونهم، وتنظيف الإناء، ثم ملء الثاني بالماء ليوم طويل..

وينبه الصول المعتقلين بالساعة معطيًا إنذارًا، وبعد قليل ينادي: بسرعة ... أسرع..

فإذا جاء الوقت الذي حدده، أشار إلى جنوده فأمروا الواقفين ـ قضوا حاجتهم أو لم يقضوها ـ بالخروج فورًا، واقتحم الجنود أبواب دورات المياه على من فيها ضربًا بالسياط والعصي، لتفرغ دورة المياه، ليدخلها طابور آخر مستعد..

هذه ـ عادة ـ هي المرة الوحيدة التى يسمح فيها للمعتقلين بالذهاب إلى دورات المياه كل أربع وعشرين ساعة.

وقد يرى القائد إلغاء طابور العصر فى يوم من الأيام، ليعطي الفرصة الخاطفة السريعة لغسل الملابس، أي مجرد إزالة العرق منها، والاستحمام فرصة نادرة. والذهاب إلى دورة المياه عصرًا فى هذا اليوم فضل..

توتر مستمر في الأعصاب والعقول والبطون، كنت أراه في حركة الأعين، وسرعة الالتفات والاستجابة للأوامر، حتى أصبح البعض كالطيور المذعورة.

وإذا ما فرغوا من ذلك جاء دور تنظيف دورات المياه، فإذا كان هناك أي انسداد فيها وجب تسليكه فورًا، ثم تمسح الأرض، ويصرخ الجندي: أريدها مرآة ترى وجهك فيها !!!..

أي مرآة وأي وجه؟ كلمات يحفظها ويقولها !! ثم يصرخ: بسرعة يا مختلس.. يا مختلسين الدولة..

هكذا أفهموهم أننا لصوص نريد أن نسرق الدولة..

كلمات جديدة تضاف إلى قاموس المعاناة المصرية..

رفع جندي خشبة سميكة فى يده، ليضرب بها أحد الواقفين، دون أن يعمل أي مخالفة، فامتدت يد جندي آخر أقدم منه فى عنف وهو يقول:

-أنا واقف إلى جوارك، وهو لم يعمل شيئًا، فلماذا الضرب؟

- فيرد قائلاً: تأديب لئلا يصنع بعد هذا شيئًا.

طفل كبير أعطوه عصا وقالوا له اضرب..

فى حياته كانوا يضربونه بغير ذنب، فلماذا لا يجرب الآن أن يضرب بغير ذنب؟ سلطة أعطيت له، وتمرين على الإيذاء والهبوط، وتسليط جاهل على مظلوم، وزرع بذور الشر والفرقة..

ولكنك كنت لا تعدم وسط الشر نسمة خير..

ثم من هذا الذي يرش الأرض؟ هذا الذي يجر زحافة (البرش بلغة السجن) لتستوي الأرض بعد الرش؟ أطباء.. مهندسون.. أساتذة جامعة. ومن هذا الذي انتهي من تنظيف دورة المياه؟! إنه صائغ.. أي والله صائغ، حياته بين الذهب والجوهر.. وظل أثر الماء والرطوبة فى جسمه بعد خروجه، نعم الحاج منصور الصائغ -شفاه الله..

وقبيل الصباح يستيقظ المارد، الصول أمين، يلقي نظرة على دولته، لقد سمعنا أنهم وعدوه بأن يكون ضابط شرف.. كان جزءًا من الجهاز الحاكم، نظيف الملبس، لابد أن يكون (الأوفرول) الذي يلبسه مكويًا والحذاء نظيفًا، تساعده على ذلك قامة طويلة ونحيفة، ووجه حاد الملامح، يزيده حدة بأن يضم شفتيه فى إصرار، والضرب يعيشه فى استعلاء، وهذه حنجرته التى يدير بها الطابور فى الساحة الكبيرة بلا حاجة إلى مكبر صوت.

نظام بلا أمن، ضبط وربط بالخوف والرعب، تفاهم بلغة السوط والعصا، أرواح بلا ثمن، سجن بلا ذنب..

ويأتي الإفطار، لكل زنزانة قدر ما قد يملأ علبة من لبن نستله سعة ربع لتر، والعدس الأبدي.. ألم يعتمد عليه بناة الأهرام؟ والخبز وله أكثر من فائدة..

لقد تحول لبابه بمرور الوقت وبشيء من المعالجة إلى مسابح صغيرة، وإن كان نوى الزيتون أفضل منه.. وفى الفراغ الطويل تستطيع أن تنظف النواة بدلكها فى الأرض الخشنة، وتحاول ثقبها وضع خيط من طرف البطانية بها، وبهذا فقد صارت عندك الآن مسبحة.

وماذا تستطيع أن تصنع، إلا أن تتناول الجانب الإيجابي من هذا العناء؟؟ ولكن هذا حدث بعد شهور وشهور..

بعد قليل يبدأ طابور الصباح، وتسمع الصوت عاليًا يقول: ثابت، استعد للطابور..

وتدور القصة من جديد ...

بطون قلقة:

ولكن ماذا يحدث إذا ثارت البطون على هذه القواعد، وأصرت على دفع ما فيها فى مواعيد لا تتفق مع نظام السجن الحربي؟

دخلت الزنزانة يومًا من أيام الشدة الأولى، ونظر بعضنا إلى بعض؛ أين عز الدين؟

زميل لنا تخلف، ورؤية المجموعة ـ بعضها لبعض ـ نوع من الاطمئنان، وهو بالذات كان يعاني بالأمس ألمًا مرهقًا من بطنه بالذات.

وغاب قليلاً، ثم جاء كأنما كان فى سباق الماراثون.

ماذا حدث؟

بطني.. انتهى الوقت المخصص لي في دورة المياه، ودفع العسكري الباب ولازلت فى حاجة للبقاء، ولابد أن أخرج خرجت مسرعًا وتسللت إلى دورة المياه المجاورة التي سبق له أن فتشها، لم تكن أمامي إلا المغامرة، مهما تكن نتائجها.. ودخلت، وضعت قدمي على أنبوب الماء، ورفعت نفسي ووارىت الباب، وأتم الجندي التفتيش، وعاد ليجد هذا الباب "الموروب" فشك فيه، ورآني فرفع عصاه ليضربني وأنا أرجوه: خلاص يا حضرة الشاويش، خلاص، أملأ ماء الشرب، وأحسست ألم الضرب من فوقي ومن تحتي، واندفعت خارجًا وقد فرغت.

لحظة ـ كأنها لحظة التنوير فى القصة ـ يتسلل بعدها على السلم الصاعد، ومجموعة تنزل، توقيتات فى سواد الليل، لمحات سريعة تقوده إلى الزنزانة، ومعه ـ إلى ذلك ـ بعض الماء فى "قصرية" نعتمد عليها فى الشرب طول اليوم.

وأصاب الإسهال زميلاً كان قريبًا من دورة المياه، وقد تراخت الشدة نوعًا كان العساكر أحيانًا، إذا أرادوا أي نظافة إضافية، أخرجوا أقرب الإخوان إلى دورة المياه لينظفها.. أقربهم إلى الباب إذا أرادوا حمل شيء أو نقل شيء..

و"الطُلْبَةُ" فى اصطلاحهم، عدد من الأفراد مختارون لأداء أي خدمة من الخدمات. وينشأ عادة شيء من المعرفة بين الساكنين قرب دورة المياه والعساكر المكلفين بنظافتها وحراستها.. أما النظافة فعلى غيرهم، وأما الحراسة فلهم.

وكان لنا صديق على صلة بهم، ويشرف على رش فناء السجن وتزحيفه ونظافته، فقال للشاويش مرة:

- يا شاويش.. زميل لنا بطنه تؤلمه.. مسكين عنده إسهال.. هنا فى الزنزانة القريبة.. لو طلبته لتنظيف الدورة أكون ممنونًا، ثم ابتسم وهو يقول:

- هو مستعد ينظف الدورة، ويدفع ثمن التنظيف.

فقال العسكري: ما الحكاية؟ ينظف ويدفع..

فقال الأخ: عنده إسهال، يخرج لقضاء حاجته وكأنه ينظف، ويدفع كأنهادورة مياه فى الخارج.

فقال العسكري: بكم المرة؟

قال: قرش.

قال العسكري: العشرة ببريزه (البريزه فى اصطلاحنا الدارج عشرة قروش).

ثم تابع قوله:

وأنا لا أحب المغالطة: سأعمل علامة كل مرة على الحائط، وكله بحسابه.

يطرق الباب فأحضر، ثم رفع صوته قليلاً: قم نظف الدورة.. لا تغيب فى الداخل ومعك المكنسة.

وكان العسكري دقيقًا فى الحساب، فأعطى الأخ إنذارًا فى المرة التاسعة بعد أن تأكد من العدد:

- ناقص مرة واحدة.. إذا كانت بطنك تعبانة نبدأ من جديد، ببريزة جديدة.. فاهم.

شيء من الامتياز فى استخدام دورة المياه كان للذين يقومون بنظافتها وللخدمات العامة، ولكنه امتياز ثمنه هذه الخدمات المستمرة، التي كانوا يستطيعون بها ـ أحيانًا ـ نجدة محتاج إلى الخروج، بأن يُضمَّ إليهم فى الخدمة بعض الوقت.

وأحيانًا، تقلق البطون فى جوف الليل، ومع اضطراب مواعيد الخروج، ونوع الطعام الذي نتناوله، وكان علينا أن نتحمل فى هدوء تغير هواء الحجرة.

قد تكون ساهرًا فى عبادتك وتسبيحك، متوجهًا إلى ربك تسأله العون على ما أنت فيه، تعد نفسك بمزيد من الإيمان لهذا السيل الدافق من العذاب، وإلى جوارك تسمع صوت الألم:

- لا أستطيع أن أتحمل، بطني.. بطني..

ويقف أحد الحاضرين يجعل من غطائه ستارًا، ويفرغ المحتاج ما فى بطنه، متحملاً هو ومن معه ألم الموقف عضويًا ومعنويًا ونفسيًا، كلهم لذلك مُعرّضون.. ولكن كيف ينظف نفسه؟ ما أغلى الماء؟ كيف يوزع هذا القليل على هؤلاء وعلى احتياجاتهم؟

ويسترون الأذى بأي شيء، وكلمات الاعتذار تنهال من فم المريض، وكلمة لا عليك.. يسمعها من الآخرين، فكلهم لذلك هدف.. ويتوقف الهواء الفاسد فى جو الحجرة كأنه سحابة غير مرئية بطيئة الحركة.. بطيئة ثقيلة.. ويتسامى إحساسك.

-كل هذا كان يتحمله أخي في بطنه؟!! الحمد لله الذي أذهب عنه الأذى وعافاه، أما نحن-أنا وهو وكل المعذبين- فزادنا الصبر، حتى يفتح الله بيننا وبين قومنا بالحق، وهو خير الفاتحين.

(الليل والسوط والدم)

حتى الآن، وبعد عشرات السنين على طفولة الإسكندرية الباكرة، كان الليل عندي مرتبطًا بمشهدين:

مشهد جدتي لأمي - رحمهما الله - وهي تصلي قبيل الفجر، وتدعو ربها قائلة: "يا أرحم الراحمين ارحمنا"، وكثيرًا ما كانت تضمني إلى فراشها، وأصحبها إلى بيت الله..

ومشهد بائع اللبن ينادي عليه بعد الغروب بصوت ندي، فانظر إليه بقامته القصيرة وفى يده "قِسْطُ" اللبن، وعلى رأسه "طَبْلِيَّة" الزبادي مائلة قليلاً يوازيها برقبته، ويتغنى باللبن الذي يحمله.

حتى أصبحت أحيانًا لا أتصور أن أسمع صوت بائع اللبن نهارًا: فإما بعد الفجر في الصباح الباكر، وإما بعد الغروب.. كأن نداءه شعاع مضيء تأخر غروبه، وسرى فى الطرقات يلقي علينا تحية وداع..

وعندما دارت حولنا أسوار الأسلاك الشائكة في معتقل الهايكستب والطور وعيون موسى عام ١٩٤٩، كان أهم ما يميز الليل نداء الحراس؛ واحد تمام.. اثنين تمام.. ثلاثة تمام.. ويتابعون الترتيب حتى آخرهم، فينادى ويقول كلمة تمام..

ولكن ليل السجن الحربي كان ليلاً آخر..

فمع غروب الشمس وتوزيع طعام العشاء والماء -إذا أمكن- وإغلاق الزنازين وحجرة الظلام -كنا نحس رهبة لا تزال فى القلوب حتى الآن، رهبة سحبت من شريط الذكريات أصوات العابدين، والبائعين طالبي الرزق الحلال.. سحبت الأصوات المرتلة لذكر الله، والمتغنية بما تحمل من متاع.. بل سحبت أصوات: واحد تمام.. التى كان يعبث بها الجند إذا تقدم الليل، واشتد البرد، وتأكدوا من نوم الضابط المختص.. فإذا بالأصوات ترتفع:

واحد جوعان.. اثنين عطشان.. ثلاثة بردان.. الخ هذا السجع الذي تعود به المصري أن يشكو وأن يحول بعض الألم إلى فكاهة.

وكنا وقتئذ نحاول أن نستجيب، فنوزع الشاي على حراس لا يؤذوننا فى كثير ولا قليل - وإنما يقضون الليل على أبراج الحراسة، لأنهم مأمورون بذلك.

أما أبراج حراسة السجن الحربي، وأما جنوده، فكانت غالبيتهم وجوهًا عابسة مظلمة.

عندما جاءت الليلة الأولى، وبعد صلاة العشاء، وجدت إخواني يتوجهون إلى الله بالدعاء.. الدعاء الحار.. أن تمر الليلة على خير..

وبدأت الكلمات تتجمع جملاً قصيرة، والجمل تعطي تصورًا لما يحدث..

فالليل هو وقت التحقيق فى الغالب، ويمضى هنا في المكاتب.. وهذا هو التحقيق العام واستيفاء الأوراق. ولكن هناك تحقيقًا آخر فى المكاتب، وهو النار الموقدة. والذي يطلب للمكاتب كأنما يساق إلى الجحيم.

يرتفع الصوت كأنه النداء المسموم: ثابت، فيعم الصمت، وتكتم الأنفاس.. أولئك الذين يؤدون بعض الخدمات، أولئك الذي يتهامسون بصوت منخفض.. صمت حي كأن السجن قد تحول معه إلى جهاز استقبال، عليه مئات الآذان تنتظر القضاء.. ويرتفع الصوت بالاسم المطلوب أو الأسماء المطلوبة..

لا موعد، قد يكون بعد العِشاء، وقد يكون فى منتصف الليل، أو بعد ذلك.. لا موعد، اسم ورد على لسان أحد، أو جاءت به مذكرة، أنت هنا على استعداد للتحقيق، ليلك ونهارك..

ويطرق الأخ على باب الزنزانة، أو يطرق غيره له، فهو حينئذ يرتدي حذاءه فى سرعة، ودعوات إخوانه تتردد، ونظراتهم إليه مشفقة فى الضوء القليل المتسرب.. وحضور عسكري الحراسة يكون مسرعًا إلى الزنزانة، يصحبه إلى المجهول، ومن ورائه الصمت الثقيل والدعاء..

ويتبعونه بعيون قلوبهم، وآذان قلوبهم، حتى يختفي وقع الأقدام، المختلط مع وجيب القلوب وخفقانها.

ولا يملكون حتى السؤال: هل يعود؟ متي يعود؟ وكيف يعود؟ من سبقه؟ ومن بعده؟

وتحس أن إخوانه من نفس بلدته، أو مهنته، أو عمله، أو أي صفة تربطهم به – قد أطبقت على أعناقهم هذه المخالب غير المنظورة، ونظرت إليهم فى ظلمة الليل عيون الشر الزرقاء.. عيون تمتد أشعتها من المكاتب، حيث أبالسة البشر الذين فقدوا إنسانيتهم ودفنوها مع ما دفنوا من جثث الشهداء والضحايا فى "تبة " ضرب

النار، ذلك الكثيب الرملي، الهرم الجديد الذي حوى الضحايا، وإلى جوار اسم كل منهم فى سجلات السجن: هارب.. ولأول مرة فى تاريخ البشر.. يستطيع الموتى أن يهربوا !!

والذين يعودون من المكاتب يقصون علينا ما يحدث.. وزيارة المكاتب ليلاً هذه لم تكن من نصيبي، كانت بعض التحقيقات التي تجرى ليلاً فى داخل السجن، أو نهارًا فى خارج السجن..

والذين يعودون إلينا هم فقط الذين قدروا على العودة، فأخذوا نصيبًا من السياط والإيذاء وتحملوه، ولا يحول بينهم وبين متابعة حياتهم اليومية فى ظل نظام السجن الكبير..

أما الذين اشتد بهم الأذى، وتناولتهم سياط العذاب، ولجأ من فى المكاتب معهم إلى وسائلهم الوحشية فى تعذيبهم، إلى درجة أقعدتهم عن الحركة -فهؤلاء يبقون فترة تطول أو تقصر فى سجن قريب من المكاتب.

هناك من وسائل التعذيب والتنكيل: وضع الأوراق بين الأصابع وإحراقها، والمس الكهربائي، وإطفاء السجائر فى جسم المعذب، وتمزيق جسده بالسياط، وتسليط الكلاب عليه إفزاعًا وجريًا وهجومًا.. ووطؤه بالأقدام وضربه بالحذاء العسكري الثقيل.. أو الضغط به على أجزاء من جسمه...

وتحول التحقيق عندهم إلى لذة سادية، إلى مرض يرتبط بالليل، وسهرات يستمتعون فيها بالصراخ ورؤية الدماء، وملامح الفزع الرهيبة على الوجوه، وإهدار كرامة الآخرين، وإصدار الأوامر المجنونة والاستمتاع بتنفيذها.. أصبحوا مرضى، ومجانين سلطة مجنونة ولاشك:

شعرك طويل.. احلقوا له شعره.. عد الشعر الذي حلقه العسكري، أجمعه من الأرض، كُلْ هذا الشعر.. هذا في مادة الشعر فقط !!

من أجل ذلك لا تستطيع أن تقول إن هذه التحقيقات كانت مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بالقضايا وإنما هي جو مصطنع، وظهرت فيه انحرافات رجال السلطة، وأوجده "جيل" من هؤلاء المنحرفين، الذين اضطربت آدميتهم، وأصبحوا مدمني شر، لا يختلفون عن مدمني المخدرات والخمور.

وقد يعود المعذبون بعد أيام، وقد يستقرون فى مكان آخر فى سجن ٢، أو حيث لا نعلم، حتى تنتهي محاكماتهم.. وما أسرع ما تنتهي هذه المحاكمات، وما "أكرم" دوائرها فى توزيع سنوات السجن، حتى أصبحت التوزيعات محفوظة تقريبًا، ويستطيع الأخ متى عرف المكان الذي حدد له، أن يعرف الحكم عليه قبل أن يذهب إلى المحكمة.

(نموذج من التعذيب الفردي)

بعد الظهر صدر الأمر بالاستعداد، ونزلنا، ولكن لم نخرج إلى أرض الطابور.

لم يصدر الأمر:

- اقعد.

- وجهك فى الأرض..

ودخل القائد حمزة البسيوني، ووراءه ضباط وحراس، وارتفع صوت الصول:

-ثابت.

ودارت عين القائد ثم قال:

- اشتغل..

وأشار بيده.. وارتفع صوت الصول:

- اقعد..

ماذا يريد منا اليوم؟ ودارت عينه كأنما يختار فريسة، نعم.. ماذا يريد؟

وأشار بيده ناحية الباب..

وتعلقت عيوننا بالباب..

ودخل..

يا الله، الثياب ممزقة.. الرأس حليق.. الوجه منتفخ.. له أكثر من لون.. هذا الجرح لازال دمه رطبًا فى رأسه.. القامة منحنية، حافي القدمين.. يسير فى انحناء يقرب من الركوع.. ماذا فى جسمه؟ ماذا تحت الثياب؟ أي ليلة وأي صباح قضاهما؟ وما هذا الألم المتجسد؟ العين تنظر إلى بعيد.. بعيد..

وصدر الأمر:

- قف.

وارتفع صوت حمزة البسيوني مشيرًا إليه:

- يوسف طلعت رئيس الجهاز السري..

وبإشارة أخرى من يديه بدأ يسير بين الصفوف باحثًا..

باحثًا عن من؟

كثيرون يعرفونه، بل كلنا نعرفه.

إنه أحد الستة الأول الذين أقاموا الإخوان المسلمين فى أول دارها فى الإسماعيلية عام ١٩٢٨. كثيرًا ما كان يذكره الأستاذ البنا ـ رحمه الله ـ نموذجًا للإيمان، والبذل، والصفاء، والضعف إلى الله والقوة به ...

لم يكن يتطلع إلى أي منصب أو مقعد أمامي فى مسيرة الإخوان.. ولم يكن خطيبًا لتتجه إليه الجماهير، ولم يكن كاتبًا ليتعرف الإخوان إليه عن طريق التعلم، ولا غنيًا يطلب الفقراء عطاءه..

كان مؤمنًا سابقًا، قادرًا على جمع القلوب عن طريق التعامل اليومي والإخاء، عابدًا قريبًا من الله، أكثر نشاطه ـ بعد الإسماعيلية ـ كان فى التنظيمات الخاصة للإخوان والتدريبات.. وإذا ما حدث خلاف، وأرادوا حكمًا محايدًا، كان الشيخ يوسف من أول من تتطلع إليهم الأنظار..

ويدور بين الصفوف، وينظر فى كل وجه.. وأدركني، وتلاقت الأعين ... وكان لقاء وداع، واجتازني، وعبر صفًا وصفًا، ووقف عند أحد الإخوان -وكان جنديًا فى القوات المسلحة- وأشار إليه دون كلام..

وقام الأخ وقد ذهب لون وجهه، وأشار إليه القائد بإصبعه ليحضر، وأشار مرة أخرى ليذهب إلى المكاتب، وثالثة ليتحرك الشيخ يوسف نحو المكاتب.. ورأيناه يمشي متثاقلاً، منحني الظهر والرأس، يحمل هذا العذاب كله حتى اختفى عن أنظارنا..

وأشار القائد بصرف الطابور وعدنا إلى الزنازين في صمت ثقيل..

(نموذج من التعذيب الجماعي)

ارتفع صوت الصول:

- ثابت.. العسكريين استعد.

وبعد قليل نادى:

- العسكريين خارج الزنازين.

وكان معنا عدد من العسكريين من غير الضباط..

القائد موجود، ماذا وراءه اليوم؟

حاولنا النظر من فتحة الباب الضيقة العين، وكثير من جفونها المعدنية مكسورة، وإن كان النظر منها مغامرة إذا ما اقترب عسكري من الباب..

وأمر القائد فوقف العسكريون صفين متقابلين.. ألقى حديثًا عن الخونة والخيانة. وكنت وقتئذ فى زنزانة فوق الباب الرئيسي بالدور الأول، أعادوا ترتيبنا حسب الحروف الأبجدية.

وبعد قليل صدر أمره، وتولى الصول وعساكره الإشراف على التنفيذ:

- كل واحد يضرب الذي أمامه، يضربه بالقلم (أي يصفعه) على وجهه بالترتيب، الصف الأول يضرب الثاني، وبعده الثاني يضرب الأول. وارتفعت الأيدي بالضرب.. أخ يضرب أخاه.. وعلى وجهه.. ويرتفع صوت القائد:

- هذا ليس ضربًا.. هذا لعب عيال..

- وتمتد يد العسكري بأمر القائد:

- اضربه ليتعلم كيف يضرب.

وتسمع دوي الصفعات على الوجوه:

- هكذا.. اضرب.

وترتفع أيدي الصف الأول بصفع عنيف على وجه الصف الثاني، وصوت القائد؛ أحسن.. استمر.

وتستمر هذه المأساة، الصديق يضرب صديقه ... والحرس وراءه يضربونه إذا تراخى، أو بدت منه أية بادرة من رحمة أو استشعار لكرامة.

وتستمر حتى يرضى القائد..

- أنتم تحتاجون إلى تربية.. أنا أربيكم.

وهذا أسلوب من تربيته !!

(طابور الصباح والعصر)

وتدور عيني على شيء من التأمل فى طابور الصباح والمساء..

هذا الشيخ فرغلي بقامته القصيرة وجسمه النحيل ورأسه الحليق، أحس أنه لايستطيع أن يتحرك فى يسر.. ماذا فى عظامه؟ أحيانًا كنت أتصور رأسه (مربوطًا) فى جسمه.. كانوا يقفون بالترتيب: الخط الممتد من موطن خرج منه محمود عبداللطيف الذي أطلق الرصاص فى المنشية على الرئيس جمال عبد الناصر إلى المرشد العام.

هذا هنداوي دوير المحامي مسئول إمبابة، وإبراهيم الطيب مسئول القاهرة، ويوسف طلعت رئيس الجهاز، ومحمد فرغلي عضو مكتب الإرشاد، وعبد القادر عودة وكيل الإخوان، وحسن الهضيبي المرشد العام للإخوان.

وعندما صدرت الأحكام بالإعدام صدرت على هذا الخط ابتداء من محمود عبد اللطيف إلى الأستاذ الهضيبي.. وخفف حكم المرشد إلى السجن المؤبد، ونفذ حكم الإعدام فى الخط كله ابتداءً من محمود عبد اللطيف إلى عبد القادر عودة

ثلاثة من رجال القانون: هنداوي والطيب وعودة..

وواحد من رجال الدين: محمد فرغلي.

اثنان من العمال: محمود عبد اللطيف ويوسف طلعت.

وكثيرًا ما كنت أتذكر موقف الرسول الأعظم -صلى الله عليه وسلم- عندما قدمت إليه يهودية من خيبر طعامًا مسمومًا.

وأتذكر ضبط الأعصاب، والدقة فى التصرف، التي حدثت عندما طعن أبو لؤلؤة المجوسي الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الفاروق ـ رضى الله عنه ـ فى محراب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم.

وأسأل نفسي: كم عدد المقتولين والمعتقلين فى العدوان على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى أمير المؤمنين الفاروق ـ رضى الله عنه؟!

نعم: لقد زادت قطرات الدماء على وجه الإسلام، بعد أن أصبح السلطان ملكًا عضوضًا، وصراعًا على المناصب، ولكن أشرف الخلق وخاتم المرسلين ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان له موقف ندع فيه القول لابن هشام فى سيرته، يقول: "فلما اطمأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أهدت له زينب بنت الحارث، امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية (مشوية)، وقد سألت: أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم؟ فقيل لها ؛ الذراع، فأكثرت فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تناول الذراع فلاك منها مضغة، فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور، وقد أخذ منها كما أخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلفظها، ثم قال: إن هذا العظم ليخبر بأنه مسموم، ثم دعا بها، فاعترفت، فقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكًا استرحت منه، وإن كان نبيًا فسيخبر، قال: فتجاوز عنها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومات بشر من أكلته التى أكل" (سيرة ابن هشام ٣/٣٥٣، ٣٥٢).

وأما عمر بن الخطاب وقد طعنه أبو لؤلؤة المجوسي، وقتل نفسه واستطاع عبد الله بن عمر بن الخطاب الوصول إلى القاتل فقتله.. واختلف المسلمون:

- هل يقتلون ابن عمر لأنه قتل القاتل؟

- أم يدعونه وقد كان مصير القاتل القتل

واختلفوا: فيمن يملك سلطة التنفيذ.

ويرد عثمان رضى الله عنه قائلاً: يُقتل أبوه بالأمس وأقتله اليوم؟ لا يكون.

ووقفت القضية عند ذلك.

هل صدرت أوامر الخلافة الإسلامية باعتقال جميع من كان بالمدينة من أهل أبى لؤلؤة أو قرابته؟ هل عذبوا؟

وصدق الله العظيم إذ يقول على لسان رجال بعض مساعدي يوسف-عليه السلام: " قالوا معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده، إنا إذا لظالمون" لم يأخذوا إلا أخا يوسف الذي وجدوا عنده صواع الملك، ولم يأمروا باعتقال جميع الإخوة، ولا من كان معهم من أهل قريتهم..واحد فقط، هو المتهم فى سرقة كيل من مكاييل الملك.

وترك الإخوة يعودون إلى أبيهم، وتستمر القضية حتى تنتهي كما نعلم فى كتاب الله، صفحًا وغفرانًا وجمعًا للقلوب. نعم إنها تربية مؤمنة، شريفة القصد والوسيلة.

(الثلاجة)

أرجو ألا تسألني عن الشركة التى تنتجها، أو المهندس الذي ابتكرها أول مرة، فهي ليست جهازًا كهربائيًا، وإنما هى حجرة.

كانت عندنا فى سجن ٣ فى الركن الأيسر للضلع المواجه للباب.

كل الذي حدث هو أن أمرًا صدر ببناء عتبة مرتفعة نحو نصف المتر، تسد الجزء الأسفل من فتحة الباب، وملئت الحجرة بالماء إلى قرب هذا الارتفاع.

وإذا ما أراد المحقق تعذيب أحد، أمر بوضعه فى الثلاجة وأغلق عليه الباب.

قد يتركه ببعض ملابسه، وقد يصدر الأمر بنزع ملابسه الخارجية، وقد يترك فيها كما ولدته أمه.

الماء تحته يستطيع أن يقضى حاجته فيه، ولكن هل يستطيع الشرب منه إذا اضطره العطش؟!

وفى الشتاء عندما يشتد البرد، ماذا يصنع فيه؟

وفى الصيف عندما يشتد الحر، ويزداد بخار الماء فى الحجرة، وترتفع الرطوبة حتى تصبح خانقة، وما أعنف الحر والرطوبة معًا !! ماذا يصنع؟

وإذا تعب من الوقوف، فأين يجلس؟!

وإذا استبد به التعب، فهل يستطيع النوم؟!

وإذا أغمي عليه، فما المصير؟!

كل هذه الأسئلة تستطيع أن تقرأها بعين الرعب، وإن لم تكن على صحيفة أو ينطق بها فم.

ولا تسأل عن طعام وشراب، فلا مكان فى هذا المستنقع إلا للوقوف مستندًا إلى الحائط طوال وقت التعذيب، ولا تسل عن تغيير الماء أو عن رائحته..

وما أعلى النافذتين فى أعلى الغرفة على الشخص العاري أو خفيف الثياب.

الحجرة عذاب فى عذاب ... وماذا تصنع؟

كان كل الجهد – لمن يستطيع – أن يحاول المتعرض لهذا الهول الحصول على قالب من الطوب –بطريقة أو بأخرى– ثم يلقيه فى الماء، ويتكرر هذا..

وعلم به بعض العساكر فتجاهلوه.. فهناك حدود للقدرة على صناعة الشر..

ويستطيع السجين إذا ما جاء الليل، وأغلق علينا باب السجن، أن يجمع هذه القوالب ويصنع منها مقعدًا يستريح عليه من العذاب، ويمضي بعض ليله جالسًا.

يستطيع أن يغفي إغفاءة قصيرة، خيرًا من لا شيء.

لا داعي للحديث عن الناحية الصحية، والميكروبات فى الماء، والتلوث، فالحديث عن هذا ترف فى هذه الظروف.

والذين تكلموا عن حقوق الإنسان، وصاغوها إعلانًا عالميًا فى عام ١٩٤٨ لم يكونوا يتصورون هذه البشاعة، وإلا لتكلموا عن حقوق الإنسان فى الجلوس، وقضاء الحاجة، والنوم.

عشرات الجوانب من التعذيب كانت تتجمع فى الثلاجة الصامتة، دون حاجة إلى السياط والعصي الغليظة. والماء الذي تشتد حاجتك إليه فى زنزانة مجاورة، هنا يركد ثقيلاً، خطرًا، متفجرًا بالأذى.

وفى ظلمة الليل، والصمت، والتعفن المتصاعد، يقف الزمن، ويتجمد كأنه عمر الصخور لا عمر البشر.. الصخور التى حلت فى الصدور محل القلوب، فاستطاعت أن تبتكر هذا العذاب الغريب الرهيب.

كانت الثلاجة عالمًا من الرعب الساكن، القادر على التحريك دون حركة، وفى الغالب كان الدخول إليها ليلاً.. وإذا ما أحس المحقق أنه لم يصل إلى غايته، وتعب، فأنه يذهب ليستريح، بينما يقاد المعتقل إلى الثلاجة، ليتم الليل فيها..

وهدأ التحقيق فترة، وبقيت الثلاجة خاوية..

وجاء يوم دخل فيه معتقل جديد جاءوا به من الخارج - بحقيبة ملابسه - وقضى وقتًا قصيرًا فى زنزانة عادية، وفوجئ المعتقل بحضور القائد.. حمزة، مرة أخرى.. ماذا وراءه هذه المرة؟

واستدعاه وقال:

- تكتب كل ما تعرف؟

- ما الموضوع المطلوب؟

- أنت تعرف وأنا أعرف، ولا تحاول ولا تناقش، ولا تضيع الوقت، سأتركك تكتب ما تريد، ولابد أن يكون ما أريد.. فاهم !!

- ونظر إلى الشاويش: أعطه ورقة وقلمًا ويبقى فى زنزانة منفردًا..

ومضى النهار بين الكتابة والمكاتب، ليعود إلى سجنه ٣، ثم إلى الثلاجة..

ماذا حدث ليدخل سجن الماء والعفن؟!

ويمضى جزء من الليل وشاويش السجن فى وجوم، لقد أدرك من أول حضور المعتقل أنه مريض، الوجه، اللون، المشية، وفى وجهه هدوء ونقاء، ليس فيه أي نوع من التحدي، وإنما فى وجهه قلق وحيرة..

ألم يسجل الله على أشرف الخلق "قد نري تقلب وجهك فى السماء"؟!

هناك مواقف حيرة أو تقليب وجه تحدث حتى للأنبياء..

وأنت هنا أمام إنسان، يأمرك أن تكتب ما فى رأسك، على أن يوافق ما فى رأسه، دون أن يقول لك ما عنده، وهذه إحدى وسائله في الإعنات والتشديد.

وينتهي المعتقلون من الذهاب إلى دورة المياه، وتغلق الزنازين، والشاويش غارق فى صمته الطويل، ثم يقول؛ يمكن أن يخرج المعتقل من الثلاجة، وقد نام من فى السجن، على أن يعود إلى موضعه قبل أن يستيقظوا.

لكن هذه مغامرة كبيرة، ثم ما الذي يدعوه إلى ذلك؟

فصمت، وطال صمته، ونظر إلى الأرض، ثم رفع رأسه قائلاً:

الرجل مريض، يكفي ما حدث، ربنا يرحمنا.

لقد استيقظ الجانب المنير من نفسه، استيقظ وسط السجن الحربي، والسياط والعصي، والدماء، والماء العفن فى مستنقع الثلاجة.

لقد سار إلى آخر الطريق الذي لا يستطيع أن يتقدم بعده خطوة فى الشر.. أوامر؟ نعم.. ممارسة سلطة ونفوذ؟ نعم.. ولكن جذوة الإيمان استطاعت أن تشق حجب الظلام والظلم..

لا أنسى هذه الليلة، وقد أغلقت الزنازين، وكنت ساهرًا مع شاويش السجن نتلقى أي أوامر من المكاتب، وعينه تنظر إلى باب الثلاجة مرة، والى الأرض مرة، ثم رفعها إلى السماء، وفى هدوء قال: نخرجه وننبه عليه بألا يخبر بذلك أحدًا، ولو قطعوه، وربنا يستر، ولن يعلم أحد –إن شاء الله - ونعيده فى الصباح الباكر..

وخرج ليقضي الليل فى زنزانة عادية، بعد أن جفف جسمه، وغسل وجهه وأطرافه..

وذهبت وذهب إلى النوم.. ولكن أي نوم؟

لقد ظللت يقظًا، يتصارع فى نفسي الإيمان بالله، والحذر والتوجس، ثم نمت قليلاً، واستيقظت قبيل الفجر –وكانت زنزانتي مجاورة لمكتب الشاويش.

وقلت له: نعيد المعتقل إلى الثلاجة؟

فقال: لازال الوقت ليلاً.. اتركه.

قلت: نعيده، ويكفي هذا، والله يجزيك خيرًا.

قال: عجيبة، أخوك وتقول نعيده وأنا عسكري وأقول لك اتركه، ثم ابتسم وقال: الدنيا انقلبت.

قلت: لا أدري قلبي يحدثني أن نعيده فورًا، ونحن لا نأمن المفاجآت.

قال: نعيده والأمر لله..

وعاد..

ومضت دقائق، وسمعنا حركة عند الباب. وكانت المفاجأة غير المتوقعة.. القائد بنفسه يمر قبيل الفجر..

ودخل وجال بنظره فيما حوله، وأمر بفتح الثلاجة وإخراج من فيها، ووجه إليه بعض الأسئلة، وطلب إليه كتابة إجابته.. وأمر الشاويش بإعطائه ورقًا وقلمًا، وأن يضعه فى زنزانة يفرغ فيها إلى تنفيذ أوامر القائد..

كان هذا آخر العهد بالثلاجة..

لقد تم إخلاء سجن ٣ لهدف آخر، وتم تجميع المعتقلين فى السجن الكبير في ظروف قل فيها الشر.. وعافية الله أوسع.

(النجفة)

النجفة، الثلاجة، العروسة.

ما مصدر هذه التسميات؟

- أداة التعذيب التى يربط فيها السجين أو المعتقل بسيور من رجله فى يديه ورجليه، ويظل مصلوبًا واقفًا ووجهه فى فتحة لا يرى منها ما وراءه، والسياط بعد هذا تمزق ظهره.. هذه الآلة يسمونها العروسة.

- حجرة كالحة على بابها جدار منخفض، ويغمرها إلى ارتفاع قدم أو نصف قدم ماء آسن عفن.. يسمونها الثلاجة.

- أما النجفة فهي إنسان أو أسلوب فى تعذيب إنسان:

تختار حجرة من حجرات الأركان فى السجن، وهي الحجرات الوحيدة ذات النافذتين المتعامدتين، ويمد عرق قوي من الخشب فيما بينهما، ويربط فى وسطه حبل متين، ويأتي العسكري المكلف بالإعداد للتعذيب، فيضع مقعدًا تحت الحبل، ويأمر المعتقل بالوقوف فوق الكرسي، ويبدأ فى ربط يديه ربطًا قويًا، ثم يربط رجليه، ومن بين الرجلين يمتد الحبل إلى ما بين اليدين فينضمان معًا، ثم يدفع العسكري الكرسي بعيدًا، ويظل المعتقل معلقًا فى الفضاء مربوط اليدين والرجلين؛ نجفة !!

وفى هذا الوضع يبدأ التحقيق والتعذيب، وانتزاع الاعتراف، أو ابتكار الاعتراف !!

وضع يتمنى الإنسان الانصراف منه ولو إلى السجن المؤبد أو الإعدام. كان المعتقلون يؤمنون أن الله حرم قتل النفس، فتحملوا هذا العذاب دون أن يفكر أحد منهم فى الانتحار فيخسر دنياه وأخراه.

وتعرف إدارة السجن الحربي - وغيره من السجون - هذه القاعدة المؤمنة، فتشتد وتبتكر فى أنواع التعذيب، عالمة أن هذا المعتقل لن يفكر فى الانتحار.

وأذكر أن الحجرة الركنية العليا القريبة على يسار الداخل إلى سجن ٣ شهدت هذا النوع من التعذيب أحيانًا، وكان هذا فى قضية عرفت باسم قضية

السلاح.. بنادق سرقتها عصابة، كان بعض أفرادها من العاملين فى القوات المسلحة والبعض من المهربين.

جاءوا بهم وسجنوهم معنا، بعد تعذيبهم وأيام من مبيتهم معنا فى ذات المكان الذي كنا فيه.. وأصبحوا وكل واحد منهم فى زنزانة مع مجموعة من الإخوان..

والذي جرى معهم هو مجرد التعليق - دون ضرب - فيه من الإيذاء الشىء الكثير، فما بالك لو صحب التعليق ضرب، أو استمر التعليق فترة طويلة..

وإذا كان التحقيق فى مكتب، لجأوا إلى طريقة لا تختلف فى أسلوبها عن هذه، وإن كانت أقرب إلى الأرض؛ يمد عمود قوي بين مكتبين، ويعلق المعتقل فيه مربوط اليدين والرجلين، ويكون وجهه مكشوفًا أحيانًا، وقد يغطى وجهه برباط قوي، فلا يرى، ولكن يسمع، ويتم التحقيق معه بهذه الصورة.

ويعاد معصوب العينين إلى حجرته..

وما أصعب أن يعود في هذه الحالة ؛ بعد الضرب العنيف، والعذاب، والأقدام المتورمة، والظهر المتسلخ.

وفى الصباح يذهب إلى حجرة قائد المعتقل فى القلعة، ليجد أمامه أقوالاً "عليه" أن يوقع عليها، لا يرى إلا مكان التوقيع. والويل له إذا فكر - مجرد فكر - فى قراءتها أو تعديل شىء فيها، ليس أمامه إلا التوقيع، وإذا فكر فى غير ذلك فالعذاب، والعذاب موقف كأنه الحشر، يتمنى الفرد فيه الانصراف ولو إلى النار..

كان الذين يذهبون إلى القلعة للتحقيق يعرفون مصيرهم قبل الذهاب، وعذابهم فى أثناء التحقيق، لقد وضعت المباحث العامة تقاليد، وكأن الأمر مباراة بين السجن الحربي والقلعة، أيهما يستطيع أن يسجل درجة أعلى فى سرعة الوصول -بالحق أو بالباطل- إلى ما يريد.

القائد والكلاب

لا أقول إنه كان يحب الكلاب، أو كان وفيًا لهم مثل وفائهم له، وإنما كان يستخدم الكلاب، ويعاملهم أحيانًا كما تعامل الغانية المحبين؛ تظهر لهم

الحب فيقتربون، ويتفانون في الخدمة، وتنصرف إلى غيرهم بعد أن تمتص رحيق حياتهم..

عجيبة تصرفاته مع الكلاب..

كان الكلب " لكي " عند دخولنا السجن الحربي يستمد هيبته من هيبة القائد، وكأنه امتداد لشخصيته، بل أحيانًا كنا نتصور أن " لكي " هو "الوجود الكلبي " للقائد، ننظر إليه بحذر، ونتحاشاه ولم يكن يتحاشانا !

وفى أكثر ما كتب عن السجن الحربي كانت سطور -إن لم تكن صفحات- خاصة بهذا الكلب؛ كان كبير الحجم أسود اللون، كأنه قطعة من الليل، تتعلق به أنظارنًا بأسنانه الحادة البارزة من فمه الواسع على جانبي لسانه المتدلي، يتحرك فى المعتقل كأنه يشعر أنه كلب القائد، أو قائد الكلاب الأخرى..

وكان مدربًا (هكذا كان فى أول أمره) يستطيع بإشارة أن يتابع المعتقل جريًا وراءه، وتمزيقًا لملابسه وبعض لحمه، حتى توقفه إشارة أخرى من القائد، فيعود إلى جواره، ويترك الضحية فى دمها وملابسها الممزقة..

فى يوم من الأيام فوجئنا به يدخل السجن الكبير فى صحبة جندي، لماذا جاء الكلب؟

ونادى الشاويش على زميلنا " د. عبد المجيد عجمي " -وكان تخصصه "فى الطب البيطري"- ثم نادى على " د. مصطفي عبد الله " طبيب بشري، وكان حكيمباشي محافظة المنوفية..

ما الخبر؟

وتحرك الموكب يتصدره " لكي " والجندي إلى زنزانة خالية فى الدور الثالث، ويتبعه الطبيب البيطري والطبيب البشري، وأغلق الجندي عليهم الباب؟

ونظر بعضنا إلى بعض، وكانت الصلات بدأت تقوى بيننا وبين الجنود من طول العشرة، والمعيشة المشتركة فى هذا السجن.

وعرفنا القصة ؛

كان القائد جالسًا فى حجرته، ودخل عليه "لكي" ولم تكن أقدامه نظيفة، وأراد مداعبة القائد، فاتسخت ملابسه من أقدام الكلب، فأصدر أوامره بتأديبه، وحبسه فى الزنزانة خمسة عشر يومًا !!

"لكي" الكلب أصبح معتقلاً.. !!

وعاد القائد يفكر، ولماذا يبقي " لكي " وحده؟ قد يحتاج إلى خدمة، والأفضل أن يكون إلى جواره طبيب بيطري، فمع أن له تاريخاً في خدمة السجن الحربي يدعو إلى تكريمه، لكنه مخطئ ويحتاج الى تأديب.. وعيب أن يرفع " لكي " الكلفة فى حضور ضيف، ويضع أقدامه المتسخة على ملابس القائد !!

وجاء سؤال آخر ؛ ولماذا يبقى الطبيب البيطري وحده مع الكلب، وهو طبيب مرافق لا ذنب له فى الموضوع؟ فليكن معه طبيب بشري احتياطي للطوارئ.. وليبق الجميع معًا خمسة عشر يومًا !!

ويذكر د. عجمي بعد خروجه من هذه المرافقة الإجبارية - من الاعتقال فى داخل الاعتقال - بعض ما كان يحدث بين هذا الثلاثي الغريب؛

د. مصطفي له مشكلاته، أولها الخوف من هذا الكلب ذي التاريخ الطويل فى الإجرام، وخدمة القائد الدموي.. وثانيًا هو لا يحب الكلاب لله فى الله ! ثم يا أخي برازها نجس، ولعابها نجس.. وكيف أصلي؟ والحجرة كلها أصبحت مرتعًا لهذا الكلب اللعين، يصنع ما يشاء فى أي مكان يشاء.. يريد أن يشمني، يتحسسني.

وأتجمع قرب الحائط حتى كأني أريد أن أزحف عليه صاعدًا، ولا أستطيع أن أرفع صوتي على الكلب، فقد يغضب وغضبه ليس له حدود ! ثم إن الكلب الآن موتور، وفى حالة غير عادية، وقد يعضني، مصيبة.. أذهب إلى مستشفى الكلب، وآخذ هذه الحقن فى بطني.... وأنا مالي؟!

يا د.عجمي أنت مختص بالحيوانات، والكلاب صنعتك، كليتك يا أخي غير كليتي.. أنت من الطب البيطري فى الجيزة، وأنا فى الطب البشري فى القصر العيني..

لا إله إلا الله.. محمد رسول الله.. حكمت علينا الأيام بصحبة الكلاب، حتى الكلاب!! معتقل مع آدميين صبرنا عليه ، مع الكلاب.. مع الكلاب.. يارب حكمتك ورحمتك..

ويقترب " لكي " من د. مصطفي وهو يناجي ربه، ويتحول إليه، وفى هدوء وخوف:

- بس يا لكي.. عيب يا لكي.. خليك فى حالك يا لكي.. لكي.. لكي.. اذهب إلى د. عجمي صاحبك.. يا عجمي خذ هذا الكلب !!

وأحيانًا يستجيب "لكي" فى هدوء لدكتور عجمي، ويدع الدكتور مصطفى فى حاله، وأحيانًا يضيق بالبقاء فى مكان واحد، ويود أن يتحرك فى الزنزانة، كنوع من الرياضة، بعد أن كان المعتقل كله عالمه الواسع الرحيب..

كانت لهم مواعيد خروج يذهبون فيها الى الحمامات ثم يعودون، د. عجمي يصحب "لكي"، وهو بمشكلاته وحاجاته أدرى، ود. مصطفى يراها فرصة لكي يبتعد عن الكلب ومرافقته بعض الوقت، ليبدأ معه صحبة جديدة، كأنه سيزيف فى الأساطير اليونانية القديمة، وعليه أن يحمل الصخرة على كتفيه إلى أعلى الجبل، فإذا ما قارب القمة وقعت منه، وعادت إلى السفح، وعاد ليحملها على كتفيه من جديد، من حضيض الجبل نحو القمة !

بعد كل خروج ودخول، وصبر طويل يعقبه خروج، من ورائه دخول.. خمسة عشر يومًا قضوها معًا؛ كلب تحت التأديب، وطبيب بيطري يرافق الكلب، وطبيب بشري يرافق الطبيب البيطري. وخرج " لكي " من الاعتقال، وكانت الموجة قد هدأت، وقلت الحاجة إليه، ولعل القائد قد وجد كلبًا آخر أجمل وأقوى.. ألم أقل لك إنها أخلاق غانيات؟ !

ووجدنا الكلب معنا بعد حين فى السجن الكبير ذليلاً يطرق على الزنازين، يا سبحان الله.. "لكي" تغيرت معه الدنيا !! فمتى تتغير مع قائد السجن الحربي؟

تغيرت مع الظل الكلبي، فمتى تتغير مع صاحب الظل؟

وبدأنا نقترب من "لكي"، ننظر إليه من قريب، فإذا بعيونه وقد بدأ بريقها يخبو، ودمعات تسيل منها.. يتحرك بطيئًا منكس الرأس.. يحاول أن يغازل كلبة مسكينة صغيرة الحجم كنا نسميها " سامية "، فلا توافق !

تجرأ الجنود على رفع أصواتهم معه، ورقد بعيدًا.. ونسأل د. عجمي ؛ لقد ضعف "لكي"، ومضى زمانه، وهو الآن يقضي فترة ضعفه معنا؟!

وجمعتني الأيام مع د.عجمي قبيل خروجنا من السجن الحربي فى صيف ١٩٥٦ ... كنا آخر مجموعة خرجت، وكان " لكي وسامية " ومجموعة من الجراء الصغيرة تبيت عند بابنا، فإذا جاء الفجر خرجنا للوضوء، واندفعت هي إلى د. عجمي كأنما تلقي عليه تحية الصباح.. "ولكي" كالشرير القديم بعد أن تقدمت به السن، وضعفت قوته، وأصبح ينتظر الإحسان ... ولكل شرير نهاية. وليت أهل الشر يذكرون فى قوتهم عواقب شرهم.. مادامت لأحد، والباقي هو الحى الذي لا يموت..

توسكا:

ولكن كيف تعرف القائد على د.عجمى، فأصبح مختصًا بكلاب السجن الحربي؟

بعد فترة من دخولنا السجن، أمر القائد بتحويلنا إلى سجن ٣ نقلاً من السجن الكبير، وبعد فترة فوجئنا بتخصيص حجرة فى المعتقل للكلبة "توسكا"، وكانت حاملاً وقتئذ..

وكلف شاويش السجن أحد المعتقلين بأن ينظف لها حجرتها، ويعاون فى وضع طعامها ومائها أمامها، ورفع بقية الأكل فيما بعد..

ولم يكن هذا بالأمر اليسير، "فتوسكا" كلبة عنيفة وشرسة، أصغر حجمًا قليلاً من "لكي"، ولكن لها أيضًا غزواتها، وآثارها على أجسام المعتقلين، وبخاصة فى التحقيقات الليلية.

وضعت "توسكا" جراءها.. وحمل الشاويش الخبر إلى القائد..وقام أحد المعتقلين بتنظيف الحجرة، فالقائد سيحضر بعد قليل ليطمئن على "توسكا" وجرائها.

فزعت "توسكا" من المعتقل وهو ينظف مكانها، فهبت نحوه بوحشية عندما ظنته يقترب من جرائها، فاندفع خارجًا، وأغلق وراءه الباب بسرعة، فى الوقت الذي كانت فيه توسكا عند مدخل الباب، فاصطدمت صدمة تركت أثرها على الوجه والعين..

مصيبة !! ماذا يقول القائد إذا رأي عينها حمراء؟

كان علي فى هذه الفترة أن أقوم بأعمال كتابية فى سجن ٣ ؛ إعداد الكشف اليومي، وتقييد الدخول والخروج.. وحاولنا أن نتخذ من هذا طريقًا لسرعة وهدوء الاستدعاء، دون إزعاج لكل المعتقل.. وهو الأسلوب الذي كان متبعًا من قبل ...

كانوا إذا أرادوا أحدًا فى أي ساعة من ليل أو نهار، استمع الجندي إلى الاسم من تليفون المكاتب.. وإذا كان ثقيل السمع، أو ضعيف الذاكرة، وعى جزءًا من الاسم ونسى الباقي.. ويخرج فى سرعة قبل أن ينسى صائحًا:

كله ثابت..

ثم ينطق الاسم صحيحًا أو محرفًا، والويل للمطلوب إذا خرج متأخرًا..

أمكن ترتيب مُرافق للجندي، يسمع الاسم مباشرة قبل النسيان والتحريف، ورتب الأسماء بحسب أرقام الزنازين، فكان الجندي يذهب بعد هذا فى دقائق إلى الزنزانة المطلوبة، ويوقظ الأخ ويصحبه إلى المكاتب، دون إزعاج لكل المعتقلين.. ويكفي ما نلقاه فرادى ومجتمعين.. واستراح الجنود إلى هذا الإجراء، كما استراح الإخوان.

ولكي يفرغ القائد لتوسكا، صدر الأمر بطابور أمام سجن ٣، وللطابور فى حضوره طابع متميز:

لابد أن يستعرض العساكر والإخوان أفضل ما عندهم من أداء فى المشي والخطوة السريعة، ليتأكد من وجود الضبط والربط..

وجاء القائد..

والتعليمات عندنا أن نقف للجندي وقوف انتباه وتحية، حتى يأذن هو بالحركة، أو يفرغ من توجيه أسئلته، ثم يأذن بالعودة إلى العمل، أو الانصراف إلى أماكننا – كان هذا مع الجنود، فما بالك بالقائد؟!!

تابعت كتابة الأسماء، بينما أمر القائد بعض الجنود الواقفين بنقل بطانية عليها جراء توسكا إلى الشمس، وجلس هو على مقعد يراقبها..

ومن وقت إلى آخر كنت أخالسه النظر، فأحس عينه تتركز أكثر ما تتركز على وجه توسكا، وعلى عينها المصابة..

وبعد قليل وقفت وقفة انتباه مستأذنًا فى الكلام:

- تمام يا أفندم.

- فيه أيه؟

- فى أثناء مراجعة الكشوف والمهن، وجد فى المعتقلين طبيب بيطري، يمكن أن يساعد فى معالجة وتعهد الكلاب.

وبدا على وجهه شيء من الارتياح ثم سأل: ما اسمه؟

- د. عبد المجيد عجمي.

فأمر العسكري الواقف إلى جواره بالذهاب إلى قائد الطابور لإيقافه وإحضار الطبيب..

لم يكن أمامي - فى تصوري - إلا هذا التصرف..

سيجلس ويطول جلوسه متأملاً الجراء الجديدة، الطابور فى سيره وجريه وعودته سيتكرر، بكل ما يحمل من تضييق وإرهاق.

مجرد رؤيته كانت عقابًا لجميع الموجودين..

وجاء د. عبد المجيد باهت الوجه، فالاستدعاء يرتبط ذهنيًا بكل السلسلة الملعونة ؛ التحقيق، التعذيب، المحاكمة، السجن.. إلخ، والمهم فى هذا كله هو التعذيب، وهو أقرب المراحل، ويتداخل مع التحقيق.

ونظر إليه القائد قائلاً:

- أنت طبيب بيطري؟

- قال: نعم يا أفندم

- قال: أمتحنك؟

- فقال: جاهز يا أفندم.

- قال: ما فصيلة توسكا -وأشار إلى الكلبة الأم.

فنظر إليها د. عجمي بإمعان ثم رد:

- خليط من الوولف والفوكس تيرير Fox Terrier

فابتسم القائد.. إذن هو يعرف الابتسام؟! ثم قال: تكشف عليها.

- قال: جاهز يا أفندم، أحتاج إلى معونة فى مسكها، فهذه أول مرة أتعامل معها.

وامتدت يد حمزة إلى رأسها تربت عليه، ثم فتح فمها، ونظر فيه الطبيب، وتابع الكشف، ثم قال:

- تحتاج إلى مزيد من اللبن وقطرة أرجيرول للعين، ومقويات.

- فقال القائد: اكتب الروشتة ويأخذها العسكري إلى المكتب، ثم قال بصوت مرتفع آخر:

- يا شاويش، زنزانة عجمي تظل مفتوحة طوال النهار فى أي وقت يحب أن يتصل بي من أجل الكلاب يتصل.. فى أي وقت يحب أن يذهب إلى الكلبة وأولادها يذهب، أي شىء لتوسكا وأولادها تبلغه لعجمي.

ثم انصرف..

وتنفسنا الصعداء..

ونظر إليّ د. عجمي فى عتاب:

هكذا تعملها؟ ستظل هذه شغلتي حتى نخرج من المعتقل.

- قلت: لم تكن أمامي وسيلة لإنهاء الطابور، وعودة القائد إلى المكاتب، واطمئنانه على توسكا.. إلا ذلك.

- فقال: الله المعين..

وللقائد حاشية من الكلاب تحتاج إلى رعاية، ولا مانع عنده من الاستعانة بالطبيب فى رعاية كلاب الأصدقاء إذا جاءت معهم إلى السجن.

ويبدو أن نجاح عجمي فى رعاية توسكا قد شجع القائد على الثقة فى قدراته العلمية، التى كانت تنقل عن طريق الجنود على النحو الآتي: أولا:

توجيه من المكاتب لإحضاره، ويصرخ العسكري إذا لم يجد د.عجمي أمامه:

- فين بتاع الكلب !!.

وتطور النداء فأصبح: عجمي.. ومعناه عجمي مطلوب لرعاية حيوان من الحاشية.

ونسي العساكر أن هذا الرصيد من الوفاء محفوظ لدى الكلاب، وإن ضاع عند بعض الناس..

وتمر الأيام، وتتراخى شدة التعذيب.. ثم تعود الموجة، ونخرج لطابور سير شديد فى الفناء الرئيسي للسجن.. واقترب كلب من د.عجمي وهو فى الطابور، يدفعه وفاؤه لمن أشرف على علاجه.. وحاول د.عجمي أن يصرفه بيده، وظن العسكري أن عجمي يلاعب الكلب، فإذا به يرفع السوط ويهوي على ظهره.. وما شعر إلا والكلب قد اندفع نحو العسكري فى وحشية، دفعته إلى الصراخ والجري.. ومع الصوت المرتفع صدر أمر من القائد بإيقاف الطابور:

لماذا يجري العسكري ويصرخ؟

وتكشف الأمر دون كلام، عندما نظر الضابط إلى د.عجمي وعرفه، واندفع العسكري يقول:

- وجدت المعتقل يحرك يده للكلب فضربته، فهجم علي الكلب..

ليس عجيبًا أن يكون من كلام الله آيات عن كلب وفي، أبى أن يترك أصحابه المؤمنين:"**وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد**" (الكهف:١٨)، وتدخل الآيات الكريمة فى إحصاء عدد من فى الكهف فيقول الله تعالى:"**سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل**" (الكهف؛ ٢٢).

أما ما حدث للجراء بعد ذلك، فيبدو أن القائد وزعها على أصدقائه، وأعاد توسكا إلى المكاتب.. وجعل توالدها هناك.. وإليها ينتقل الطبيب..

وظلت الكلاب جزءًا من حياته..

هل كان يفتقد حب الناس؟

أعلم أن أكثر من أسرة رفضت زواج بناتها منه خوفًا من بطشه، ولهالة الدم المحيطة به...

هل كان يحس بهذه العزلة النفسية فيهرب من عالم الإنسان إلى عالم الحيوان؟!

الحيوان الذي لم ينج من بطشه، فكان يجازيه أحيانًا بالعقاب، أو يحكم عليه بالسجن.. فى داخل السجن؟!..

ومع الحيوان.. من كان أكثر وفاء للآخر؛ القائد أم الكلاب؟!

يوم جمعة.. طويل

اليوم يوم جمعة..

أمر الشاويش بفتح زنازين السجن الكبير، والقيام بتنظيف عام: وضع البطاطين فى الشمس، والاستحمام، وغسل الملابس.

وسرت موجة حياة وصعود وهبوط بين الأدوار، أو على الأصح بين الدورين الأول والثاني، ذلك لأن الثالث كان قد فرغ ممن فيه مع اقتراب انفراج هذه المحنة الطويلة..

ويبدو أن الشاويش أراد أن يبدي أنه يظهر المزيد من الشعور الطيب، فسمح للإخوان بشىء من اللعب والرياضة، وعندما اقترب المغرب تطلعت الأعين إلى صلاة المغرب جماعة فى فناء السجن..

وعند هذا أحسست الخطر، واحتمال انتكاس أوضاعنا، وقد قاربت أيامها على الانتهاء، ونصحت إخواني بالاكتفاء بما قاموا به، ولا داعي لصلاة المغرب جماعة، واستند الكثيرون إلى تصريح الشاويش كأنه تصريح رسمي، وأدوا صلاتهم، وتركتهم وبعض الإخوان، وصلى كل منا فى زنزانته.

وانتهى اليوم وأنا أحس بالقلق: ماذا يخبئ لنا الغد؟

وصح ما توقعته..

جاءت بعثة من ضباط المباحث، بالإضافة إلى من فى السجن الحربي، وبدأت الأسئلة عما حدث بالأمس، وذلك بعد أن مر الضباط على الزنازين وسألوا كل واحد عن اسمه وعمله وبلده.

واستدعاني أحد كبار ضباط المباحث فى حوار طويل حول الأمس، وحضر الحوار ضابط من السجن الحربي..

وسأعود إلى هذا الحوار بعد قليل.. أقول:

إن النتيجة التى انتهينا إليها بعد هذا اليوم هي صدور أمر بالحبس الانفرادي على بعض الإخوان لمدة أسبوعين فى زنازين الدور الثالث، وعم السجن الكبير وجوم بعد هذه الفرحة السريعة.

ولم يكن هذا الحوار الطويل الذي تم معي حينها يقابل بكثير من الرضا من بعض الإخوان، ذلك لأني كنت -ولازلت - محافظًا فى القول، بل متحفظًا فيه، وحين تخرج الكلمة من فمك تصبح أنت أسيرها بعد أن كانت أسيرتك.

أول ما سألني عنه الضابط هو:

- لماذا أنت فى هذه الزنزانة بالذات؟

- قلت: التوزيع على الزنازين ليس فيه اختيار، الشاويش هو الذي يقوم بذلك، وعندي استعداد للانتقال فورًا إلى أي زنزانة أخرى.

- قال: ألا تود البقاء فيها؟

قلت: ينتهي الاختيار عندما يترك الإنسان بيته.

ولست هنا فى مجال المفاضلة، لقد كنت قبل هذا بفترة فى مستشفى السجن، ودخلت بأمر، وخرجت بأمر، وعند الخروج وقفت طابورًا، وجرى التوزيع على الزنازين على أساسين ؛ ترتيب الواقفين فى الطابور، والفراغات الموجودة فى الزنازين.

- قال: ألا تحس أن توزيع الإخوان فى الزنازين يحمل معنى إقليميًا أو مهنيًا؟

وأحسست بالإطار الذي يفكر فيه..

نحن على الأرض الضحلة بعد أن اجتزنا الموج الكبير، فهل كانت هذه المرحلة هي الموجة الجديدة التي تعيدنا إلى وسط البحر مرة أخرى؟ ماذا يريد؟

قلت: طبيعي عندما يقل العدد، وتعطى للأفراد فرصة للاختيار، يتجمع أبناء البلد الواحد أو المهنة الواحدة.. وإن كان هذا لم يحدث إلى الآن، وإن كانت هناك بعض المصادفات فهي محدودة.

قال: ألا ترى فى هذا نوعًا من التنظيم؟

قلت لنفسي: أي تنظيم؟ هل يريد اتهامنا من جديد فى قضية تنظيم داخلي، مصيبة جديدة..

قلت: إنك بهذا تضفي على المعتقلين قدرة ليست فيهم، ومستوى من التحمل فوق طاقة البشر، هل يستطيعون بعد كل الذي مر بنا أن نقوم بتنظيم داخلي؟

وتابعت حديثي: ثم إن هذا التنظيم الذي تتصوره لو كان مدحًا لقدرة الإخوان على العمل فى ظل هذه الظروف، فهو إدانة واضحة لإدارة السجن الحربي التى لا تتركنا ليلاً أو نهارًا.

ولنفسي أقول: سجن حربي يقوده حمزة البسيوني بالسلطات المطلقة التى يمارسها، ويستطيع أن يقول كما قال الذي حاج إبراهيم فى ربه: أنا أحيي وأميت... جلودنا وحواسنا تحت سوطه، يمارس ما شاء له الطغيان قهرًا وإذلالاً وتحطيمًا لمعنوياتنا.. ماذا يبقى من الحطام بعد هذا الإعصار البسيوني؟! وبعد هذا يفكرون فى قضية تنظيم داخلي!!

قال: لقد عشت قضايا كثيرة ويستطيع المساجين أن يعملوا الكثير؟

قلت: لقد رأيت سيادتك قضايا كثيرة، ولكني – إذا أذنت لى بسؤال، وهذا غير متبع فى هذه المواقف – هل رأيت سيادتك نظامًا يعيش المساجين فى ظله كهذا النظام؟ وهل يسمح بما تتصوره سيادتكم؟ إنني أترك الإجابة عن هذا لنفسك.. ولكني أقولها محقاً: لم يبق هنا فى السجون إلا حطام بشري، بعد كل ما مروا به، وما تعلمه سيادتكم من تفاصيل أكثر من علمي؛ لرؤيتي لها من مكان واحد، ورؤيتكم لها أماكن متعددة.. وإذا أذنت لى بكلمة، فأرجو أن تكون ملاحظاتك وآراؤك مجال حوار مع قيادة السجن الحربي..

وانتقل الحديث إلى شيء آخر..

ولقد كان من توفيق الله أن الموضوع انتهى عند هذا الحد..

ولكني فوجئت بسؤال:

لك كتاب مطبوع فى العراق اسمه "البناء والهدم فى الدعوات" هل علمت بذلك؟

قلت: نعم، مقالات مطبوعة ومنشورة فى جريدة الإخوان، جمعت فى العراق، وكتب لها الأستاذ محمد محمود الصواف مقدمة، ونشرت حتى بأخطائها المطبعية التى يتغير بها معنى عدد من العبارات.

قال: إن هذا كتاب خطير.

قلت لنفسي: وهذه تهمة ثانية، فلنأخذ الموضوع بشىء من الترفق، وعسى الله أن يهدينا سواء السبيل، كما هدانا فى موضوع التنظيم الداخلي فى السجن الحربي..

قلت: إنها مقالات منشورة، وليست منشورات سرية، ثم هى منشورة هنا فى القاهرة تحت سمع الحكومة وبصرها، وما راجعني فيها أحد حتى اليوم، ولست أدري ما الذي فتح هذا الموضوع القديم؟

قال: إنها تعتبر قواعد لتنظيم الجمعيات وكيفية معالجة مشكلاتها التى تنشأ بين الأفراد وبعضهم بعض، أو بينهم وبين قادتهم، أو بين القادة بعضهم وبعض، وفيها تحريض على نظام الحكم.

ثم قال: هل آراؤك لا زالت كما هي فى هذا الكتاب؟

قلت: أود أن تفرق بين أمرين:

الأول ؛ أن الكتاب يعتمد اعتمادًا كاملاً على تحليل لآيات من القرآن الكريم أو أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم- ونماذج من صدر الإسلام -قريبة من المشكلات المعاصرة التى يقابلها العامل فى الحقل الإسلامي أو الحياة العامة، وهو بهذا لا يعدو أن يكون دراسة إسلامية.

الثاني ؛ الظروف التاريخية التي كتب فيها الكتاب..

قال: إنكم فى تفسير القرآن والأحاديث توجهونها توجيهًا خاصًا يتفق مع أهدافكم. ثم موضوع الظروف التاريخية التى كتب فيها الكتاب؟ وما علاقة ذلك بنظام الحكم والتحريض عليه؟

قلت: العلاقة وثيقة، وسأبدأ بعد استئذانك بالشق الثاني من سؤالك:

لقد بدأت كتابة هذه الدراسات فى معتقل الهايكستب فى عام ١٩٤٩ وأتممتها فى معتقل الطور فى نفس العام، وأذكر أنها كانت في أيام رمضان..

وبعبارة أخرى؛ كانت الكتابة قبل قيام الثورة، فى ظل النظام الملكي، فإذا كان هناك من تحريض على نظام الحكم، فقد كان تحريضًا على نظام الحكم الملكي القائم، وإذا كنت وقتئذ أنقد هذا النظام وأهاجمه، فقد كنت فى ذات القارب الذي تعمل فيه الثورة التي نعيشها الآن.. فهل أحاسب فى ظل الثورة على أني كنت أهاجم حكم فاروق وبطانته، وهو الحكم الذي أشعل ثورة ١٩٥٢.

كنت أتصور محاسبة على هذه المقالات من حاشية فاروق، أو حكومة موالية له، أما أن أحاسب من حكومة الثورة فشيء لا أستطيع فهمه.

ودعني، إذا أذنت، أكون أكثر صراحة: ماذا لو جاءك أمر بالقبض على من يعملون ضد فساد فاروق وهو حي فى سلطانه، وأنت مسئول كبير فى المباحث؟

لقد كنت تقبض علي، وتقبض على غيري من الكتاب، ولو استطعت الوصول إلى مجلس الثورة والقبض على أعضائه لفعلت.. هذا عملك وواجبك الحكومي، أنت تؤدي واجبًا، أما أنا فلي موقف.. وهذا هو الفرق بين أداء الواجب الرسمي، واتخاذ الموقف المنبعث من داخل النفس.

ولكن من حقك أن تحاسبني على ما صدر مني بعد الثورة، فهل هناك ضدي أي شيء ابتداء من يوليو ١٩٥٢؟

قال: لا، لم تكتب شيئًا تؤاخذ عليه.

قلت: إذن موقفي واحد لم يتغير، وأنت فى أداء واجبك تؤديه بإخلاص فى نطاق واجبك، ولم تتغير أيضًا.. فأين مجال المحاسبة؟

وكان ضابط السجن الحربي يتابع هذا الحديث الطويل..

وصمت بعض الوقت.. ثم قال:

والذي حدث بالأمس؟

قلت له: من أجله جئت سيادتك اليوم، وهذا ما كنت أحاذره..

قال: أعلم أنك صليت فى زنزانتك وعدد قاموا بذلك.. والأغلبية صلت جماعة.

قلت: واضح أن المعلومات عندك كاملة.

قال : أود أن أعرف ماذا حدث؟

قلت: ما حدث لم يكن سرًا، كان فى ساحة السجن، وهو أمر أخباره عندك كاملة، وأمام جميع الجنود، وبإذن الشاويش، ورغم هذا لم أحب أن أشارك فيه، فليس كل ما يصرح به يكون محل قبول..

ولنفسي أقول: ذلك لأنه قد يكون مجرد اختبار، ماذا يعملون لو أعطيت لهم حريات أوسع؟!

ثم قلت: والمشكلة ليست هنا، ولكن فلتكن توجيهات الشرطة أوضح، هل ينقطع كل أخ عن كل إخوانه فلا يلقاهم؟ أم تظل هذه الروابط، ولكن دون أن تتحول إلى تنظيم، أو تدخل فى نطاق المحذور.. هل نقطع الأخ عن كل من يعرف عن طريق الإخوان؟

قال: ليس هذا طبيعيًا، والخطورة فى التجمع أو المحافظة على علاقات لا تبررها الحياة اليومية..

قلت: وعلى هذا الطريق الضيق حدثت كثير من المحاذير، وحاق الضرر بكثيرين..

كانت الوجوه متصلبة شريرة، وفي الأعين نظرات عطشى إلى الإيذاء والدم، وفي الأيدي سياط ذكرت معها حديث رسول الله –صلى الله عليه وسلم – لأبي هريرة: "يوشك إن طالت بك مدة أن ترى قومًا في أيديهم مثل أذناب البقر، يغدون في غضب الله، ويروحون في سخط الله" رواه مسلم.

كانوا حاقدين على أي شيء وعلى كل شيء.

إذا ما جاء جديد تبدو عليه آثار النعمة ضربوه لما عنده من نعمة، وإذا عرفوا أنه متعلم اشتعلت قلوبهم حسدًا منه، وضربوه لعلمه، وإذا كان ممتلئ الجسم تلذذوا بضربه لامتلاء جسمه، وإذا ما كان رياضيًا آذوه وسعدوا بأن يجدوا آثار

الألم بادية على وجهه، وإذا ما كان فقيرًا ضربوه، ما الذي رماك على هؤلاء؟ ومالك ولهم؟ كأنما يعاقبوه لخطئه وجهله.. ويمضي اليوم في الإيذاء وتلمس أسبابه..

وصدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم: "يغدون في غضب الله، ويروحون في سخط الله".

(عسكري سليمان)

كان ممن لقيت فى السجن الحربي، متوسط القامة، قمحي اللون، عريض الكتفين، متماسك البناء، ضخم اليدين، نصيبه من العلم شديد التواضع، حتى الأسماء كان يجد صعوبة فى تذكرها المباشر، مما سبب لنا مشكلات كنا فى غنى عنها.. ويكفي ما نلقى من إرهاب وإرهاق..

وكان يحلو لبعض مسئولي التحقيق أن يمارسوه ليلاً، فيحضر أحدهم إلى المكاتب، (ويقصدون بها إدارة السجن)، ويطلب اسمًا معينًا، ويملي الضابط الاسم تليفونيًا على عسكري سليمان، فينسى جزءًا منه ويتذكر الآخر، ولا يستطيع خوفًا من المكاتب أن يقول إنه نسي من الاسم جزءًا فينادي بما وعى، ويكمل الباقي بتموجات صوتية، كأنها تلحين لبقية الاسم الذي سمعه.. ولنضرب مثالاً يوضح المشكلة عنده.. الاسم المطلوب حسين إبراهيم السلماوي، فيركز على الجزء الأخير تركيزًا ينسيه جزءًا من القسم الأول أو الأوسط، وفى سرعة وقبل أن يزداد الجزء الطائر من الاسم ينادي حسين.. إيم.. أماوي، ويكرر فيه: حسين إيم أماوي..

ولابد من الإجابة، وإلا ازداد الليل سوادًا على الجميع، وبدأ إيذاء جنوني.. فلابد من الوصول إلى حسين إيم أماوي هذا..

ويخرج اثنان أو ثلاثة تلتقي أسماؤهم مع الأجزاء المتبقية مما حفظ عسكري سليمان.. وقد يخرجون معًا، فيبقي هناك واحد ويعود اثنان.. فذلك _ عمليًا - أفضل من عدم استجابة صاحب الاسم المطلوب، ولو كان عن طريق الخطأ.

تكررت القصة، وتكرر الإرهاق، واخترنا أحدنا ممن يحسن التفاهم مع عسكري سليمان.

أنت تسهر وحدك وأنا إلى جوارك فى هذه الزنزانة، ويمكن أن أسهر معك إلى منتصف الليل، فإذا طلبوا أحدًا، وضعت أذني قريبة من سماعة التليفون، وسارعت بكتابة الاسم، وتقوم أنت بالنداء عليه وأنا منك قريب.. جرب هذا ليلة واحدة وسترى النتيجة..

ومن حق الفكرة أن تأخذ طريقها البطيء الطويل إلى عقل عسكري سليمان، وأن ينظر بريبة أولاً إلى هذا الموضوع، وتضيق عيناه الضيقتان، ويهز رأسه، وترتخي شفته السفلى قليلاً، ويهرش رأسه، يحرك (البيريه) فوقها إلى أمام وخلف، ويدعك عينه، ثم يهرش أنفه، ويمر بيديه على ذقنه.. من حقه أن يصنع هذا كله، وأنت واقف أمامه فى هدوء، وهو ينظر إليك تارة وإلى الأرض تارة، ثم يرفع نظره إليك بطيئًا بطيئًا، ثم يفتح الله عليه بالقبول.

وجاء الليل، وتمّم عسكري سليمان على الزنازين، ثم ذهب إلى الزنزانة المجاورة لمكتبه، وفيها صاحبنا، وفتح له الباب، وأجلسه إلى جواره والتليفون بينهما، ومر بعض الوقت، ورن جرس التليفون:

- أفندم سجن ٣.

وفى سرعة وُضعت السماعة بين أذنيهما:

- إبراهيم محمود حسين.

- على حسن الحلواني.

- عادل محمود جمال الدين.

وصاحبنا يكتب الأسماء الثلاثة فى سرعة، ووضع عسكري سليمان السماعة، وهو يقول مخاطبًا الضابط الذي لا يسمعه فى المكاتب ناظرًا إلى السماعة السوداء الغليظة:

- ثلاثة أسامى مرة واحدة يا جبار !!

وأطلق زفيرًا طويلاً من صدره، وهو يرى الأسماء الثلاثة مكتوبة أمامه، وقد أخذت ابتسامة عريضة تملأ وجهه، فتبرز بها وجنتاه الغليظتان، ويتحرك شاربه المتناثر الشعر..

وقام فى زهو وصاحبنا إلى جواره وهو يقول: اسم.. اسم.. واحد.. واحد، وعلى مهلك.

وبدأ النداء واثق الصوت واضح النبرات.

وأحسن عسكري سليمان معاملة المطلوبين للتحقيق، يكفي أنه لم يمد إليهم يدًا بالسوء، ولم يشف غليل ذاكرته الضعيفة.. يكفي هذا..

وتكررت القصة، وأحس العسكري بشيء من عرفان الجميل لصاحبنا، وبدأ يأنس بالحديث إليه، وهذا ممنوع ممنوع.. الاتصال بالمعتقلين.

ويقول له: فى المكاتب يقولون لنا :"المعتقلين مختلسون.. مختلسون للدولة"، تريدون اختلاس الحكومة.. أخذ الحكومة.. وأنا أشوفكم طول النهار والليل صلاة.. صلاة.. قرآن.. قرآن.. لا تتعاركون، لا تتضاربون، الزنازين نظيفة، كلامكم نظيف.

ويقول له صاحبنا: اعمل ما يرضي الله قدر ما تستطيع..حتى الكلمة الطيبة.

ويقول العسكري: الأوامر عندنا ضرب المعتقل حين الحضور.. لازم يشرب شاي.. يشرب شاي يعني ينضرب.. أوامر.. الذي لا ينفذ الأوامر ما يكون عندهم راجل.. يؤذونه.. النفر منا (أي الواحد منا) يا ضارب يا مضروب.. ربنا يتوب علينا.. والله ما تستحقون الضرب.. باين عليكم ناس طيبون.

وكان على العسكري سليمان أوامر إذا جاء معتقل جديد أن يضربه كتحية قدوم.. فنجان شاي ثقيل.

كثيرون كثيرون شربوا من يده فناجين الشاي الثقيلة، وتركت سياطه على ظهورهم وأكتافهم آثارها.. آثارًا أقوي من الزمن..

وأخذ الضيق بالأذى يسري فى نفسه، فكانت له أوقات يقضيها واجمًا عندما يجلس مع صاحبنا فى المكتب ليلاً ينتظران نداء الأسماء.. ثم يرفع وجهه ويطيل النظر إلى صاحبه، ثم يطرق ويطيل النظر إلى الأرض، وإلى سطح المنضدة الكالح.. وهذا الشق الطويل فيها كأنه ضربة سوط..

وفى ليلة سأل صاحبه: هل يعذبني الله على هذا الضرب والأذى؟ أنا مأمور، إذا لم أضرب المعتقلين يعاقبني الضابط.. يضربوني.. يحبسوني..

فقال له صاحبه: إذا استطعت بعد خروجك أن تبتعد عن هذا العمل كان أفضل، وإذا استطعت الآن أن تخفف عن غيرك دون أن تتعرض للإيذاء، كان لك عند الله ثواب..

وعاد العسكري إلى صمته الطويل، ومرت الليلة..

وفى الغد كان الموضوع حيًا في ذهنه، ودفعت إليه المكاتب معتقلاً جديدًا كان عليه أن يضربه،.. وأطال النظر إليه، وأمره بالوقوف خارج الحجرة وقال لصاحبه:

ما العمل الآن؟

وتابع حديثه:

خذ هذه البطانية ولفها وضعها على الأرض بجانب المعتقل.. سضربه ضربًا خفيفًا، ثم اضرب على البطانية ضربًا شديدًا قل له يصرخ أولاً بصوت منخفض وكلما اشتد الضرب على البطانية يرفع صوته لو سألوه فى المكاتب يحلف أننى ضربته.. لو اعترف بما حدث نذهب كلنا فى داهية اجعل أصحابه بعد هذا يخربشونه ويضعون مكركروم على بعض أجزاء جسمه.. ربنا يستر..

وبكل السرية والتعتم كان يتم ذلك كلما جاءت الفرصة. أما إذا كان الإيذاء أمام أحد رؤسائه أو زملائه فالأمر يختلف.. وتمر الأيام، وتزداد السياط على البطانية وتقل على الداخلية.. ولم يخل الأمر من طرائف: ففى ليلة بدأ الضرب على البطانية وبدأ معه صراخ مرتفع من المعتقل فتوقف عسكرى سليمان غاضبا وقال:

هذا معتقل غشيم إذا كان يصرخ الآن من قاع زوره فماذا يعمل بعد قليل؟ قوله يبتدئ الصراخ بالهداوة.. ثم يرفع الصراخ بالتدريج. أكد عليه بكتمان الأمر.. ولا تنسوا الخربشة والمكركروم.. ربنا يستر.

فى طريق جديد.. جديد.. وحدثت نقلات وذهب هذا الشاب عنها..

ولا أنسى في آخر لقاء، كيف ترقرقت فى عينه دمعة حاول جاهدًا أن يحبسها، وكيف أشرق الوجه الصخري القديم عن بسمة، وهو يقول لنا مودعًا وبصوت خفيض: نراكم بين أهاليكم إن شاء الله..

وشيئًا فشيئًا بدأ الخير يدخل نفس سليمان..

وكان عليه واجب يؤديه؛ أن يسقي أي معتقل جديد كوبًا من الشاي، وتختلف الأكواب ؛ شاي ثقيل، خفيف، كوب صغير، كبير..

هذه هي الرموز المقابلة لحفل استقبال الجدد من المعتقلين بالسياط والعصي.. وإذا ظهر من المعتقل أي نوع من الدفاع، ورفع يده أمام العسكري -حل به عذاب جديد: أترفع يدك فى وجهي !! بعد قليل تضربني !! خذ.. خذ.. وينهمر الضرب كالشلال المجنون.. وقد يشترك فيه أكثر من واحد، ولا يتركون المعتقل إلا وهو طريح على الأرض.

بعض الأوقات كان أفضل من بعض، فضيوف الصباح حظهم سيىء، فعندما يكون العسكري فى نشاطه وقوته، ويريد أن يستعرض عضلاته أمام بقية المعتقلين أو أمام زملائه.. وإذا كانت على المعتقل توصية كان حظه أكثر سوءًا، فضابط التحقيق يريد أن يراه بعد الشاي، ويتأكد بنفسه من شدة الإصابات، وهي أحيانًا لا تقصد لذاتها، وإنما لإرغام المعتقل على الاعتراف بشيء حدث، أو شيء فى ذهن الضابط.. لا فرق.. ما فائدة اعترافات متناثرة لا يستطيع الضابط أن يكون منها جهازًا سريًا، أو مجموعات عاملة يقدمها إلى المحاكمة؟

فى مراحل التحقيق تتشابك الحقائق مع الأوهام مع المخاوف والظنون، وأين اليد التي تستعصي على التوقيع أخيرًا؟ الثمن غال جدًا.. ومن الذي يحاسب على عاهة مستديمة ظاهرة أو خفية؟

كانت تمر هذه الأطياف أمام ذهن سليمان وناظريه واضحة أو مبهمة، وهو قد اشترك فى الضرب..ضرب كثيرًا كثيرًا حتى بدأ يضيق بالضرب والإيذاء ...

وفى ليلة من الليالي غلبه شيء من الإحساس بالإثم، وأخذ يفكر؛ كيف يستطيع التخفيف على هؤلاء دون أن يؤذي نفسه؟ لو تهاون فى الضرب، وعرف الصول أو الضابط عنه لأذاقوه العذاب..

كيف يمكن أن يصرخ المعتقل من الضرب بصوت عال دون أن يؤذيه كثيرًا؟ لابد من اتفاق أو تفاهم:

- أنت تقول للمعتقل الجديد إنني سأضربه ضربًا بسيطًا، ويصرخ هو بصوت مرتفع.. مرة أضرب على جسمه، ومرة على الأرض أو بطانية وضعت خصيصًا لذلك، وأنتم بعد هذا تخربشون جسمه، وتضعون عليه ميكروكروم (مادة مطهرة)، وتظهر الإصابات كأنها كبيرة. احرصوا على ألا يقول هذا لإخوانه، نروح فى داهية كلنا لو حضرة الصول أو حضرة الضابط عرف..

وبدأت هذه المسرحية فى تكتم شديد، وبخاصة لغير المطلوبين فى المكاتب طلبًا عاجلاً.. فعين الصول والضابط خبيرة بعمق واتساع وطول الضربات، ويستطيعان فى سهولة كشف التزييف..

وزادت الجرأة، فكان يضع بطانية قريبة يضرب عليها، كأنه يضرب المعتقل مع توصيته بأن يتدرج فى الصراخ.. وتحدث الخربشة والصبغ بلون المطهر الأحمر. ولكن الأمر يختلف إذا كان الإيذاء أمام أحد رؤسائه أو زملائه. وأخذنا فى هدوء وبمنتهى الحرص نحاول استمالة عسكري آخر.. وكان هذا كله يتعرض للضياع حين تحس الإدارة بأي بادرة من بوادر الهدوء فى المعتقل، فتسارع بنقل وتبديل العساكر، وتأتي بوجوه جديدة لا نعرف عنها شيئًا.

وتركنا عسكري سليمان، وعلى فمه ابتسامة، وفى وجهه صفاء، نظر إلينا مودعًا، وعينه تطرف مسرعة نحو الباب، خشية رؤية ضابط فى تفتيش مفاجئ.. واختفى عن أنظارنا، فلم نكن نراه إلا فى الطوابير العامة.

(لمحات إنسانية)

كانت أول لمحة إنسانية نظرة من وجه محمود..

جندي حديث السن، هادئ، سمح الوجه، كان عليه أن يعتني بحجراتنا فى الاعتقال السابق من يناير إلى مارس ١٩٥٤ فى السجن الحربي.

وإذا كان هذا الاعتقال القصير بدأ عنيفًا، ثم تغيرت المعاملة، فقد كان إنذارًا حقيقيًا، وصورة لما يمكن أن تكون عليه المعاملة حين تسوء العلاقة بين السلطة والإخوان.

كان على محمود أن ينظف الحجرة، ولكني ما أعطيته الفرصة ليفعل ذلك يومًا، وكان الأخوة حولي يضحكون - أو بعضهم على الأصح - والبعض كان يعامل الجنود بشيء من التعالي..

وكنت أقول لنفسي: ماذا يستطيع هذا الجندي أن يعمل؟ إنه ينفذ أوامر تلقى إليه، ولو تأخر عن تنفيذها ناله العقاب، إنه يؤذينا خوفًا من أذى يلحق به.. وقد يحلو فى عينه أن يؤذى الناس بعد هذا، وتنحرف طبيعته عن الخير..

كان محمود يأتي فى الصباح لتنظيف الزنزانة الصغيرة، فيجدها نظيفة فيبتسم قائلاً: أنا أقوم بذلك..

فأرد قائلاً: هذه تسلية يا محمود.

وتدور عينه فى الحجرة، فأشير أحيانًا إلى المائدة الصغيرة، وعليها أي تحية رمزية: بعض عصير الفاكهة، قطعة من الحلوى أو الشيكولاته الصغيرة من هدايا كانت ترد إلينا.. وأقدم إليه هذه التحية فيتقبلها مسرورًا.

وكنت أقضي معظم الوقت فى قراءة القرآن، أو بعض المراجع العلمية، عندما سمحت إدارة السجن بذلك..

وكان أحيانًا يجد من وقته ما يحدثني فيه عن أهله وإخوته، كما يتحدث الابن إلى والده، أو الأخ الأصغر إلى أخيه الكبير.

وعندما جاء الأمر بخروجنا من المعتقل وجدت فى عينيه دموعًا، ولم يتمالك نفسه، وشد على يدي بيديه وهو يقول بلسانه ودموعه: مع السلامة..

وتمر الأيام وأعود إلى الاعتقال الطويل، فى أواخر عام ١٩٥٤، ويفتح محمود باب زنزانة بوجه متجهم، فإذا بعينه تقع علي.. فيتوقف، وتختلج عيناه بالحزن، ولا يستطيع أن يتكلم..

وتغلق الزنازين، فيتسلل إلى زنزانتنا حاملاً بعض الشاي، يضعه فى صمت ثم يخرج، وهذه وحدها مغامرة..

فقلت له:حافظ على نفسك، ولا داعي لحضورك..

ولكنه كان يحاول بشتى الطرق أن يقدم لنا بعض هذه الخدمات البسيطة؛شىء من الشاي، بعض الإكرام فى توزيع الطعام.

وكان علينا أن نحمل أواني الطعام، فكان يحاول جهده أن يجنبني الإيذاء البدني، ولكن إذا انحرف هذا الإيذاء عني، فعلى غيري يقع.. وكلنا جسد واحد..

وأذكر مرة أن إدارة السجن صنفتنا بحسب الحروف الأبجدية ونادوا على معتقل يبدأ اسمه بحرف العين فلم يرد.. والوقت ليل.. وأين هو.. والمعتقلون يردون كل يوم، وفى أي وقت.. هل جاء أم لايزال فى أقسام البوليس؟ لا أحد يعلم..

واشتد غضب حضرة الصول، فأمر بضرب كل أصحاب الأسماء التي تبدأ بحرف العين.

أصدر أوامره بأن يقف جميع الذين تبدأ أسماؤهم بحرف العين، وجوههم إلى حائط الزنزانة وظهورهم إلى الباب، وكنا فى نحو منتصف الليل، وكنا نكون ضلعًا طويلاً من أضلاع السجن الكبير فى الدور الأول العلوي، فوق باب الدخول..

كان فينا المرضى، والمضروبون، والصغار.. فماذا نصنع؟

ودون اتفاق سابق، وكما علم بعضنا من بعض فيما بعد، وضعنا المرضى مجاورين للحوائط، وصفت كل مجموعة نفسها لتحمي المريض الذي فيها، أو الشاب الصغير، وكأنه بطانية ملفوفة ملقاة، وانهالت الضربات على ظهورنا..

ولكننا كنا نحس أن التعذيب ليس كله جادًا..

فالأمر الصادر سخيف، نوع من الظلم الغبي !! حتى الجنود كانوا ينفذونه، أو بعضهم على الأصح بشىء من الاستهتار، فعنف الضربات يختلف عما تقاسي منه أجسامنا فى طوابير الصباح والمساء، فضلاً عن الدخول والتحقيق.

وتمر الأيام، ويضيق بعض الجند بالتعذيب..

كنا نقوم معهم بخدمات المعتقل ؛ كتابة أسماء الدخول، حصر الأمانات العينية والمالية، إعداد الذاهبين إلى التحقيقات بالقلعة بأقل قدر من الإزعاج، توزيع الطعام، التنظيف.. وبعد فترة ؛ كتابة خطابات الجنود إلى أهليهم، وهذه قصة أخرى...

ولم يجد الجند منا بعد هذا كله إلا عكوفًا على الصلاة والعبادة وقراءة القرآن..

وعندما انتقلنا من السجن الكبير إلى سجن ٣ بعد دخولنا بفترة قصيرة، وجدنا نظرة أخرى؛ كان هذا السجن على صغره، الباب الواسع الموصل إلى المحاكمات وما وراءها من أحكام الإعدام والسجن المؤبد والطويل والقصير..

حجم السجن بالنسبة إلى السجن الكبير محدود، الزنازين تبلغ نحو الثمانين فى دورين، بينما الكبير فى ثلاثة أدوار وبه نحو ثلاثمائة زنزانة.

وأول ما لاحظته فيه، أنك تستطيع فى شىء من الطمأنينة أن تذهب إلى دورة المياه.. أن تغسل وجهك وتتوضأ، دون أن يلاحقك كرباج الجندي.. وهذه وحدها تكفي..

كان الجنود يشعرون أن هؤلاء جميعًا مرشحون للموت والسجن، وكانت النظرات إليهم نظرة مودع.. إلا إذا طلبت إدارة السجن أو المكاتب -كما كانت تسمى- أحدًا منهم..

أذكر صورة وقت العصر فى الفناء المؤدي إلى الحمامات؛ بالقرب منه سلم يهبط إلى سرداب.. سرداب مجهول لا نعلم ما فيه.. وكنا نتحاشى السؤال عنه..

يكفى أنه سرداب فى قلب معتقل، والمعتقل فى ذاته سرداب كبير.. وفوق السرداب سلم يؤدي إلى قاعة علوية كبيرة، كانت تعقد فيها لقاءات التوعية، حين أرادت المباحث أن تقدم إلينا غذاءً عقليًا جديدًا، فجاءوا بأساتذة فى علم النفس ومشكلات المجتمع، والشئون الدينية والقومية، يلقون المحاضرات، ويفتحون أبواب الحوار.. الحوار وراء الأسوار.. فكنا نسأل أسئلة مُسوّرة نستوضح بها جوانب علمية أو فنية، دون أن نتطرق إلى ما يحرج المحاضر، أو يؤذينا بعد خروجه..

لا أدري لماذا كان الشاويش محمد يفضل أن يؤدي صلاته فى هذا الجزء.. كان يذهب للوضوء بجسمه الممتلئ، ويعود وقد شمر عن ساعديه وساقيه، ويمسح وجهه ويديه بمنديله الكبير، ثم يغطي به رأسه، ويقف على قطعة من الحصير، ويغيب فى صلاته، وعينه تتراوح بين موضع سجوده ودعائه..

كان يدعو فيرفع عينيه إلى السماء، كأنما يتابع حركة الدعاء.. ولم يكن يؤذي أحدًا بلسانه، أو يحاول التضييق عليه، ولكننا فى نوبته كنا نحرص على تنفيذ الأوامر، احترامًا لهذا الشرطي الذي لا يتحرك لسانه إلا بخير.

وتعودنا بعد صلاته أن ندعو له..

- حرمًا يا شاويش محمد..

- الله يجمعنا فى الخير.. جميعًا إن شاء الله..

وبدأت تتوثق بيننا صلة روحية.. أخذ يسأل عن بعض النواحي الدينية، وعرفت أنه كان مواظبًا على الصلاة فى مسجد الإمام الحسين -رضى الله عنه- وأنه يستمع إلى كثير من العلماء وقراء القرآن الكريم.. ولكن حديثه كان دائمًا بعيدًا عن السياسة ومشكلاتها..

وفى يوم من الأيام وقبيل انتهاء وقت المشي عصرًا، قال لي: اجعل آخر عملك قبل عودتك إلى الحجرة أن تتوضأ، وفى ركن في مكان الوضوء وعلى الحائط الفاصل بينه وبين الفناء، ستجد كيسًا صغيرًا، خذه معك هدية مني إليك، هدية إخاء فى الله، دون مقابل من إنسان لقيته مصادفة، ولا يعلم إلا الله متى تلتقيان ثانية.. واحتفظ بهذا بيني وبينك..

لم يكن في وجه الرجل ما يريب، وذهبت إلى المكان، وأخذت الكيس فإذا به قدر من الخوخ، أخذته إلى الحجرة.. ولكل حجرة فى معتقل القلعة ثلاثة فتحات؛ شباك مرتفع ترى منه جزءًا من السماء خلال الحديد المتقاطع، الباب الأصم القوى بصريره الحديدي، وفتحة صغيرة على شكل نافذة كانوا يضعون فيها مصباحًا ينير لكل حجرتين متجاورتين، وعليه زجاج سميك ودعامات، وباب خشبي صغير من الخارج، وتصعد منها مدخنة إلى أعلى البناء.. تصميم من القرن التاسع عشر.

وانتظرت إلى وقت فتح الأبواب لصلاة الفجر، وخرجت في ظلمة الليل لأوزع الخوخ عن طريق النوافذ الصغيرة، وأخبر الأخوة في هدوء بذلك..

وعندما كانوا يعودون من الوضوء، كانوا يفتحون الشباك الصغير، ويأخذ كل منهم خوخة ثم يتخلص بعد هذا من البذرة..

وتكرر هذا من الشاويش محمد أكثر من مرة..

وقلت له ؛ لماذا ترهق نفسك؟ ألا تحس أن أولادك أولى بذلك؟ ثم إن هذا الصنع قد يجلب لك ولنا شرًا، لا قبل لنا به، إذا ما تسرب الخبر.

فيقول: وممن يتسرب؛ مني؟ وعلى أن أحافظ على نفسي؟ أم منكم وعليكم أن تحافظوا على أنفسكم وعلي؟.. ثم إن الله موجود.. وأنا أقوم بهذا العمل من قلبي وبصدق.. أحيانًا أحس أني مدفوع إلى القيام به.. وأنا فى المسجد أصلي أحس رغبة فى أن أقدم إليكم شيئًا من الخير، حتى تؤمنوا أن الدنيا فيها خير، والفرج من الله قريب.

وألححت عليه، وأسرفت فى الإلحاح حتى توقف..

ومرت الأيام، وتغير الجنود، وذهب الشاويش محمد، نقطة مضيئة فى تيار الحياة، تبقى منه الذكري الطيبة..

وكنت فى الأيام التى أذهب فيها إلى مسجد الحسين، أدور بعيني بين المصلين، أو المستمعين إذا كنا فى حفل، عسي أن أرى وجه الشاويش محمد.. بل كنت أحس أحيانًا أنني أراه بغير صورة، وأسمعه بغير صوت.. نموذجًا للمسلم الطيب، الذي يقدم الخير لذات الله. والأسلوب الوحيد لشكره أن نقدم الخير لمن لا نعرف، كما فعل هو معنا.. حفظه **الله** أينما كان..

شبـــل

كان معنا فى سجن ٣.. عرفناه من الاعتقال السابق، فوجئ العسكري بعودتنا، كان قريبًا من نفوسنا، فيه بساطة ريفنا ونقاؤه.. نقول إنه لم يتعلم.. نعم، ولكن كانت له أخلاقه التي جاء بها، ولم تضع منه فى الطريق، ولم يبعها بأي ثمن.

وعندما جاء السجن الحربي وجد سوقًا جديدة.. سوقًا باع فيها كثير من زملائه مروءتهم وأخلاقهم، واتخذوا من جلودنا أرضًا يحرقونها بسياطهم وعصيهم.. ولماذا لا يفعلون وهم يتلقون الأمر من رؤساء أعلى منهم مكانة وأكثر علمًا، وأقرب إلى القيادات الكبيرة.

وظل العسكري المصري شبل على أخلاق القرية.. هل أقول إن عينه دمعت حين عدنا؟

لقد كان الشاويش محمود يكلفه بضرب بعض المعتقلين، وفى المعتقل زنزانة أو أكثر مخصصة لذلك.. الدم على أرضها وحوائطها..

ويدخل شبل، وينظر فى عين من يعرف ومن لا يعرف، ويقترب من المعتقل قائلاً؛ اصرخ وسأضرب الأرض.. وتكرر هذا منه؛ بعض الضرب على الجسم لإثبات الضرب، والبعض أو الكثير على الأرض لإثبات الصوت.

ولكن محمود شك فى الأمر مرة، واقترب من الباب، ونظر من فتحته الصغيرة، ورأى القصة كيف تمثل.. واندفع كأن "الدولة" أهينت كرامتها، هذا العسكري تحت رئاسته يخدعه، الشاويش محمود أصبح مخدوعًا؟ وانهال على العسكري ضربًا موجعًا كأنما ضبط حادثة، وساق شبلاً إلى المكاتب مذنبًا.. وحوكم شبل - بأي تهمة - وكان مصيره السجن..

ولقد مرت بعد هذا شهور.. وبدأ خوف الله أو شىء من خوف الله يدخل قلب محمود، بعد كل ما رآه من دماء وأحياء وشهداء.. نعم شهداء.. كانوا يعودون بعد التحقيقات إلى جوف الأرض فى جوف الليل.. وأمام الاسم وفى سجلات السجن الحربي كلمة "هارب"، وكيف يهرب إنسان من هذا الجحيم؟!

بدأ شىء من خوف الله يدخل هذه القلوب، وبدأ محمود يقوم بنفس العمل، ويتجاوز عن بعض حفلات الاستقبال، أو يكتفي منها بالقليل.

لقد شربوا من الدماء حتى امتلأت بطونهم، منها وتعثرت حركاتهم.. بل لعلها ارتفعت من حولهم حتى كادت أن تغرقهم، وتطمس حواسهم.. ولم يكن هناك من مهرب، إلا شىء من العودة إلى الله..

وأذكر شبلاً العسكري، الذي أبى إيمانه وشرفه أن يسهم فى المذبحة، وكان مصيره السجن.. وهو عند الله أقرب من مكتب القائد، وثيابه أطهر من ملابس أنيقة ورتب عالية.. علت على الأشلاء والضحايا.

الحرية والنور والحركة

كانت نافذة الزنزانة جامدة ثابتة الطول والعرض، ثابتة في عدد قواطعها الحديدية. عرفناها فى الشتاء ؛ ترى منها قطعة صغيرة من السماء، يندفع منها الهواء البارد، كأنه على موعد مع الأرض الصماء التى يغطيها الأسمنت، ولوح من الخشب أحيانًا فوقه، والبطانية بزغبها الأسمر كأنه ظهر القنفد، وتتمنى أن لو ضاقت فحجبت شيئًا من البرد..

وعرفناها فى الصيف والحر يشتد، وروائح العرق تتصاعد، والأفواه جافة.. والماء القليل الغالي نبلل به الشفاه، ونتناوله على حذر، وبمقدار كأنه الدواء.. ونتمنى أن لو اتسعت النافذة قليلاً أو كثيرًا ...

ونراقب - على مدار الفصول - حركة الشمس صاعدة وهابطة، ويتعاقب علينا الليل والنهار.. ألوان من الليل والنهار، بحرها وبردها، بظلمتها ونورها.. هذه النافذة صامتة كأنها صخر الجبل، بل إن صخر الجبل قد تنحته الأيدي، فتكسر منه وتنقله من مكان إلى مكان.. أما هذه الفتحة - هذه النافذة - فهي ثبات من الثبات.

وكنت أقارن بينها وبين نافذة البيت الصديقة، النافذة التى أتعامل معها فتحًا وإغلاقًا، تعرف منها الليل من النهار والصيف من الشتاء.. النافذة القريبة من يدي ومن قلبي، نافذة الستر والود والهواء والنور، تتسع وتضيق وتعطيك ما شئت من هواء وضوء، من خلوة أو رؤية للحياة..

وأصبحت أضيق بالنوافذ المغلقة إذا كنت أستطيع فتحها، وأحب توسيع القطاع المنظور من خلالها من السماء إذا كنت أستطيع زيادته. كنت أرى النافذة كأنها مدرج في مطار تجري عليه نظراتي وأفكاري صاعدة إلى سمائها.

النافذة والنور.. وما أحلى أن تستطيع إبقاء النور بنفسك، وأن تغلقه بنفسك.. وفى ليل الصيف -وغير بعيد من النيل- ولك قطعة من السماء تنظر إليها، ونور

تستطيع أن توقده أو تكتفي بنور القمر وحديث النجوم.. بل تستطيع أن تبرح البيت وقت أن تشاء، لتعود إلى النيل الحبيب القريب، تمشي إلى جواره، تجلس على ضفته.. تتأمل ماءه.. وحدك أو مع بعض أهلك.. وهو يجري.. والعمر بنا يجري، ولكنه جري حبيب، مع الحرية والنور والحركة..

وفى يوم من الأيام سألني صديق عن أسعد لحظات حياتي:

قلت: كثيرة.. ولكن أسعدها حين أعود إلى البيت، وأصعد الدرج إلى مسكني، وأحمد الله أن كتب لي السلامة، ثم أضع المفتاح وأفتح الباب.. هذه اللحظة -لحظة فتح الباب، ورؤية الأهل، وإلقاء السلام - هي وحدها من أسعد اللحظات عندي..

وكنت أقرأ من قبلها قول شوقي:

وكل مسافر سيعود يومًا إذا رزق السلامة والإيابا..

ولم أكن أحس فيه بعمق ولا أبعاد..

ولكني بعدما مررت به من تجارب، أدركت المسافة الكبيرة بين مسافر وسيعود.. ومتى عودة المسافر؟! يومًا.. متي هذا اليوم؟ بعد سنة أو أكثر أو أقل؟ وما العقبات والمحن التي سيمر بها على طريق السفر.. ولكن إذا رزقه الله السلامة والإياب عاد.. فقد يرزقه الله السلامة، ويبقى في قطر آخر مهاجرًا يستشعر الغربة دومًا، ويسمع نداء النيل، ولا يستطيع الإجابة.. فالإياب شيء، والسلامة شيء آخر.. والسعادة لو اجتمعا..

وأصبحت أضيق بالنوافذ العالية، النوافذ المنعزلة عن أيدي البشر.. النوافذ المنقطعة..

وكنت أحيانًا أتأمل الذباب، فى حركته القلقة فى الزنزانة، ثم طيره واستطاعته الخروج من النافذة، فأحس شيئًا من السعادة فى نفسي، فهذا كائن صغير يمثل نوعًا من الحرية، حرية دخول السجن الحربي والخروج منه ...

وأتذكر قول الله تعالى فى سورة البقرة: "إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم، وأما الذين

كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون" (٢٦-٢٧).

وقوله تعالى فى سورة الحج: "يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب، ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز" (٧٣-٧٤).

مخلوقات صغيرة لو تأملها الإنسان لهدته إلى كثير.. ولكن أكثر ما أسعد به هو رؤيتها وهي قادرة على الخروج والدخول..

وأحيانًا كان يأتي عصفور ليقف على حديد النافذة وقفة، ثم يطير، لم يكن يطيل الوقوف، ينظر، يتحرك حركته المذعورة السريعة، يحرك رأسه يزقزق، يحرك ريش ذيله سريعًا، يثني رجليه النحيلتين، ويرخي جناحيه، ثم يندفع صاعدًا.. متى أستطيع ذلك؟ أقول لنفسي..

كانت النافذة والحركة والنور هي عندي الحياة، وفى كثير من الأحيان هي رمز الحرية، في الوقت الذي أمضي فيه الساعات بعد الساعات فى هذه الكبسولة..

كبسولة؟ نعم، ما الفرق بينها وبين كبسولة رواد الفضاء؟!

هنا حجرة مغلقة، تدخلها بأمر، وتخرج منها بأمر، وطعامك وشرابك يخضع لتوقيت دقيق ظالم؟ نعم.. قيود بلا حرية؟ نعم.. وأنت والأرض كلها تدورون فى الفضاء..

وهل تخرج الأرض عن أن تكون كبسولة كبيرة؟ سفينة فضاء قادرة على أن ترسل بعض أبنائها فى عمليات فى مدارها أو خارج مدارها؟

وإذا كان بعض الحكام يتصورون أنفسهم قادرين على التصرف فى أقدار غيرهم، فإنهم فى الواقع ينسون أن الجميع على هذا الكوكب الحائر مقيدون.. قد

تتراخى القيود وقد تشتد، ولكن لا مهرب من قيد الزمان والمكان، لا مهرب من الموت، لا مهرب من الحساب.

من يسبق من؟ السجان أم السجين؟ الظالم أم المظلوم؟ كلهم على درب الحياة يسير لموته حتى النهاية، إلا الحي الذي لا يموت -سبحانه.

ويطير الطير، ويتحرك الذباب فى الزنزانة.. الذباب الذي ضرب الله به المثل **"وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب"**.

من أجل ذلك ظللت أحب الفضاء والنور والحركة والحرية، بل كنت أحيانًا أجد لذة فى الانتقال من حجرة إلى حجرة.. آخذ كتابًا من مكتبتي لأقرأ فى حجرة الاستقبال، ومرة أجلس قريبًا من النافذة أقرأ بعض الوقت، وأنظر إلى الليل أو السماء، أو الشجر القريب بعض الوقت..

وظللت أكره الأماكن المغلقة ذات الزخارف المتقاطعة كقضبان نوافذ السجن.. وما أسعد أن تجلس ولك حرية الحركة، والمنظر أمامك مفتوح حتى الأفق، حيث تلتقي الأرض بالسماء، والمحدود بالمطلق، وهنا بهناك..

****

ومنذ قريب وفى صيف ١٩٧٥ كنت أمشي على شاطئ النيل غير بعيد من مسكننا فى الدقي، وكان ليل صيف مقمرًا، ومسجد صلاح الدين أمامي على الضفة المقابلة، والهدوء يلف المكان وقد تقدم الليل..

وهب النسيم هادئًا، وله مع النفس حديث.. فتوجهت إلى القبلة داعيًا، وخلعت نعلي، وصليت ركعتين شاكرًا.. هذا الحشيش الأخضر أنبته الله -كما أنبتنى - من الأرض نباتًا، هو يسبح لربه كما أسبح **"وإن من شيء إلا يسبح بحمده"**، وكل ما حوله ساجد، والنجم والشجر يسجدان، له رزقه من ماء النهر والأرض الطيبة، والهواء النقي..

وتابعت سيري؛ جزء من الحياة يحاول أن يبتغي إلى ربه سبيلاً، فسيري سجود، وصمتي سجود، وفكري سجود، وحولي سجود، فمن يسمع الصمت؟ ولا صمت.. فكل شيء يسبح بحمد ربه..

*****

كنت أفرغ إلى نفسي أحيانًا أسائلها ؛ ما الذي يجمع بين النفوس الشريرة السادية، المحبة للتعذيب، وحبس حريات الخلق؟

وأجد الجامع الأول أنهم من العسكريين، ونحن من المدنيين فأقول؛ إذن هي العقلية العسكرية التي تقوم بذلك؟

وأعود فأسأل ؛ ولكنهم يعذبون حتى العسكريين، لقد رأينا كيف يضربون الجنود والضباط، بل كيف يضرب الجنود الضباط، ويسرفون فى إهانتهم، ويمزقون رتبهم العسكرية، يعلقونهم من أرجلهم، يدفعونهم إلى الجري ومن ورائهم الكلاب المدربة أو السياط، فالأمر إذن ليس عقلية عسكرية.. وإلا لاحترم بعضهم بعضهًا..

وهل ننسى ما صنع رجال المباحث؟ لقد كانت وزارة الداخلية، وكان معتقل القلعة قطاعًا من الجحيم، لا يقل ضراوة عن السجن الحربي.. فالأمر إذن ليس شرطة ولا جيشًا..

إذن ما هو؟

وما علاقة هذا الجندي الريفي بالعسكرية؟ لقد جاءوا به، ودفعوه إلى السجن الحربي لأنه من قاع الجيش.. فكما أخبرنا الذين معنا من العسكريين، أن المطرودين من وحدات الجيش، ومثيري الشغب فيها، هم الذين تتخلص منهم الوحدات بترشيحهم للسجن الحربي، إنهم "عكارة" الجيش أو "رواسبه" ؛ هؤلاء الجنود المشتركون فى التعذيب كأنهم "كلاب بشرية" تنفذ ما يلقى إليها من أمر، وتزيد عليه فوق الشر من عندها شرًا آخر..

ولم أجد قسوة متبادلة فى المعاملة، ولا ضراوة كهذه التي فى السجن الحربي ورجاله، إلا فى عصابات الإجرام ! إنهم نوع من المافيا الحاكمة.. الولاء فيها للجهاز الذي تتبعه.. مدى الوفاء والصدق محتوم فيما بين أفراد العصابة، أما وراء ذلك فالكذب والخيانة والبطش والدم..

هذه الروح التي عاش بها الجستاتو فى ألمانيا، والأوجيو فى روسيا، وأجهزة البطش والإرهاب فى مصر، وغيرها من الأقطار التي ابتليت بهذه الضراوة الحاكمة.

أرسل القائد فى طلب زميلنا المعتقل؛ معروف الحضري.

ومعروف ضابط فى القوات المسلحة، وله تاريخه الوطني الطويل، ومعرفة القائد به مباشرة. وجاءت أقدار وضعت هذا على رأس السجن الحربي، وهذا فى إحدى زنازينه..

ثم هدأت حدة البطش، وانتهت التحقيقات بكل ما تحمل من معاناة.

وعاد معروف من المقابلة يقول: إن القائد يقوم بالتحضير لدورة أركان حرب أو فرقة (لا أذكر جيدًا)، وهو يود مني أن أختار له منكم من يعاونه فى دروسه، بادئًا باللغة الإنجليزية.

- ونظر بعضنا إلى بعض..

- وكيف تستطيع أن تدرس لحمزة البسيوني؟

- كيف تجلس أمامه؟

- هل سندرس ونحن وقوف على سبورة طول الوقت؟

- ثم مشكلة تصحيح الواجبات التي نعطيها له؟

- وإذا كان تقدير موضوع منخفضًا وغضب، فهو يملك فورًا تحويل المدرس إلى السجن الانفرادي ! ونحن لا نأمن غضبه ولا نزواته !!

- وإذا كان قد اعتقل الكلب " لكي " خمسة عشر يومًا، وأمر بسجنه وسجن معه د. عجمي ود.مصطفى، فماذا يصنع معنا؟

ويحاول معروف أن يهدئ من مخاوف "المدرسين" أمام التلميذ القائد، وينتهي الأمر باختيار زميل لنا يبدأ معه دروس اللغة الإنجليزية،؟..

وجلس صاحبنا " محمد على " يقرأ القرآن، ويستعين بالله على هذا الدرس، وعلى هذا التلميذ.. وكان الدرس الأول، عاد محمد على ليروي قصته:

ذهبت إليه فوقفت انتباها وتعظيم سلام، هكذا تعودنا..

ونظر إلي مبتسمًا..

شيء غير معروف.. مبتسمًا !! هل يستطيع حمزة أن يبتسم !!

وخرجت من دهشتي بقوله: اجلس.

كيف أجلس فى حجرة القائد؟ لقد طفت الساحة الكبرى مئات المرات، وبيننا وبينه أخدود من الخوف، وحوله حصون من السلاح والسياط والكلاب !! دنيا..

وجلست.. فقال: اهدأ ونبتدى الدرس..

ولعله رأى فى وجهي مالم أره ؛ كائن يتحول بعد عام ونصف من "رقم" فى السجن، يحصونه بالطرق على الرأس: واحد.. اثنين.. ثلاثة.. إلى مدرس للقائد. وحاول أن يهدئني، وبدأ الدرس..

وكنت أحاذر أن أغضبه، وأترفق فى تصحيح النطق له، وفى تصويب الأخطاء. وعندما كنت أتناول القلم لأعيد صياغة عبارة، أو أشرح قاعدة لغوية كنت كأنما أخطو إلى المجهول.. وشيئًا فشيئًا بدأ حجاب الرهبة يزول..

وكان "محمد" يعود إلينا من الدرس فى إرهاق نفسي يحتاج بعده إلى راحة، فلا تزال المكاتب هي المكاتب برهبتها..

وهؤلاء الضباط والجنود، الذين كانوا يسوقوننا بالعصا والسوط، وبالخطوة السريعة فى الفناء الخارجي، أصبحوا يسيرون إلى جواره فى هدوء وأدب، وهو ذاهب إلى المكاتب يعطي درسًا للقائد، ويعود فى هدوء بعد انتهاء الدرس..

وما أكرم العلم، له مكانته حتى فى السجن الحربي !!

بعد أن كتبت عدة مشاهد من هذه المذكرات، عدت إليها وفى ذهني سؤال؛ هل استطعت أن أحملها المشاعر والمعاني التى صاحبت معاناتها؟

بعض هذه المشاهد استمرت شهورًا، كطوابير السجن الحربي، وبعضها مر عنيفًا سريعًا، كمشاهد التعذيب فى نمطها الإعصاري المدمر.

حين يمضي معتقل ليلة أو ليالي واقفًا فى الماء البارد الآسن الملوث بثيابه الداخلية، يتسلق الموت إليه باردًا، تحمله أفاع غير منظورة، فى جهنم الدنيا التي صنعها أبالسة التعذيب، يدخلها البريء بغير حساب، ويعذب بغير حساب، ثم يعود إلى أهله، وهل يعود أحد كله؟ إنما يعود جزء منه فقط بعد أن يأكل السجن الحربي جزءًا لا يعوض..

ماذا تستطيع الكلمات أن تترجم ألوف الآلام؟ وليتها توزن كما توزن المواد فى المعامل العلمية.. وليت هناك تقديرا كميًا أو نوعيًا لهذا الإهدار لكرامة الناس، والعبث بمصائرهم.

إن العلم قد استطاع إحصاء الكثير من تغيرات وظاهرات الإنسان، فهل من سبيل إلى مثل هذا الإحصاء فى دنيا المعاناة والمظالم؟!!

لقد كنت أكتب وغير بعيد من يدي كتاب ألفين توفللر " صدمة المستقبل" ولقد كتبت عن هذه الصدمة فى مجالات متعددة، شملت؛ التنظيمات الجديدة فى المجتمع، ونظام الأسرة، وتنوع أساليب الحياة.. والأبعاد الجديدة بدنية ونفسية، واستراتيجيات مواجهة المستقبل، علميًا وتكنولوجيًا واجتماعيًا..

وقرأت ذلك، وتمنيت أن أرى كتابًا أو فصلاً عن طريقة علمية لحساب مثل هذه الآلام والمظالم، وتسجيلها تاريخيًا، وإذا أمكن أن يحدث هذا فى المستقبل فما نصيب كل ما مر على أمتنا، وغيرها من الأمم، من العناية بالتسجيل والتوثيق لهذه الأحداث؟

ما تمنيت – حين فكرت فيها أو كتبتها – أن أملأ النفوس بالحقد والكراهية، بل كان ولا يزال كل أملي أن نتخذ من الماضي مصلاً للوقاية ضد مظالم المستقبل، وأن يكون عندنا من حماية القانون ما يأمن الإنسان معه على نفسه وأهله ومجتمعه، دون إهدار لكرامته، وتحطيم لإنسانيته.

وعندما تمر الأعوام على المظالم، وتتاح فرصة جديدة لإثبات ما حدث، فماذا يكون الأسلوب؟

يكلف المظلوم بعد كل الألم الذي مر به أن يدافع عن نفسه، وأن يثبت أن الظلم حاق به.. ممن؟ من حكم سابق بكل قوته وجبروته وأسلحته..وإذا به بعد هذا يحاول جمع ما تبقى من الأدلة، ويدخل ساحة القضاء..ومحامون ونيابة.. وتحقيقات.. وقضاء..

ولكن ما دور الحكومة فى هذا المجال؟

ألا تستطيع أن تقوم هي بهذه المهمة، ويكفي الذين عانوا من التعذيب ما عانوه؟ لقد كان ولا يزال من الممكن أن تبدأ القصة من زاوية أخرى..

أن تقوم هي رسميًا بطلب توقيع الكشف الطبي على جميع من دخلوا السجن الحربي، وغيره من السجون، حتى بعد مرور السنين، فآثار التعذيب تبقى.. ليشعر هذا المظلوم أن المبادرة من الدولة..

وقد يتطوع أحد بسؤال؛ وكيف تعرف الدولة أن تعذيبًا وقع؟

وهو سؤال لا يختلف عن قولك؛ وكيف تعرف أن الشمس أشرقت أو غربت؟

وهل كانت هذه المعتقلات بكل قسوتها معسكرات ترفيه؟ هؤلاء الآلاف من العمال والحرفيين الذين أبعدتهم أجهزة البطش عن مصادر رزقهم، ومنعت أزواجهم وأولادهم الرزق والقوت، وتوعدت من يقدم إليهم ولو شيئًا قليلاً بالسجن وسوء المصير – خير شهود –، وكم من القضايا عرفتها محاكمنا باسم قضايا التمويل أو أجهزة التمويل، أجهزة كل تهمتها أنها ترعي زوجات وأولادًا ضعافًا غاب عائلهم، وضبطتها الدولة بعد هذا فاتهمتها بالإحسان ... !!

ومهما تكن السلطة التي أصدرت الأمر بالاعتقال، فهل هذا حق لها؟؟ وإذا ما كان حقًا بحسب القوانين الجاهزة، فهل هو متفق مع حقوق الإنسان، كما جاء بها الإسلام خاتم الأديان، أو حتى أقرتها المنظمات الدولية كهيئة الأمم المتحدة؟

والذين تولوا هذه المظالم كلها، أين هم؟ بل أين الذين تولوا المظالم من قبلهم؟ حتى الذين حوسبوا وحوكموا تراخت الأيام، ومرت مياه كثيرة فى النيل، وعادوا إلى حياتهم اليومية.. وكأن شيئًا لم يكن..

وتعودنا هذه الموجات من المظالم، ثم محاولة رد المظالم، ثم شيئًا من الجزاء، ثم كثيرًا من العفو.. وعند الله ما لقي البرىء !!

هل يستطيع "جميع" الذين عملوا فى السجن الحربي، وغيره من السجون - ضباطًا وجنودًا - أن ينكروا أن تعذيبًا وقع؟! فلينكروا..

ولنجمع صور ما تبقى من التعذيب على الصدور والظهور، وليسأل هذا المجتمع نفسه، كيف حدث هذا؟

أحيانًا أحس أن للألم قداسة تحول دون مهانته فى محاولة إثبات وقوع العذاب، وأنتظر مرة أن تتولى الدولة عن المعذبين مهمة جمع الأدلة كلها، ولقد رأينا بأعيننا، ولازلنا نرى، صورًا من العدل الإلهي فيهم، تولتها يد الله الذي لا يغفل ولا ينام، فما دور العدل الإنساني فيها وهو قبس من العدل الإلهي؟

المهم هو؛ كيف نحول دون تكرار ذلك؟ هذه هي القضية..

ومما يساعد على عدم تكراره أمران:

الأول: أن ينال القصاص من قاموا بالتعذيب، مهما بعد العهد بهم، ذلك لأن هذا سيكون حجة فى يد الذين من بعدهم، إذا ما صدر إليهم أي أمر بالتعذيب، سيقفون مرتين قبل أن يحاولوا ؛ مرة للمخالفة، ومرة تحسبًا للمؤاخذة فى المستقبل.

الثاني: أن تكون هناك ضمانات لمن يرفض التعذيب وحصانات للمواطن، وحريته، والدفاع عن إنسانيته.

إنني أؤمن بأن التغيير الاجتماعي أعمق تأثيرًا من التغيير القانوني، وإذا لم تكن القوانين مصانة ومحترمة من المجتمع، وإذا لم يكن المجتمع يرى فيها تجسيدًا لحرياته وصيانة لها، فإن مرض النفوس وانحرافها يفتح السبيل أمام زبانية جدد، ليمارسوا هوايتهم فى التعذيب والإذلال والقهر..

لقد كان التعذيب حرفة لقطاع طولي فى المجتمع، بدءًا من رتبة اللواء إلى الجندي البسيط.. وكان بعضهم يقلد بعضًا فى الشر، تقليدًا يذكرني بقول نيتشه الفيلسوف الألماني:" إنهم كالقردة يزداد تفننهم فى اللعب كلما ارتفعوا فوق الشجرة "!

ومر ربع قرن، وجاءت أيام أراد المسئول الأول فيها أن ترد المظالم إلى أهلها، وأن يكون فتح هذه الصفحات إحقاقاً لحق طال عليه الأمد.. والأمل أن تتحول التحقيقات إلى قوانين.

لقد زارني صديق وأنا فى الكويت (يونيه ١٩٧٦)، وحدثني عن جهود نبيلة يقوم بها القضاء المصري فى تحقيق هذه الجرائم، وكيف يقف فى عدل ليحاسب من أهدروا حريات هذا الشعب وراء أسوار الصمت، وكيف أنبتت أرضنا الطيبة من أبنائها من تبنوا التحقيق في هذه المظالم، وحاصروا أصحابها بالتحقيق الأمين، حتى حلوا عقدة ألسنتهم، فتحدث بعضهم عما صنع، ووصفوا التعذيب وأدواته وجبروته ومداه.. ذلك المدى الذي انتهى بأرواح غالية إلى جوار ربها، ودفعتها الأيدي الملوثة إلى حفر مجهولة في السفح القريب فى ظلمة الليل.. ولكن عين الحق يستوي عندها الليل والنهار، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب.. وإنها لتسمع صوتًا من السماء: **"لأنصرنك ولو بعد حين"**.

قصة تهريب المخدرات من الشط والسويس إلى القاهرة التعاون بين تاجر صعيدى وبعض العاملين فى القوات المسلحة عن طريق وضع مخازن سرية فى العربات.

إصرار رئيس العصابة على عدم الاعتراف والعجز عن اتيان أى شيئ عليه فالعربات ليس عرباته. ووضعه الاجتماعى دون الذين تعاونوا معه مما يسقط ركن التحريض.

منطفه فى التحمل الكامل للتعذيب وعدم الاعتراف ولو بكلمة واحدة.

لقائى معه فى السجن الكبير ورعايتى لمرضه وجروحه، وشرح منطقه، الخروج من المأزق عن طريق الصمود الكامل.. ستأخذ الجروح عاما او عامين أما التأبيدة فتأخذ العمر كله.. فتحمل العذاب بها كان أفضل.

قصة عبد الفتاح البرى

الحاج عبد الحميد

قضية صلاح السحرتى والمؤامرة المزعومة

قضية السلاح وما حدث فيها فى التعذيب

وكان معنا جندي آخر طيب القلب، تغلب عليه روح الدعابة، يكثر الجلوس إلينا، ولا تحس أنه يجمع منك أخبارًا.. فالحرص أصبح غريزة عند الكثيرين بعدما شاهدوه، وإن كانت قلة لم تمر بتجاربنا فى السجن الحربي..وتحاول أن تظهر اعتراضها على تصرفات منهم، فإذا خاطبناهم فى ذلك سخروا منا..

كان واضحًا أن معتقل القلعة يجمع بين عقليتين، من جاءوا من السجن الحربي، ومن جاءوا من سجن مصر، وكان لهذا التناقض آثاره السيئة والمدمرة..

ولكن لنعد إلى الجندي الطيب، وكان يحمل أيضًا اسم الشاويش محمد..

كنا إذا حاولنا إهداء أي شيء إليه رفض قائلاً:

- أموالكم وطعامكم على حرام، حتى تأكلوا مع أولادكم..

وإذا كلفه أحد بخدمة بسيطة؛ قرطاس لب، حمص.. أشياء يسعد بها الأطفال، ولا يؤذيه حملها، كان يحضرها، ويتناول ثمنها بالضبط، خمس مليمات أو عشر مليمات.

وكانت بينه وبين أحد الإخوان صداقة، مرجعها أنهما من بلد واحد.. وفى يوم قال له الأخ ؛ شاويش محمد.. نفسي آكل سمك.

فقال ؛ سمك !! كيف ندخله هنا وهو ممنوع.. ولكن دعني أفكر..

وأمضى وقتًا ثم قال له:

- سأحضر السمك على أنه طعامي، ولا تتناول أنت طعام عشائك، وفي تناول الطعام آكل أنا طعام المعتقل، وتأكل أنت السمك، وسيكون ذلك غدًا إن شاء الله..

ونترك القول للشاويش محمد يروي ما حدث كما قصه علينا ليلاً؛ عندما دخلت سرت رائحة السمك، فإذا بالقطط تتجمع علىّ عند باب المعتقل، وتدخل ورائي حجرة الضابط.. نو.. نو.. نياو.. نياوو.. وهات يا نونوة !!

- وأنا أقول لها:

- بس.. بس.. اللّه يكسفكم.. امشي انتي وهي.. بس !!

وسأله الضابط: ما الحكاية؟

قال: عشائي يا حضرة الضابط، أنا لا أتناول أي شيء من طعام المعتقل. وابتسم الضابط..

يقول الشاويش محمد: وتابعت دخولي، ووراءي هذا الطابور من القطط، أقف تقف وراءي، أسير تتحرك وراءي.. وأصبحت حكاية؛ كيف أذهب إلى زنزانة الحاج لأعطيه السمك؟ سترابط القطط على بابه، سأحاول أن أصرفها عنه بشيء من الطعام، أو التهديد.

واستطاع أن يبادل الطعام مع الحاج، وأن يحتفظ بقطعة من السمك يصرف بها القطط بعيدًا، وسحبها إلى قرب الحمامات، تناول عشاءه ويشاغلها بقطعة من السمك، ثم وضع بقية الطعام أمامها، وعاد إلى الحاج ليأخذ منه شوك السمك ورءوسه وبقاياه ليقدمه إلى القطط..واستطاع بهذا أن يخفى معالم ما صنع..

كان الشاويش محمد متقدمًا فى السن، نحيل الجسم.. فى ظهره انحناء قليل، وأبرز ما فى وجهه براءة النظرة وأثر السجود.

ومرت الأيام، وعلمت من بعض أصدقائي أنه كان يعي الكثير من أسمائنا رغم السنين، وكان يسأل عنا.. يترحم على من سبق إلى اللّه، ويود أن يقابل من بقي حيًا.. أحيانًا تساعده الظروف على اللقاء، وأحيانًا كان يقعد به الحياء، أو تشغله وتشغلنا مشكلات الحياة.

ولكن الرجل ظل بسمة على الشفاه إذا جاءت ذكراه، بسمة تجمع بين الطيبة والنقاء من شعبنا الأصيل، ولمسة حانية وسط القسوة والشرور.

الفصل الأخير

كان يقود سيارته فى الطريق الزراعي بين القاهرة والإسكندرية، الخضرة على الجانبين، الأفق أزرق، تلتقي عنده حدود النظر بحدود الأرض والسماء.. الشمس تسطع بأشعتها على أشجار الطريق، فيصبح الظل والنور سطورًا على صفحة الطريق الممتد.. وهو فى سرعته يتخطى ما أمامه من سيارات، فما تعود أن

ينتظر أحدًا.. فى وجهه هذه القسوة التى عاش بها حتى أصبح أسيرًا لها.. انتهت أيام مجده الدموي وجبروته، وليالي العذاب التى ذاق فيها الأبرياء من وحشيته ما ترك آثاره على أجسادهم.. هذا ما تراه العين، أما الجروح النفسية التى أحدثها فيهم فلا تراها إلا عين الله وحده..

ويندفع بسيارته، وفجأة يعترضه عائق غير محسوب، فيضطر إلى الانحراف، وأمامه سيارة ضخمة محملة بأسياخ من حديد التسليح مائلة نحو الأرض، فتدخل سيارته بينها وتخترق الأسياخ الزجاج الأمامي، وتتجه وهي مائلة كالمخالب نحوه نافذة إلى المقعد وراءه.

فى لمح البصر تم هذا.. ومضى الرجل..

السيارة ممزقة كقطعة قماش، لحم الرجل متداخل مع الأسياخ، ويأتي رجال النجدة لجمع قطع اللحم الممزقة..

وعندما قرأت الحادث، كما قرأه غيري، توقفت عند وجه الشبه بين أسياخ الحديد والسياط التي كان يستخدمها فى الإيذاء.. كلاهما أسمر شديد السمرة.. فيه انثناء، فيه قسوة.. حتى لم أجد فارقًا بين كتلة من السياط وكتلة من حديد التسليح.. إلا فى الحجم.

هل تصلبت السياط وأصبحت حديد تسليح؟ هل اجتمعت كل السياط التي استخدمها في الإيذاء، ووضعت على عربة واحدة، ثم تيبست واندفعت في صدره؟

اللهم لا شماتة ... ولكن ما أعجب الميتة ! حين ينتزع الجسم قطعًا من بين أسياخ الحديد، ويجمع ليأخذ طريقه إلى جوف الأرض.. عجيب أمره.. كم من الأرواح أزهقها، وتولى دفنها فى جنح الليل، ويكتب أمام الاسم فى أوراق السجن الحربي "هارب"، وكيف يهرب السجين من هذا السعير؟!!

لقي قبل موته أحد أصدقائه، وقد ضاق به الكثيرون – فكان من قوله؛ وما ذنبي؟ هل أصدرت هذه الأوامر، أنا منفذ، أنا جندي مقاتل، أمرني القائد أن أقوم بعمل معين على وجه معين من أجل سلامة الوطن، فقمت به.. فما ذنبي؟!

إنه ظل يبحث عن ذنبه، وظلت دعوات المظلومين تتجمع حوله، حتى تحولت إلى أسياخ تخترق جسده.. ويقيد الحادث قضاء وقدرًا..

ووجدت نفسي أكرر دعاء المصطفي -صلى الله عليه وسلم؛"اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة" ...

وأعود فأقول: ما نود أن نصل إليه هو احترام الإنسان من حيث هو إنسان.

الأسير فى الإسلام كانت له حقوقه، ولقد مدح الله -تعالى - أهل بيت نبيه المصطفي -صلى الله عليه وسلم -ومن يسير على هداهم بقوله: **"ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرا، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا ".**

محتاجون إلى طعام، ويقدمونه إلى الأسير الذي رفع في وجههم سلاحه، ولكن الله أظفرهم عليه.. وإنه الإسلام بكل آدابه..

لقد حدث هذا كله وأكثر، ولكن كيف نحول دون تكراره، فلا تجد نفس شاهدت العذاب فى السجن الحربي شيئًا من الإحساس بالعدل الإلهي عندما تقرأ عن مثل هذه الحادثة، وإنما لا تنطق إلا بقولها حين ترى مصابًا -رحمه الله.

كانت قسوته على الناس أكبر من أن يجرؤ أحدهم على الدعاء له، وكانت ميتته أعنف مما يستطيع أحدهم تصورها نهاية له، عندما يتحول دعاء المظلومين إلى مخالب من حديد، تتجمع فى عربة واحدة، وتخرق جسمه فى لحظة واحدة، ويعود التراب إلى التراب.. حتى يوم الحساب.

نقــاط للاستكمــال والمقارنـــة؟

هناك عدة نقاط تستوقف النظر في موضوع علاقات المشتبه :

١. ان مصدر جواز الفلسطيني من مدينة الاسكندرية .

٢. وجود جوازي سفر قبل مقتل بالطيارة في القاهرة

٣. ذهاب مصور المطلب دون اي تحقيق ودون اي اتصال بأجهزة الاستشارات؟

٤. تلقي اوامر من هنداوي دون ان يتم المناقشة في اسبابه ، ودون اللقاء مع مسؤول تنظيمي فوقها او بينها . وحتى لو سلمنا بأنه تلقى قرارا من مسؤول اعلى منه درجة واحدة فيكون من خط السير عند تنفيذ الكبار متخطيا حاجز الاستعداد .

٥. سرعة هنداوي في تسليم نفسه للبوليس ، وذهابه الى قسم البوليس .

٦. لم يعرف ان هنداوي أُصيب او ضُرب ، وكان طبيعيا جدا ان يتعرض لحصار الطبيب ... واحدا لتعذيب تعذيبا واحدا .. مما يثبت وجود خطوة هنا قبل تسليم نفسه واستخدامه كأداة .

٧. عندما كنت في السجن لم التق هنداوي الا انا ... الطبيب الذي فحصه ... ..

٨. ان المدعي ... تقسيم ... صعودا الى ... الاسلام ... ما استقروا عليه .

٩. سمعنا ان هنداوي ... اخذ يصرخ في الزنزانة ... ويقول: خدعوني خدعوني ، وانه ... اخذ يصرخ في الزنزانة حتى قتلوا له ... يصرخ : اسمعوا يا هؤلاء انهم يتعرفون انه من رجال الحكومة . انا بريء ... وهذا ... ان ... فان نقض هنداوي ...

شهادة إتمام الدراسة الابتدائية عام ١٩٣١

شهادة الدراسة الثانوية القسم الأول عام ١٩٣٤

شهادة الدراسة الثانوية القسم الثاني عام ١٩٣٦

المملكة المصرية
وزارة المعارف العمومية
معهد التربية للمعلمين
القسم العام الأدبي
إجازة التدريس

نحن وزير المعارف العمومية

حق التمتع بما تخوله القوانين والأوامر المتبعة.

إجازة تدريس معهد التربية للمعلمين عام ١٩٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلس الوزراء
المراسم

مراسم مجلس الوزراء
رقم الصادر ٧٧/٩
تاريخ ٢١/٧/٧٧

السيد / الدكتور عبد العزيز عبد القادر كامل

نائب رئيس مجلس الوزراء للشئون الدينية ووزير

الاوقاف (سابقا)

تهدى مراسم مجلس الوزراء اطيب تحياتها لسيادتكم

وانشرف بان ارسل لسيادتكم وسام الجمهورية

من الطبقة الاولى والبراءة الخاصة به والممنوح

لسيادتكم من السيد الرئيس / محمد انور السادات رئيس

الجمهورية .

وتنتهز مراسم مجلس الوزراء هذه المناسبة

لتعبر لسيادتكم عن اخلص التهانى مع اطيب التمنيات

بالتوفيق والسعادة .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ...

مع تحيات واحترام

مدير مراسم

مجلس الوزراء

(ابراهيم شعراوى)

رئاسة مجلس الوزراء

فى ٣٠ يوليه سنة ١٩٧٧

وسام الجمهورية من الطبقة الأولى من الرئيس أنور السادات سنة ١٩٧٧

A MAGYAR NÉPKÖZTÁRSASÁG ELNÖKI TANÁCSA

Dr. Abdul-Aziz Kamelnek

A MAGYAR NÉPKÖZTÁRSASÁG ÉS KUVAIT ÁLLAM
EGYÜTTMŰKÖDÉSÉNEK FEJLESZTÉSÉBEN SZERZETT
KIMAGASLÓ ÉRDEMEI ELISMERÉSEKÉNT

A MAGYAR NÉPKÖZTÁRSASÁG BABÉRKOSZORÚVAL ÉKESÍTETT ZÁSZLÓRENDJE

KITÜNTETÉST ADOMÁNYOZZA

KELT BUDAPESTEN, 1981. ÉVI SZEPTEMBER HÓ 15. NAPJÁN

Losonczi Pál

A MAGYAR NÉPKÖZTÁRSASÁG
ELNÖKI TANÁCSÁNAK ELNÖKE

A MAGYAR NÉPKÖZTÁRSASÁG
ELNÖKI TANÁCSÁNAK TITKÁRA

УКАЗ

№ 1872

Държавният съвет на Народна република България въз основа на чл. 93, точка 23 от Конституцията и чл. 8 от Указа за духовното стимулиране в Народна република България

ПОСТАНОВЯВА:

Награждава

д-р Абдул Азиз Камел -

съветник при Кабинета на Н.В. Емира

с орден „Мадарски конник" - I степен -

във връзка с официалното посещение в Народна република България на Емира на Държавата Кувейт шейх Джабер Ал-Ахмед Ал-Джабер Ал-Сабах и за неговия принос за укрепването на българо-кувейтските отношения.

София, 8 септември 1981 г.

Председател на Държавния съвет
на Народна република България:

Секретар на Държавния съвет
на Народна република България:

ديوان كبير الأمناء

إدارة التوقيع والأوسمة

رقم الملف : ٧ـ٦/٣٥

رقم القيد : ٢٨٩

مرفقـــات : براءة

السيد الدكتور عبد العزيز كامـــل

تحية طيبة ، وبعد ،

أتشرف بأن أرسل رفق هذا براءة وشاح الملك عبد العزيز من الطبقـــة الثانية ، الذى منحتموه من المملكة العربية السعودية فى أغسطس ١٩٧٤ ،

وتفضلوا سيادتكم بقبول فائق الاحترام ...

٢٩ شـــوال ١٣٩٥

٢ نوفمبر ١٩٧٥

كبيـــر الأمنـــاء

مرحلة الصبا والشباب

الأسكندرية أكتوبر ١٩٤٧

فبراير ١٩٤٢

عام ١٩٥٦

٦ مارس ١٩٣٩

رحلة قنا والأقصر والدير البحرى

فى الأقصر ١٩٤٨/٢/٧

أمام معبد الكرنك فى رحلة مع زملاء الدراسة ١٩٤١/١٢/٣٠

فى معبد الكرنك

فى معبد الكرنك

بالقناطر الخيرية ٦ يونيه ١٩٤٧

بالقناطر الخيرية ٦ يونيه ١٩٤٧

بالسودان أثناء الدراسة لشهادة الدكتوراه عام ١٩٦٦

على سطح دير الأنبا شنوده ١٩٤٢/٤/٣

١٩٤٢/١٠/٤

٧ ديسمبر ١٩٦٠

٧ ديسمبر ١٩٦٠

أمام جامعة القاهرة ديسمبر ١٩٦٠

مع زعماء وقيادات الإخوان المسلمين - مايو ١٩٣٧

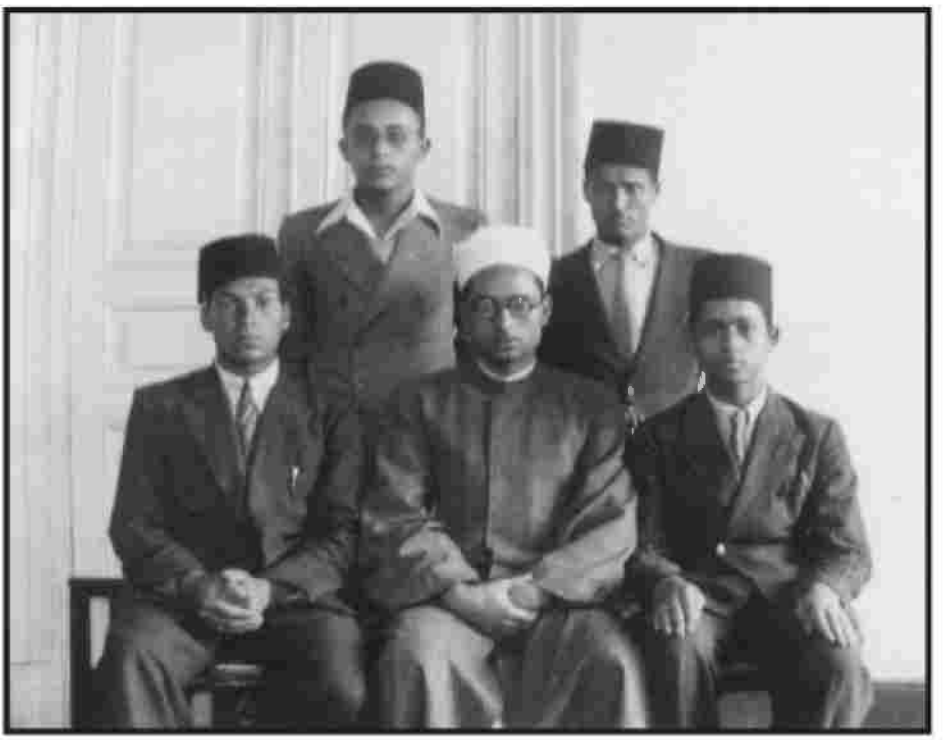

السبت ١٣ من ذى الحجة ١٣٦٢ ـ ١١ نوفمبر ١٩٤٣

فى السجن الحربى عام ١٩٥٤

النبتة الطيبة فى الأرض الطيبة تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها

الأستاذ عبد العزيز كامل فى صباه الطاهر يتخير له ربه البيئة الصالحة التى يشبع فيها أشواقه الروحية إلى الملأ الأعلى. وكانت هذه الصورة مع هذه الكلمات مهداه من التلميذ محمد يوسف على الشاذلى

مع الشيخ الحصرى والشيخ محمد متولى الشعراوى

مع د. الأحمدى أبو النور والشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر

مع د. زغلول النجار

مع الشيخ عبد العزيز عيسى شيخ الأزهر

السبت ٢٦ مارس ١٩٧٧ فى كاتدرائية المسجد الجامع قرطبة
من اليمين: دون أنطونيو المحافظ ـ مارياكو نشتيتا ـ عبد العزيز كامل
فاروق شوشة ـ الشيخ مستشار الحكمة العليا ـ الدكتور ايبلزا

مع الرئيس جمال عبد الناصر بعد خلف اليمين وحسين الشافعى

سعد مأمون و د/ عبد المنعم الصاوى

أمام مقر الاتحاد الاشتراكى مع حسين الشافعى والرئيس السادات ود/ عبد القادر حاتم وممدوح سالم

مع الرئيس السادات ويظهر فى الصورة الوزيرة عائشة راتب والمعندس عثمان أحمد عثمان

مع الرئيس السادات وممدوح سالم والمشير أحمد إسماعيل ود. عبد العزيز حجازى وإسماعيل صدقى

زيارة للجبهة مع الرئيس السادات والمشير أحمد إسماعيل على

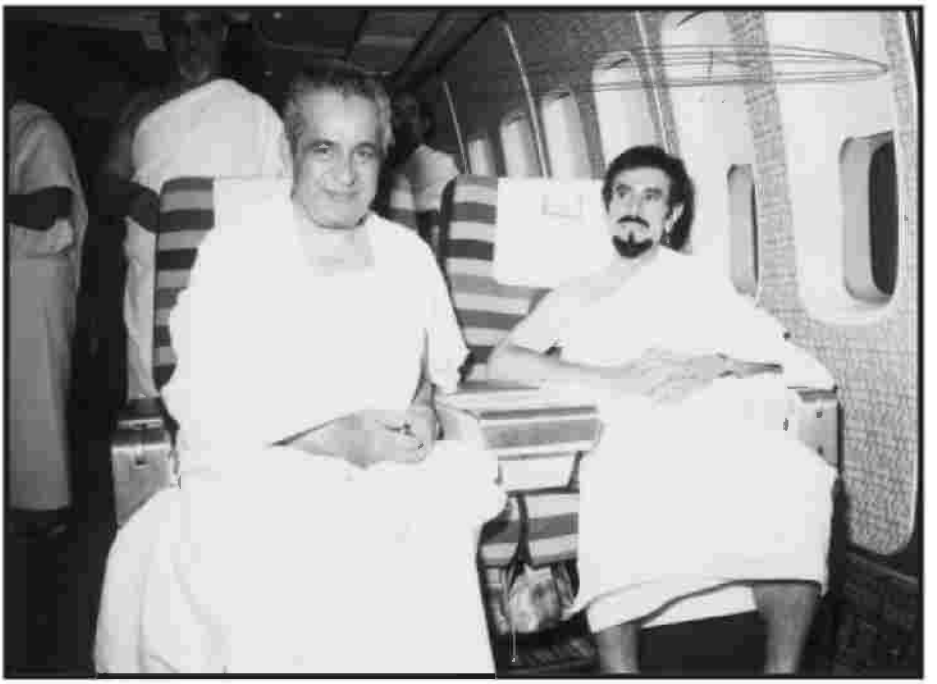

مع أمير الكويت الراحل الشيخ الصباح

الأربعاء ١٩٨٥/٦/٥ ـ ١٧ رمضان ١٤٠٥ فى الطريق إلى مكة للعمرة

ولى عهد الكويت السابق الشيخ سعد العبدالله الصباحى والشيخ محمد متولى الشعراوى

مع ولى العهد فى دولة الكويت

مع الملك حسين

بالأردن مع ولى العهد السابق شقيق الملك حسين ١٩٨٤

مع الرئيس جعفر نميرى

مع د. يوسف السباعى

فبراير ١٩٥٩ مع شريكة حياته

صورة عقد القران

أبوة وحنان.. مع أول مولودة له

بالكويت مع العائلة عام ١٩٩٠

مع الحفيدة الأولى علياء وكريمته نهى عبد العزيز كامل

جميع أحفاد د. عبد العزيز كامل مع كريمته هدى

د. عبد العزيز كامل ود. رشاد سالم

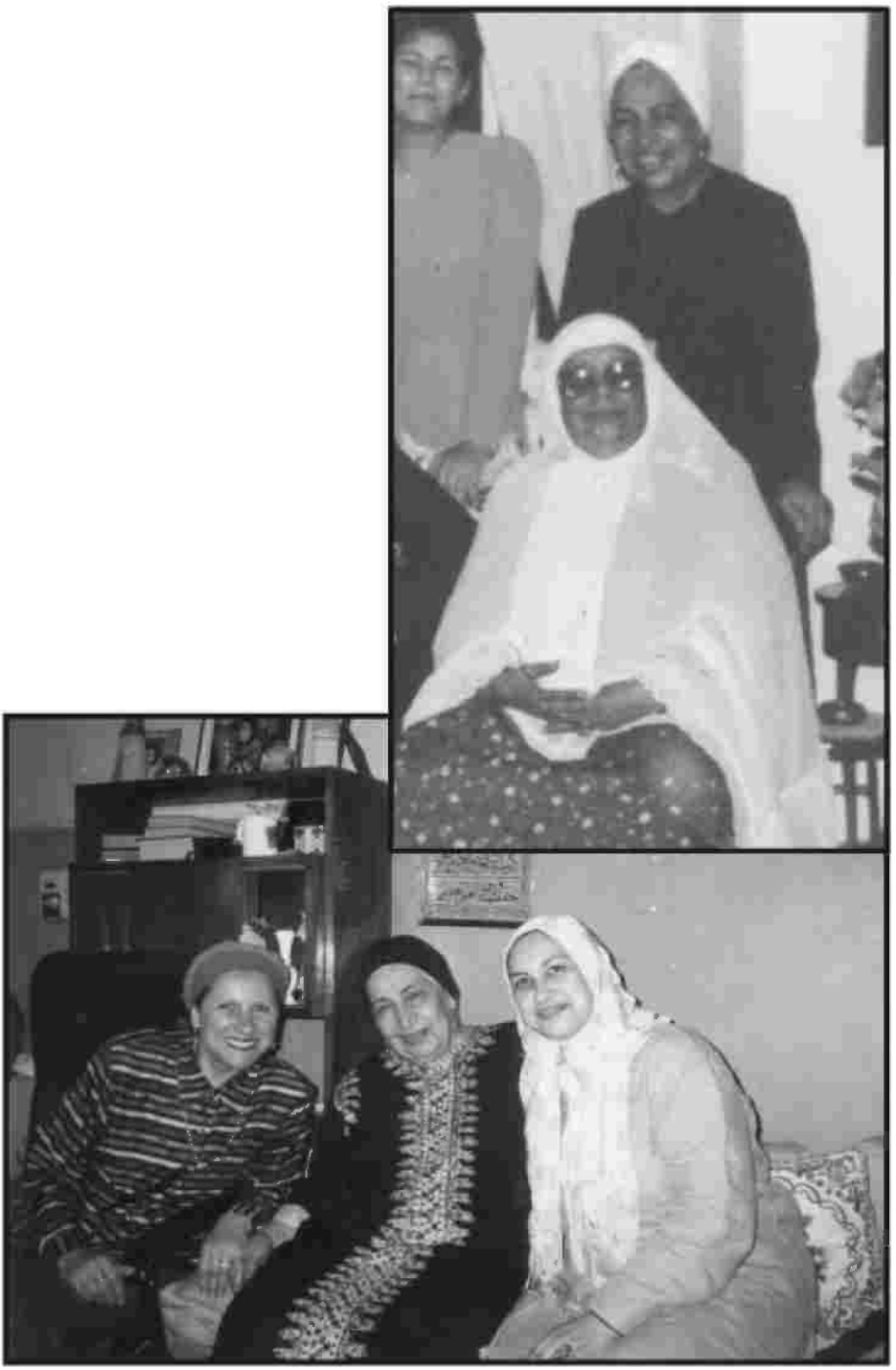

السيدة رائيفة شقيقة الدكتور عبد العزيز كامل مع كريمتيه نهى ومهدى عبد العزيز كامل

نهى عبد العزيز كامل مع حامد كامل
الشقيق الأكبر للدكتور عبد العزيز كامل

مع شقيقه الأصغر عبدالعليم كامل

مع الإسرة .. أثناء رحلة العلاج
والمرض لشريكة الحياة

مع شريكة حياته السيدة فوزية